

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اَلْاِسْلَامِيَّةِ جَامِعَةِ

العدد السابع والستون • السنة السابعة عشرة • خريف سنة ١٤٣٢هـ / ٢٠١٠م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: (٨٩٤ = ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

[www.ahlulbaytportal.com](http://www.ahlulbaytportal.com)

Tahrir-thaqalayn@hotmail.com :

Bc@ahl-ul-bayt.org :

## محتويات العدد

### □ كلمة التحرير

\*

.....

### □ من أريج القيادة الحكيمة

\*

دامت

عليها

: .....

\*

: .....

### □ ملف العدد: الحج مظهر الوحدة والحوار

\*

.....

\*

: .....

\*

: .....

\*

: .....

### □ دراسات فكرية

\*

.. ..

.....



المجمع العالمي للإسلام والتنمية

المشرف العام  
الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن  
المعاونية الثقافية - إدارة المجالات

رئيس التحرير  
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير  
الشيخ علي محسن

/

:



\*  
:

\*

:

\*

:

\*

:

:

□ مناسبات دينية

عليه السلام

:

□ وجهة نظر

\*

:

\*

:

:

□ تقارير ومتابعات

\*

:

\*

:

:

## الحجّ الإلهي.. تلك العبادة الوجدانية

دعوة رحمانية للتلاقي.. وفرصة تربوية نادرة

إنّه عبق مكة من جديد..



﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ

فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

هو ذاك العبق (المحمديّ - الإبراهيمي) ينبعث علينا، كما في كلّ عام، من  
الوادي المقدّس..

يسأل عن أحوال هذه الأمة، يطمئنّ عن سلامتها ومنعتها، يبحث ويفتّش  
عن بقايا إسلامٍ في نفوس أهلها، يناجي ضمائر قومٍ يأمل أنّها لا تزال تحتفظ  
برمقٍ من حياة، ببقيةٍ من عزّة وكرامة، بنفحةٍ من نفحات ذلك العصر  
المحمديّ.

إنّه نداء التوحيد والحنيفية عاد ليهبّ علينا مرّةً أخرى.. يحمل بين جنباته،  
وعلى نسياته، حنيناً.. وأيّ حنين!!

حنيناً يتوق لذكرى أمةٍ رسالية، قويّة، قادرة، مقتدرة، عزيزة، منيعة، رائدة،

سبّاقة، مبتكرة، يوحدّها لواء توحيدها، ويجمعها إيمانها، ويظللّها فيء قرآنها، والعشق لنبيّها، خير الخلق أجمعين، وخاتم النبيّين ..'

ذلك العشق الممزوج وعياً، المنطلق من معرفة عميقة، ترتفع بصاحبها إلى قمم الإيمان السامقة، وتسمو به إلى الذروة في التماهي والطاعة والانقياد والتسليم للقائد الربّانيّ، كما قال سبحانه: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: ٦٥].

لقد قدّر الله تعالى لهذه الأمة، مهما طال بها الزمن، ومهما ابتعدت بها الأيام عن عصر البعثة المباركة، - قدّر لها - أن تتنعم في كلّ عام ببركات هذا الموسم الإلهي وآثاره، وخصّها بنعمة لا مثيل لها بين الأمم، أعني: موسم الحجّ؛ إذ أين في هذا العالم الواسع كلّه نستطيع أن نجد فرصة كهذه الفرصة السانحة في أمة الإسلام؟

وأين في هذا العالم - أيضاً - يتاح لأمة من الأمم أن تعمد - سنوياً - إلى إيفاد مجموعة بشرية هائلة منها، ومن كلّ فجّ عميق، إلى مكان واحد، لتؤدي مناسكها، وتعظم شعائر ربّها، وتتوب إلى خالقها، توبة جماعية مليونية؟! في موسم الحجّ، ينادي الجليل عباده، ليمنحهم نفحة أخرى من نفحات كرمه وعظمته.. يعطيهم فرصة جديدة ليكونوا ضيوفاً عليه، وليقفوا بين يديه، ولكن هذه المرّة: يدعوهم ضيوفاً إلى بيته، ويناديهم للوقوف تحت ظلّ كرمه..

في ذلك البيت الملكوتي المبارك الذي يقول عنه سبحانه في محكم كتابه: { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ } [آل عمران: ٩٦]، والبيت العتيق الذي شيّده إبراهيم وإسماعيل '، ورفعوا قواعده على التوحيد والحنيفية، وعلى العبادة الحقّة لله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: { وَإِذْ رَفَعْنَا إِلَهُهُمْ أَلْفَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: ١٢٧]..

وفي موسم الحج أيضاً - وهو أيام معلومات في أحد أشهر الله الحُرْم - يدعو الجليل أبناء أمة نبيه الكريم '، على اختلاف ألوانهم وأطيافهم وشرائحهم وفئاتهم ومدارسهم وتوجهاتهم وانتماياتهم ولغاتهم، يدعوهم ليكونوا بأجمعهم لوناً واحداً، وطيفاً واحداً، وشريحة واحدة، وفئة واحدة، ومدرسة واحدة، وتوجهاً واحداً، وانتماً واحداً..

يدعوهم ليتكلموا جميعاً على موازين لغة موحدة، هي لغة القرآن.. وليكون لهم انتما ونهج واحد، هو دين الإسلام.. وليكونوا كلهم جهة واحدة تقف بقدم راسخة في الأرض في مواجهة من يجرو على معاداتهم، ومن يتربص بهم.. وليكونوا - على الحقيقة - ذلك الجسد الواحد المتصل والمترابط، الذي تتداعى أعضاؤه بالسهر والرعاية على ما اعتل من الأعضاء.. وليشكّلوا - معاً - ذلك الصفّ الواحد الذي تقول عنه الآية الكريمة: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ} [الصف: ٤].

إنّها دعوة من الرحمن القدير، موجهة إلى أطراف هذه الأمة، ليلقي بعضها بعضاً، وليتخاطب بعضها مع بضع، هي دعوة إلى الحوار والتلاقي، ونبد الفرقة، وإلغاء القطيعة - وبشكل نهائي - من قاموس مفردات الأمة، ونبد العصبيات المأفونة، التي لا يجد الأعداء منفذاً لهم إلى إضعاف هذه الأمة إلا من خلال اللعب على أوتارها، والاصطياد في عكر مياهاها.

فالحجّ - بحق - هو دعوة الإسلام إلى الوحدة والتلاحم والالتقاء، بل يمكن لنا أن نصفه بأنه «عبادة وحدوية» - وبامتياز -؛ إذ بأي منطق يمكن لنا أن نفترض حالة يحتشد فيها أناس من أقطار مختلفة لنفس الغرض، ويجتمعون في وادٍ واحد، ولأيام معدودات، يرتدون فيها لباساً موحداً، ويخطبون ودّ خالق واحد، ويؤدّون المناسك أنفسهم، ويعظّمون الشعائر ذاتها، ويتوجهون إلى قبلة واحدة، ويلبّون نداءً واحداً، ويتخلّون في هذا السبيل عن ألقابهم وتصنيفاتهم

الطبيقة والفنوية، ويهجرون له راحتهم وملذاتهم، ويكابدون فيه أصناف المشقة والنصب والتعب، ثم بعد ذلك، نفترض أنه بالإمكان أن يبقى مجال لنفوذ الشحناء والبغضاء إلى قلوبهم تجاه بعضهم بعضاً؟

وكيف لهذا المشهد الأبيض الرائع المتناغم، العابق بأنفاس الطاعة - وما تبثه هذه الأنفاس من أجواء الطهر والصفاء - أن لا يكون قادراً على أن يفتح أمام المشاركين فيه آفاقاً شاسعة من الحوار الهادئ، وأبواباً من التقريب الهادف؟! وكيف لهذا اللقاء السنوي الجماهيري العظيم - الذي لا يوجد له نظير في الكرة الأرضية كلها - أن لا يعزز في كل مسلم يشارك أو يرى، أن لا يعزز فيه الشعور بالاعتزاز بانتهاه الإسلام، أو الإحساس بعظمة الدين الذي يدين به؟!!

وأتى لنا أن نفترض بأن أجواء روحية، كتلك الأجواء المنبثقة عن هذا الاجتماع، تكون عاجزة عن أن تفعل فعلها على مستوى تهدئة النفوس، وتطبيب الخواطر، وتدوير الزوايا، وتلين القلوب؟!!

وهل يمكن لأحد - إلا الله تعالى ومن أطلعه الله على سره - أن يقدر الآثار العظيمة والدروس والمنافع التربوية التي يمكن أن يتركها مثل هذا التجمع العبادي الكبير، لا على الأشخاص المجتمعين أنفسهم (الحجاج) فحسب، بل كذلك على أهلهم وأحبائهم الذين حملوهم أشواقهم ودعواتهم، ثم باتوا في حالة انتظار وترقب لعودتهم إليهم، سالمين غانمين متقلبين في نعماء الله وفضله..

وهكذا يبدو لنا المشهد - ولا سيما في عالمنا المعاصر، النشيط مادياً، والمترهل، بل الميت، روحياً ونفسياً - وكأن أمة النبي ' تُوفد في كل عام جماعات منها إلى الأرض التي انطلق منها الوحي، لتعيش هذه الجماعات هناك حالة من الإعداد الروحي، ولتنخرط في دورة تدريبية وتأهيلية تستغرق أياماً من التربية

النفسيّة، تحوّلهم - بعد عودتهم - أن يفتحوا صفحاتٍ جديدة في حياتهم، وفي سلوكهم، وفي تعاملهم مع الآخرين، وفي نظرهم إلى الأمور، كما لعلّه يُرشد إلى ذلك ما دلّ من النصوص والأخبار الكثيرة على أنّ الحجّ الحقيقي هو - عند الله تعالى - من موجبات العفو والتوبة وإحساء الذنوب.

وقد ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «الحجّاج يصدرون على ثلاثة أصناف: صنف يُعتق من النار، وصنف يخرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمّه، وصنف يُحفظ في أهله وماله، فذاك أدنى ما يرجع به الحاجّ»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا المشهد العظيم، وفي الوقت الذي تكون الأنظار فيه مشدوّهة إلى الكعبة المشرفة، وجمالها الربّانيّ، وآثارها المعنويّة، فلا يجوز أن يغيب عن أذهان الجميع ما يجري على المسلمين في الساحة الفلسطينيّة، تلك الأرض التي ضمت المسجد الأقصى، وأولى القبلتين؛ إذ كيف لناظر إلى الكعبة المشرفة، التي حرص النبيّ ' على هدم أصنامها، وتحطيم كلّ رموز الشرك عندها، واستطاع أن يذلّ بعزة الإسلام رقاب العتاة والجبابة والمستكبرين الذين تحدّوا هذا الدين، واعتدوا على حرّمات أهله وأعراضهم، كيف لناظر إلى هذه الكعبة أن لا يستلهم منها البراءة من الصهاينة وحلفائهم وخططهم، وضرورة الوقوف في مواجهتهم؟!

ومن هنا، نعرف جيّداً أنّ إصرار البعض على تحويل الحجّ في كلّ عام إلى بؤرة للفتنة بين المسلمين، وإلى منبرٍ لإطلاق التهم التكفيرية هنا وهناك، وإلى ملهاة تشغل المسلمين عن الهموم الكبرى وتعمي عيونهم عن الأخطار المصيرية التي تحيق بكلّ وجودهم وكيانهم، لا يخدم - أبداً - أهداف الحجّ الكبرى، ولا ينسجم - أصلاً - مع فلسفة الحجّ الإلهي، تربوياً واجتماعياً وسياسياً.

نسأل الله تعالى أن يحفظ الإسلام والمسلمين، وأن يجعلنا من الحجّاج الحقيقيين الذين هم على استعدادٍ دائماً للتضحية والبذل والعطاء وشدّ الرحال



إلى طاعته، وإلى جواره وقربه، إنه سميع مجيب.

\* \* \*

### الهوامش:

(١) انظر: الحرّ العامليّ، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة ١١: ٩٣، الباب ٣٨، ح ١، ط مؤسسة آل البيت <sup>٨</sup> لإحياء التراث، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ، قم المقدّسة.

من  
أريج القيادة الحكيمة  
﴿﴾

الإمام القائد الخامنئي دام ظلّه  
في ضيافة السيّدة المعصومة ومراجع الدين والحوزة العلمية  
بمدينة قم المقدّسة

□ إعداد: أحمد الحسن

بالتزامن مع الولادة المباركة والميمونة لثامن الحجج، الإمام الهمام عليّ بن موسى الرضا X، وصل قائد الثورة الإسلاميّة ساحة آية الله العظمى السيّد علي الخامنئي دام ظلّه إلى مدينة «قم المقدّسة»، في زيارة تاريخيّة نادرة، تزخر بالدروس والدلالات، وتحمل الكثير من المعاني والقيّم، وتتجاوز - بكثير - أطر العاطفة والوجدان والأحاسيس، لتتوغّل بعيداً في دلالات السياسة، ودروس الثورة، ومفردات الفكر القياديّ..

فهي زيارة القائد الكبير الذي تخرّج من أحضان الحوزة المباركة، من دون أن يخرج منها، بل بقي - في اجتهاده الفقهيّ، وفي فكره الجهاديّ، وفي عمله السياسيّ، وفي ممارسته القياديّة لأمة الإسلام، وفي مواقفه الشجاعة التي يقلّ

نظيرها تجاه مختلف القضايا والتحديات المعاصرة - يحتضن فكر الحوزة بين جنبتيه، ويضع همومها نصب عينيه، معرفةً منه بأن تلك الحوزة يعود لها الفضل الكبير - منذ تأسيسها في عصر حضور الأئمة <sup>ع</sup>، و سطوع نجمها منذ بدايات عصر الغيبة وإلى زماننا الحالي - في نشر تعاليم الإسلام الحقّة، وفي تعريف الناس بالنبي ' وأهل بيته <sup>ع</sup>، وفي الدفاع عن القرآن الكريم والسنة، وفي صيانة عقول وقلوب المسلمين من شبهات المغرضين والحاquدين، وفي تكفل الضعفاء والمستضعفين وحمايتهم من المستكبرين وأعوان الشياطين..

وصل موكب الإمام القائد إلى مدينة قم وسط استقبال جماهيريّ حاشد للغاية، فكأنّ موكبه سفينة تمخر عباب البحر.. غير أنّه بحر أمواجه من البشر، من الرجال والنساء، والشيب والشباب، والصغار والكبار.. أمواج تتدافع بقوة بفعل رياح الحبّ والعاطفة العاتية، الحبّ الممزوج بالوعي، والعاطفة التي لا تغمر القلب إلّا من بعد أن تُقنّع العقل..

احتشد أهالي قم على جانبي طريق «١٩ دي» البالغ ٥ كلم، والممتدّ ما بين مدخل مدينة قم المقدّسة إلى مرقد السيدة فاطمة المعصومة (سلام الله عليها)<sup>(١)</sup>. وقد شارك في هذا التجمّع الجماهيريّ الحاشد مختلف شرائح الشعب، ومن بينهم علماء الدين، ومختلف التشكيلات الشعبيّة والدينيّة، وهم يرفعون بأيديهم باقاتٍ من الزهور، وصوراً للقائد الضيف، والقبضات الصارمة وهتافات الحناجر بالموت لأمريكا و«إسرائيل» تكاد تعانق السماء.

كان التدافع كبيراً لدرجة أنّ السيارة التي كان يستقلّها سباحة القائد كانت تشقّ طريقها بصعوبة بالغة بين هذا الحشد الجماهيري.

ولا يسعك وأنت تغوص في وسط هذه الحشود المستبشرة، إلّا أن تضحك مستهزئاً ببعض الإعلام المغرض، الذي انبرى متهاكاً - حتى قبل أسابيع على انعقاد هذه الزيارة، ومن كلّ مكانٍ في هذا العالم -، ليحاول تشويه هذه الزيارة،

وذلك عبر التقليل من أهميتها تارةً، أو الإيجاء بآئها زيارة مفروضة على أهل قم ثانيةً، أو إطلاق مزاعم تفيد بأن هذه الزيارة لا تأتي إلا لتزيل قطيعةً استمرت لسنوات بين القائد وبين القميين، بما يمثله هؤلاء من حوزويين أو محتضنين للحوزة العلمية أو أتباع مخلصين للمرجعيّات الدينيّة، تارةً أخرى.

لو كان الأمر كما يقول هؤلاء، لما كان الاستقبال حاشداً إلى هذه الدرجة، وحتى لو استطاعت السلطات الرسميّة أن تجرّ كلّ هذه الحشود جرّاً إلى مكان الاستقبال، فهل كانت لتستطيع - أيضاً - أن تجيش القلوب والدموع، هذه الدموع التي رأيناها تنصبّ وتنهمر بغزارة من عيون المحييين؟!

وهل كانت السلطات هي - أيضاً - وراء تدافع الأشواق هذا؟ وهل يتلاءم كلّ هذا الحماس والشوق والاندفاع مع وجود قطيعةٍ تهدف الزيارة إلى مسحها ومحوها؟!

ولو لم تكن لهذه الزيارة مداليلها العميقة وتأثيراتها البالغة على معادلات السياسة العالميّة، وعلى موازين القوى ومعادلات الصراع، فلماذا - إذاً - تحدث الإعلام الغربيّ عامّةً، والأمريكيّ خاصّةً، عن هذه الزيارة، وبكلّ هذا الزخم السياسيّ؟

ولولا أنّ لزيارته <sup>(عليه السلام)</sup> إلى مدينة قم دلالات تاريخيّة ومصيريّة فلماذا - إذاً - شكّلت عند هؤلاء فارقاً مهماً؟ وما الذي جعلها تتميز عن زيارته إلى غيرها من المحافظات الإيرانيّة، التي يزور القائد المفدّى واحدةً منها كلّ عام، حيث لم نجدهم يعلّقون على زيارته تلك بهذا المستوى؟!

ولولا أنّ موقع ولاية الفقيه متجذّر في قلوب أبناء الشعب الإيرانيّ، ولا يعاني من ضعف وهشاشة كما يتشدّق به البعض، لما خفقت نبضات تلك القلوب إلى الحدّ الذي رأيناه، ورآه العالم كلّهُ، في مشهد الاستقبال.

إنّ في كلّ هذا لدليلاً قاطعاً على متابعة الأعداء ومراقبتهم عن كثب لما يجري

في الجمهورية الإسلامية، وتركيزهم على استهداف نقاط القوة فيها، والتي منها مدينة قم، بما تعنيه من تاريخ حافل للثورة الإسلامية منذ انطلاقتها وحتى أوج اشتدادها وذروتها، ومن احتضان الحوزة العلمية والمرجعيات الدينية الرشيدة، وبما تمثله من حاضرة إسلامية، روحية، وعلمية، وثقافية.

وإن هؤلاء - في الوقت الذي يزعمون فيه حرصهم وأسفهم الشديد على الحريات وحقوق الإنسان في إيران - لا يتورعون عن وصف الجماهير التي هرعت لاستقبال الإمام الخامني رحمته الله - على الرغم من حشودهم المليونية - لا يتورعون عن وصفهم بالحمقى والسذج والمسيرين، وغير ذلك من الأوصاف، ما من شأنه أن يفضحهم أمام الرأي العام، ويكشف حقيقة نواياهم (بالطبع لمن لم يعرفها بعد)، فهؤلاء لا يهتمهم الإنسان في إيران، ولا الحريات، ولا الحقوق، بل كل ما يهتمهم: أن ثورة قام بها عبد الله، يُسمى روح الله الخميني +، تسير على هدي خير خلق الله، محمد بن عبد الله '، والمعصومين من عترته ^، ويحمل لواءها - حالياً - جنود الله، وحزب الله، وفي مقدمتهم إمامنا القائد الخميني رحمته الله، وهي - اليوم - تعطل عليهم مصالحهم الاستكبارية، وتشل حركتهم الاستعمارية، وتقف سداً منيعاً في وجه مطامعهم، وتعري أحقادهم، وتعيد العزة لنفوس أبناء الأمة الإسلامية، ثورة كهذه، هم لا يريدون شيئاً في هذا الوجود بقدر ما يريدون خنقها ووأدها وإطفاءها.. قال تبارك وتعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: ٣٢].

فما الذي جرى في «قم» خلال هذه الزيارة؟ ولماذا كل هذا التركيز الإعلامي والاستهداف؟ ولماذا هذه الحملة الشعواء؟

فيما يلي نسلط الضوء على بعض مجريات هذه الزيارة، وبعض اللقاءات التي تمت خلالها، ونستعرض مقتطفات من الكلمات النورانية التي ألقاها سماحة

الإمام القائد في حشود من الشعب والمسؤولين وأساتذة الحوزة العلميّة وفضلائها وطلّابها.

استهلّ قائد الثورة الإسلاميّة دام ظلّه زيارته إلى مدينة قم بزيارة المرقد الطاهر للسيدة المعصومة ÷. وهناك حدثت معظم اللقاءات التي أجراها دام ظلّه مع مختلف الشرائح والفئات القمّيّة.

وكان من أبرز تلك اللقاءات، اللقاءات التي جمعت إلى مراجع الدين العظام، والتي صبّت في إطار التواصل المستمرّ بين القيادة وبين المرجعيّات الرشيدة، وتناولت الأوضاع الراهنة في الأمة الإسلاميّة، والأخطار التي تتهدّد لها، ودور مقام المرجعيّة في مواجهة التحديات، وإحياء المؤامرات التي يحكيها أرباب السياسة الاستعماريّة في المنطقة، ولا سيّما المؤامرات الأمريكيّة والصهيونيّة، وضرورة ترشيد الخطاب الحوزويّ والاهتمامات الحوزويّة، في سبيل أن تأخذ الحوزة مكانها الطبيعيّ، وأن تعود لممارسة دورها الرياديّ في قيادة الأمة، وتوجيه خياراتها، وتصويب مساراتها، والنهوض بها علمياً وتربوياً واجتماعياً وثقافياً، بما من شأنه أن يُعيد لها موقعيّتها المميّزة والممتازة بين الأمم والشعوب، كما وحضرت في هذه اللقاءات عناوين أساسيّة تحمل تأكيدات على ضرورة التوسيع من أفق الرؤية الحوزويّة بما يسهّل لها عملية مواكبة الاستحقاقات المعاصرة، على الساحات المحليّة والإقليميّة والعالميّة، وضرورة الارتقاء بالمشروع الرساليّ الإسلاميّ الإنسانيّ - والذي هو رسالة الحوزة العلميّة وهما - إلى أعلى مراحلها، وضرورة إجراء قراءات نقدية ذاتيّة تضمن للحوزة العلميّة تموضعها الصحيح في سياقات البناء والمواجهة.

كما التقى الإمام الخامنئي دام ظلّه خلال هذه الزيارة المسؤولين والقيّمين على المدينة، وعلى شؤون الناس فيها، مؤكّداً في هذا اللقاء على المعنى العميق الذي تحمله المسؤوليّة في جوهرها، وهو السهر على خدمة الناس، والنظر بواقعيّة إلى

شؤونهم الحياتية، والعمل على تلبية احتياجاتهم، وتسهيل أمورهم ومعاملاتهم. وفي لقائه مع حشدٍ غفير من عوائل الشهداء والمضحّين والمجروحين خلال الحروب المفروضة على الجمهوريّة الإسلاميّة، والتي خاضتها خلال السنوات والعقود الماضية دفاعاً عن وجودها وعزّتها وكرامتها وحرّيّة خياراتها وقراراتها، قال دام ظلّه:

«إنّ مدينة قم تعدّ مدينةً رائدة ومتفوّقة في الكثير من الأمور، منها باب الشهادة والشهداء وعوائل الشهداء، فلقد قدّمت هذه المدينة للإسلام وللثورة نحواً من ستّة آلاف شهيد. بل إنّها في بعض أعوام الدفاع المقدس قدّمت في سنة واحدة أكثر من ألف شهيد، جهاداً في سبيل الله، ومع أنّ هؤلاء قد تضرّجوا بدمائهم والتراب، إلّا أنّ هذه المدينة العظيمة شيّعت جثامينهم ولم تضعف أبداً، وفيها نحو أحد عشر ألف مجروح ومعلول بسبب الحرب، وهؤلاء في الحقيقة هم الشهداء الأحياء بيننا.. وهم شهداء أعلام معروفون، تفخر بهم البلاد كلّها، وليس مدينة قم وحدها.. إنّهم نجوم وكواكب، وهذه مميزات كبرى.

أعزائي.. إنّ قضية الشهادة قضية عميقة ومهمّة جداً. وقد حلّ شعبنا هذه القضية عملياً من خلال إيمانه وشجاعته ومشاعره الدينيّة.. وقد قدّم الشهداء والتضحيات، وكان بيننا آباء وأمّهات لم يبكوا على شهدائهم حتى، بل كانت هناك عوائل لبست ثياب الفرح والسرور في مراسيم تأبين شهدائهم.

لو أردنا عرض قضية الشهادة وأهمّيّتها في جملة واحدة، لقلنا بأنّ الاعتقاد بالشهادة، والإيمان بعظمة الشهداء، يمثّل بالنسبة لأيّ شعب العمق المعنويّ لشخصية ذلك الشعب وهويّته، وهو ما يفسّر كيف يمكن لشعب أن يُعرف بالعظمة في أعين شعوب العالم؟ وكيف يمكن للشعب - بدل أن يتأثر بشتيّ العوامل السياسيّة في العالم - أن يترك تأثيره على جميع مجريات الأحداث في العالم؟ وكيف يمكن للشعب بلوغ هذه المكانة من دون أن تتوفر له المعدّات والأدوات

العسكرية المعقدة، ومن دون أن تكون لديه إمكانيات إعلامية واسعة ليؤثر بها على شعوب العالم بحيث تنجذب هذه الشعوب إليه؟ لاحظوا مشهد الاستقبال الذي خرج به الشعب اللبناني عند زيارة رئيس جمهورية الشعب الإيراني لهم. هذا ليس بالشيء القليل، بل هو مشهد جدير بالدراسة والتحليل. إذ كيف يمكن لرئيس جمهورية شعب في بلد ما أن يحظى بكل هذا الاهتمام في ديار شعب آخر ليست له بهم صلة قرابة أصلاً؟ من أين تأتي - يا ترى - عظمة هذا الشعب؟ إن الإجابة عن جميع هذه الأسئلة تستدعي التنبيه لأهمية قضية الشهادة؛ إذ حينما يتقبل شعب بأكمله، بجميع أبنائه وشبابه وآبائه وأمهاته، مبدأ الإيثار في سبيل الله، والتضحية بالنفس في سبيل الهدف الإلهي، ويؤمنون به، فإن هذا الشعب سوف يكتسب عمقاً هائلاً من العظمة، ومن الطبيعي أن يكون هذا الشعب مقتدراً وقوياً ومتفوقاً، ولو من دون أن يكون له سلاح، ومن دون أن يمتلك ثروات مميزة».

وفي خطابه مع مختلف شرائح الشعب، لم يتردد قائد الثورة الإسلامية (عليه السلام) في استعمال مفردة «الفتنة» خلال حديثه عن مساعي العدو الرامية إلى إجهاض نتائج المشاركة الملحمية للشعب الإيراني في الانتخابات الرئاسية، والتي شكّلت - بحق - استفتاءً عاماً على مستوى ارتباط الشعب الإيراني بنظام ودستور الجمهورية الإسلامية؟

تمحور هذا الخطاب حول مشاريع الأعداء ومؤامراتهم التي يحكيونها ضدّ النظام الإسلامي، وقد حذّر فيه الإمام القائد (عليه السلام) من تغليب الحسابات الضيقة والعبارة على المصلحة العليا لاستقرار النظام، مؤكداً على ضرورة النقد السياسي المتوازن الذي لا يصل إلى حدّ المبالغة في النقد وتضخيم المشكلات إلى الحدّ الذي يجعل الناقد، من حيث دروا أو لم يدروا، في صفّ واحد مع أعداء النظام وخطّ الثورة.



وفي هذا الخطاب - أيضاً - أعلن الإمام القائد عليه السلام عن موت مفاعيل الحظر الاستكباري والمقاطعة المفروضة على إيران، وفشل دسائس الأعداء المغرضة والهادفة إلى دفع الجمهوريّة الإسلاميّة نحو الاستسلام والرضوخ والتنازل.

وفي مقطع آخر من حديثه، اعتبر وليّ أمر المسلمين عليه السلام أنّ كلّ هذه الضغوط الخارجيّة، وهذا الحصار الظالم، على الرغم من أنّها في الظاهر تجرّ آثاراً عصيّة على الساحة الداخليّة الإيرانيّة، إلّا أنّه بحسب النظرة العميقة، فقد استطاعت أن تهيئ الساحة الداخليّة لحدوث قفزات تنمويّة وعلميّة وصناعيّة هائلة، وأدّت إلى أن تأخذ النخب الإيرانيّة الشابّة - من خلال صبرها ومجاهدتها - بزمام العلوم، لتعرف بذلك طريقها نحو القمّة في مجال الابتكارات العلميّة والتقنيّة.. كما بيّن أنّ الحفاظ على هذه الإنجازات والنجاحات، والاستمرار بها، مرهون بتمتين الجبهة الداخليّة، من خلال الحرص على الوحدة الوطنيّة بين أبناء الشعب أنفسهم من جهة، وبين الشعب والسلطات الثلاث، وبخاصّة السلطة التنفيذية، من جهة أخرى، وكذلك بين هذه السلطات فيما بينها، من جهة ثالثة.

ومن العناوين المهمّة التي برزت وحظيت باهتمام كبير في كلمات القائد عليه السلام - أيضاً - لزوم تعزيز مسار الوحدة الإسلاميّة، التي تمثّل واحدة من الخطوط المبدئيّة والتوجّهات الاستراتيجية في دستور الجمهوريّة الإسلاميّة، من دون أن تعني - أبداً - الرضوخ أمام سيل الشبهات التي تُحاك ضدّ الإسلام عموماً، وضدّ مذهب أهل البيت <sup>ع</sup> خصوصاً، بل لا بدّ من التصديّ لمواجهة مثل هذه الشبهات بكلّ حكمة وهدوء وموضوعيّة، ولا سيّما بالنظر إلى ارتباطها بالمؤامرات والمخططات التي يشرف عليها خبراء صهيانيّة، في غرفهم السوداء التي يتفنّنون فيها بتدبير وصناعة مشاريع الفتن الدامية في أكثر من ساحة في عالمنا الإسلاميّ.

وفي حضور جمع غفير من الطلاب والفضلاء غير الإيرانيين، من المقيمين في مدينة قم - وبعد الترحيب البالغ بهم في أحضان وربوع الجمهورية الإسلامية، والتأكيد على أنهم ليسوا غرباء فيها، ولا ضيوفاً، بل هم أصحاب الدار، وبعد تشبيه هؤلاء بالفراشات الواهة التي انجذبت إلى هذه الديار شوقاً لتعلم المعارف الإسلامية الأصيلة - ألقى الإمام القائد دام ظلّه كلمة قيّمة جاء فيها:

«إنّ أول الدروس التي تعلّمناها من الثورة الإسلامية، ونظام الجمهورية الإسلامية المبارك، هو أن نحول نظرنا من الأطر الضيقة المنحصرة في حدود الشعب الإيراني، إلى الميدان الواسع للأمة الإسلامية، فقد علّمنا إمامنا العظيم - الإمام الخميني + - كيف نمّد أنظارنا نحو ساحة الأمة العظيمة. ففي الوقت الذي كانت إيران تُسحق فيه، وتعاني من حالة احتضارٍ في عهد الطاغوت - الشاه المقبور -؛ نتيجةً لضغط الاستبداد والاستعمار، ومع أنّه كان لا بدّ من التركيز على إنقاذها، إلا أنّ الإمام الراحل كان يؤكّد على أنّ الضغط الأساسي، والغزو الرئيسي، كان يتمثّل بالغزو التاريخي الذي يطال الأمة الإسلامية ككلّ، والتي تمتدّ في مناطق حسّاسة من جغرافيا هذا العالم، فإنّها هي التي كانت تعاني من الضعف والانكسار، ومن التخلف والتسلّط، ومن الفقر الماديّ والمعنويّ، بفعل تدخّلات القوى الكبرى، وأطماع الدول العظمى، وتجاوزات الاستكبار واعتداءاته السافرة على امتداد قرونٍ عدّة من التاريخ».

وفي سياقٍ متصلّ أضاف سباحته:

«إنّ الثورة الإسلامية كانت تنشد منذ البداية تحرّر الأمة الإسلامية برمتها من أيدي الاستكبار، ولهذا السبب، فمع انتصار الثورة الإسلامية في إيران، شعرت كافّة الشعوب المسلمة في شرق العالم وغربه، بأنّ ثمة نعمة منعمة قد هبت في حياتها، وأنّ طريقاً جديدة قد شرّعت أمامها».

وفي مقطع من هذا الخطاب، قال سماحة الإمام القائد دام ظلّه:

«إنّ الهدف من هذا الحضور المبارك ليس هو تصدير الثورة بمعناه السياسيّ الذي يروّج له الأعداء؛ لأنّ الثورة ليست - أصلاً - ظاهرة يمكن تصديرها من خلال الوسائل السياسيّة والعسكريّة والأمنيّة، لذلك، فإنّ النظام الإسلاميّ رفض منذ البداية الفهم الخاطئ لموضوع تصدير الثورة».

فالقائد عليه السلام لا يتحدّث عن تصدير الثورة، بل يتحدّث عن نقل المعارف والعلوم، وذلك على اعتبار أنّ للثورة متطلّباتها وظروفها الخاصّة، وأنّها لا تنشأ إلّا من سياقٍ سياسيٍّ واجتماعيّ وثقافيٍّ معيّن، وهو يختلف بين منطقة وأخرى، وبين مجتمع وآخر، والثورات ليست سلعةً قابلةً للتصدير والاستيراد، وإنّما هي نماذج إنسانيّة مشرقة تمتلك قدرةً ذاتيّةً على الإبهار، نظراً لما تختصره الثورات - عادةً - من قيمٍ إنسانيّة أو دينيّة سامية، وإنّ استلهاً الشعوب لهذه النماذج، وتفاعلها معها، لا يعني - بالضرورة - تورّطاً سياسياً أو أمنياً لأصحاب هذه الثورات في خارج البيئة الحاضنة لثورتهم، بل هو أمر طبيعيّ يقتضيه النزوع الفطريّ للشعوب نحو الثورة لقلب الأنظمة الظالمة، أو لتغيير الأوضاع السيئة إلى أحسن منها.

فليس الهدف من هذا الحضور الطلّابيّ الأجنبيّ الواسع النطاق الذي تشهده الحوزة العلميّة في قم، هو تصدير الثورة، بل الهدف ينحصر - من وجهة نظر القائد - في الأطر العلميّة والدراسيّة والمعرفيّة الصرفة، وهو «هدف علميٍّ وتربويٍّ بحث»، على الطلّاب أن يبذلوا جهوداً حثيثة في سبيل تحقيقه، و«الأسلوب الأفضل لذلك، ولنقل هذه المعارف المنجية إلى الشعوب، يتمثّل في الأخلاق والمحبة تجاه الناس».

فالقائد عليه السلام - وخلافاً للدعاية الأمريكيّة المعادية - قد وضع هذه الرعاية الحوزويّة، وهذا الاحتضان والتكفّل العلميّ للطلبة الأجانب، خارج سياق التجاذبات الإقليميّة، وبعيداً عن أيّ استغلال سياسيٍّ، وعن أيّ إعداد طائفيٍّ

ومذهبي متعصب ومنغلق الأفق، ومقصوراً على النطاق العلمي والتربوي، الذي يهدف إلى الارتقاء بالإنسانية إلى كمالها المنشود على هدي الرؤية الربانية الإسلامية، بما يعنيه ذلك من رفض للانعزال السياسي والاجتماعي، ومناهضة لقوى الكفر والاستكبار، والوقوف في وجه الظلم والطغيان، والذي هو من صميم التعاليم الإسلامية، مضافاً إلى كونه سمة بارزة، بل - ربّما - السمة الأبرز في حركة أنبياء الله تعالى <sup>٨</sup>.

هذا. وقد ألقى الإمام الخامنئي رحمته الله خطاباً آخر على مسامع عدد كبير من فضلاء الحوزة العلمية وأساتذتها، نقل - فيما يلي - معظم الفقرات التي وردت فيه، نظراً لما لها من أهمية وحساسية.

قال رحمته الله - بعد افتتاح الكلام بما يليق من البسملة والحمد والصلاة على النبي ' وأهل بيته <sup>٨</sup> :

«السلام عليك أيتها السيّدة، يا فاطمة المعصومة، يا بنت موسى بن جعفر '، السلام عليك وعلى آبائك الطيّبين الطاهرين المعصومين أفضل الصلاة والسلام.

إنّ اقتران لقائنا هذا، بكلّ عظمتها التي أضفهاها الحضور المميّز للأساتذة والكبراء والفضلاء والطلبة الأعزّاء في الحوزة العلمية في قم، اقترانه مع الولادة السعيدة لإمامنا عليّ بن موسى الرضا (عليه آلاف التحية والثناء)، وكذلك ولادة أخته الجليلة السيدة فاطمة المعصومة (سلام الله عليها) يذكّرنا بالخطوة العظيمة المباركة لهذا الأخ وأخته، وهجرتهما العميقة المعاني، والتي كانت - بلا مرأى - خطوة بناءً ومؤثّرة في تاريخ شعبنا، وفي تاريخ التشيع.

ولا ريب في أنّ دور السيدة المعصومة (سلام الله عليها) في توسعة مدينة قم وإضفاء العظمة على هذه المدينة الدينية ذات العراقة التاريخية هو دور فوق الكلام وفوق النقاش.

هذه السيّدة الجليلة والفتاة الشابة التي تربّت في أحضان أهل بيت النبي '، من خلال تحرّكها في جماعةٍ من أصحاب الأئمة <sup>٨</sup> وأصدقائهم وأنصارهم، واجتيازها المدن المختلفة، ونثرها بذور المعرفة والولاية بين الناس على امتداد الطريق، ثم الوصول إلى هذه المنطقة، والنزول في قم، جعلت هذه المدينة تتألق كمقرّ رئيسيّ لمعارف أهل البيت <sup>٨</sup> في تلك الفترة المظلمة الحالكة من حكومة الجبابرة، وحوّلتها إلى حصن يشعّ بأنوار علوم أهل البيت ومعارفهم على كلّ العالم الإسلاميّ شرقاً وغرباً.

واليوم أيضاً، فإنّ مدينة قم هي المركز المعرفيّ والعلميّ في العالم الإسلاميّ. اليوم أيضاً، وكما في ذلك الزمان، تعدّ قم القلب النشط المتحرّك الذي يستطيع، ويجب، أن يضخّ دماء المعرفة والبصيرة والصحة والوعي في كلّ أنحاء جسد الأمة الإسلاميّة.

في ذلك العهد، أصدرت مدينة قم أولى كتب الفقه والمعارف الشيعيّة وتأليفات أتباع أهل البيت. كما أنّ ظهور الكتب الأساسيّة المعتمدة من قبل الفقهاء والعلماء والمحدّثين كان في الحوزة العلميّة بمدينة قم، فمن هذا المقرّ المعرفيّ صدر - مثلاً - كتاب «نواذر الحكمة» لمحمّد بن أحمد بن يحيى، وكتاب «بصائر الدرجات» للصفّار، وكتاب «الشرايع» لعلي بن بابويه القميّ، وكتاب «المحاسن» للبرقي، وكتب أحمد بن محمد بن عيسى، والعشرات، بل المئات من الكتب الأخرى. وهنا - أيضاً - نشأت رجالات كانوا يسافرون إلى أقطار العالم الإسلاميّ فتتحوّل محافلهم ومجالسهم إلى مجالس للفيض العلميّ. كالشيخ الصدوق (رضوان الله عليه)، من علماء الجيل الثالث والرابع لهذا التحرك العظيم، فإنّه حينما قدم إلى بغداد التي كانت مركزاً للشيعة والحديث، اجتمع تحت منبره العلماء والفضلاء والأكابر، وانتفعوا من علمه. فكان الشيخ الصدوق شيخاً وأستاذاً لمثل الشيخ المفيد (رضوان الله عليهما).

وهكذا تحوّلت قم إلى مركز وقطب، وهي اليوم أيضاً مركز وقطب. لقد اجتمعت هنا طوال الأعوام المديدة عشرات الآلاف من الفراشات العاشقة حول شموع معارف أهل البيت <sup>ع</sup>، واكتسبوا العلم والمعرفة، وهم يعانون من مشكلات عديدة، ويتطلعون لأهداف عالية ومعنوية، ويتقدّمون إلى الأمام دون اكتراث بهذه المشكلات.

ربّما قلّ أن نعلم، بل ربّما لا نعلم، في العالم كلّ، بوجود مثل هذا الكمّ الهائل من البشر في مدينة واحدة اجتمعوا طلباً لعلوم الدين والمعارف النظرية والروحية، ويسعون ويجهّدون نساءً ورجالاً، ليلاً ونهاراً، ويجاهدون الجهاد المعنوي والعلمي والثقافي.

هذه هي الحوزة في قم اليوم، بهذا الموقع العالمي الممتاز، وبها لمدينة قم من السوابق، حيث تأسست فيها أولى الحوزات المهمة لعالم التشييع، وكان ممّن نهل من معين هذا ينبوع الفيّاض رجال عظماء، كالشيخ الكليني والشيخ الصدوق وغيرهما. وكانت أعمال هؤلاء هي التي حفظت معارف أهل البيت <sup>ع</sup> طوال القرون المتتالية.

إنّ الحوزات العلمية - وخصوصاً الحوزة العلمية في قم - لم تكن في آية فترة من فترات حياتها محطّ أنظار الرأي العامّ العالمي، كما هي عليه اليوم. ولم تكن مؤثّرة في السياسات العالمية، وربّما في المصير العالمي والدولي كما هي اليوم. وكذلك، فلم يكن للحوزة العلمية في قم من الأصدقاء والأعداء ما لها اليوم. وأنتم أيّها الناشطون في الحوزة العلمية في قم، لكم اليوم من الأصدقاء أكثر ممّا كان على امتداد التاريخ كلّ، ولكم أيضاً من الأعداء أكثر وأخطر من كلّ من مرّ في الأحقاب الغابرة.

وهذا هو الموقع الحساس الذي تحتله الحوزة العلمية في قم حالياً، مضافاً إلى كونها في القمة من الحوزات العلمية.

:

وقد يحلو للبعض هنا أن يقول بأنّ الحوزات العلميّة لو لم تكن اليوم تتدخّل في القضايا العالميّة والسياسيّة، وفي التحدّيات المختلفة، لما كان لها كلّ هؤلاء الأعداء، ولكانت أكثر احتراماً ممّا هي عليه اليوم. ولكنّ هذه مغالطة واضحة؛ إذ ما من جماعة أو مؤسّسة أو منظومة لها قيمتها تحظى باحترام الرأي العامّ بسبب عزلتها وعدم فاعليّتها ونشاطها. وإنّ الاحترام الذي قد يُبدل تجاه المنظّمات والمؤسّسات المنزوية التي تفضّل السلامة وتناهى بنفسها عن التحدّيات ليس إلّا احتراماً شكليّاً وصوريّاً، بل هو احترام يساوي في عمقه وفي جوهره عدم الاحترام، وليس احتراماً حقيقيّاً، على حدّ احترام البعض للصور والتماثيل، الذي لا يعدّ في واقع الأمر احتراماً. بل إنّ هذا الاحترام يكون أحياناً - من قبل من يتظاهر به - مشوباً بالإهانة والاستخفاف الباطنيّ. إنّ الذي يثير الاحترام الحقيقيّ، سواء في قلوب الأصدقاء أم الأعداء، إنّما هو الكائن الحيّ النشط والمؤثّر، فإنّ الأعداء على الرغم من عداوتهم لمثل هذا الشخص، إلّا أنّهم في دخيلة أنفسهم يجلّونه ويحترمونه.

فأولاً: إنّ عزلة الحوزة العلميّة في قم، أو أيّة حوزة علميّة أخرى، ستؤدّي إلى إقصائها. وإنّ عدم الدخول في التيارات الاجتماعيّة والسياسيّة والتحدّيات يفضي - تدريجيّاً - إلى التهميش والنسيان والعزلة. ولذلك كان علماء الشيعة عموماً - باستثناء بعض الحالات الفرديّة والآنيّة - حاضرين دوماً في قلب الأحداث. ولهذا، نجدهم يتمتّعون في المجتمع بنفوذ وعمق لا تحظى به أيّة منظومة أخرى من رجال الدين في العالم، إسلاميّة كانت أو غير إسلاميّة.

ثانياً: لو أراد رجال الدين السير على الهامش، والبقاء على الرصيف، وانتهاج العزلة، لأضرّ ذلك بالدين. فرجال الدين هم جنود الدين وخدمّة الدين،

والغاية التي يتوخونها إنما هي صيانة الدين، ولا شأن ولا حيثية لهم بمعزل عن الدين - والنموذج البارز لذلك هو الثورة الإسلامية العظيمة - . فلو اعتزل رجال الدين القضايا الأساسية وبقوا غير آبهين حيالها لأضر ذلك بالدين دون مرأى.

ثالثاً: إذا كان التواجد في الساحة ممّا يؤدي إلى تحفيز العداء، فإنّه في المحصلة النهائية سيكون مبعثاً للخير؛ إذ العداوات هي التي تحفّز الغيرة والحمية والاندفاع، وهي تخلق الفرص للكائن الحيّ.

وقد لاحظنا أنّه أينما شُنّت الخصومات والهجمات والأحقاد على الدين أو على رجال الدين، فقد قابلتها خطواتُ بناءة من قبل الواعين والمتيقّظين.

وقد قُلْتُ ذات مرّة في حشد من الناس: إنّ تأليف كتاب من قبل كاتب متعصّب ضدّ الشيعة أدّى إلى ظهور كتب عدّة تُعتَبَر من مصادر الشيعة الكبرى. وفي مدينة قم - أيضاً - لو لم يصدر كتاب «أسرار الألف سنة» من قِبَل شخصٍ منحرفٍ يحمل فكراً ملقّحاً من الأفكار العلمانية والميول الوهابية، لما اندفع إمامنا الجليل لتجميد دروسه مدّة من الزمن لكتابة «كشف الأسرار» في الردّ عليه، والذي ضمّنه البراعم الأولى للحكومة الإسلامية وولاية الفقيه. وكذلك، فلولا تحركات التيارات اليسارية والماركسيّة وحزب توده في العشرينيات وبداية الثلاثينيات [الأربعينيات والخمسينيات الميلادية] لما تمّ إنتاج كتاب خالدٍ مثل «أصول الفلسفة والمذهب الواقعيّ». فهذه العداوات لم تنته بضررنا، بل أينما حصل خصام، كانت الحوزة العلمية، بوصفها كائناً واعياً ويقظاً، تنبري لإصدار ردود الفعل المناسبة، وهكذا تخلق العداوات الفرص، ولكن بشرط الحياة واليقظة وعدم الغفلة.

وفي عهد رضا خان حينما اتُّخذت تلك الخطوات المعادية لرجال الدين، أفتى أحد مراجعنا، وهو المرحوم السيّد أبو الحسن الأصفهاني (رضوان الله تعالى



عليه)، بجواز إنفاق الحقوق الشرعية في إصدار المطبوعات والمجلات الدينية. وقد كان هذا أمراً عجبياً وغير مسبوق في حينه، فعلى خلاف ما قد يتصوره البعض، فقد كان & يفكر في القضايا الثقافية لبلادنا، وفي عالم التشيع، ويميز إنفاق الحقوق الشرعية في مثل هذه الأعمال والنشاطات.. وهذه فرص كبرى توفرها العداوات.

رابعاً: إن بقاء رجال الدين على الحياد في التحديات الأساسية، لن يؤدي إلى بقاء أعدائهم وأعداء الدين على الحياد، ولا إلى اتّخاذهم جانب الصمت، فإنّ من نام لم يُنم عنه. فإذا لم يشعر رجال الدين الشيعة بالمسؤولية حيال الأحداث العدائية التي تواجههم، ولم ينزلوا إلى الساحة، ولم يفجّروا طاقاتهم وإمكاناتهم، ولم ينهضوا بالمهمّات الكبرى الملقاة على عواتقهم، فإنّ ذلك لن يفضي إلى توقف العدو عن عدائه، بل على العكس، فكلّما شعر الأعداء بأنّ فينا ضعفاً، تقدّموا إلى الأمام.

لقد أدرك الغربيون منذ أمد طويل الإمكانيات الهائلة التي يحملها الفكر الشيعي على صعيد مواجهة الظلم والاستكبار العالمي. منذ أحداث العراق، ومنذ قضية التنبك، لذلك، فهم لن يسكتوا بل سيواصلون تعدياتهم وتقدّمهم. إنّ صمت وحياد العلماء ورجال الدين والحوارات العلمية لا يمكنه إطلاقاً أن يؤدي إلى إيقاف العداء، ومن هنا، فإنّ حركة الحوارات العلمية وعدم بقائها على الحياد حيال الأحداث العالمية، وإزاء التحديات الوطنية والدولية، ضرورة من الضرورات التي لا يمكن الغفلة عنها.

وقد عمد بعض أعداء الثورة الإسلامية والمعادين لرجال الدين بعد انتصار الثورة الإسلامية إلى طرح عناوين ومفهومين خاطئين ومنحرفين - وقد تمّ الردّ

على هذين المفهومين الخاطئين قولاً وعملاً، ولكن، مع ذلك، ينبغي التيقظ والتبصر دائماً:-

**المفهوم الأول:** قضية حكومة رجال الدين أو المعممين. إذ يقولون: إن سلطة المعممين أو حكومة رجال الدين هي الحاكمة في إيران. ولا يزالون يروجون لهذا المفهوم ويكرّرونه.

**والمفهوم الثاني:** هو المعمم الحكومي، حيث قسّموا المعممين إلى حكوميين وغير حكوميين.

وكان هدفهم من طرح هذين المفهومين المخادعين الخاطئين:

**أولاً:** حرمان النظام الإسلامي من الرصيد الفكري والنظري والاستدلالي والعلمي الهائل لعلماء الدين.

**وثانياً:** عزل وتشويه سمعة رجال الدين المسؤولين والثوريين المتواجدين في الساحة، والمتصدّين بكلّ شجاعة لعدائهم. فقالوا: بعض المعممين حكوميون، وهؤلاء هم الطالحون والسلييون، وبعضهم غير حكوميين، وهؤلاء صالحون ومنزهون.

ونحن نقول: إن العلاقة بين رجال الدين والحوزات العلمية بالنظام الإسلامي علاقة واضحة. هي علاقة حماية ونصيحة ودعم، هي الحماية إلى جانب النصيحة، وهو الدفاع إلى جانب الإصلاح.

**فأولاً:** إن الجمهورية الإسلامية هي حكومة القيم، وحكومة الإسلام وحكومة الشرع والفقه، وليست حكومة الأفراد المعممين؛ فإن كون الإنسان معممًا لا يكفي لأن يتولّى منصباً أو سلطةً أو حكومة. وإن الجمهورية الإسلامية تختلف في ماهيتها عن سائر الحكومات الدينية في أنحاء العالم، والتي حكمها في الماضي، أو يحكمها اليوم، رجال دين. فإن السلطة في الجمهورية الإسلامية هي سلطة للقيم الدينية، فإذا تجسّدت هذه القيم لدى أحد رجال الدين كانت

موجبة لتقديمه على غيره، وأما كونه معمماً، فهو في الوقت الذي لا يحقق له - في حد ذاته - الأهلية والكفاءة، فإنه كذلك لا يسلبه الكفاءة والمؤهلات. إن حكومتنا هي حكومة الدين، وليست حكومة شريحة معينة أو جماعة خاصة.

وعليه: فإن تصنيف المعممين إلى حكوميين وغير حكوميين، وإلى قيميين ومضادين للقيم، يعدّ خطأ فاحشاً؛ فإن طلب الحكومة والسلطة إذا كان من أجل الدنيا، وإذا كان لتلبية أهواء النفس، فإنه يعدّ أمراً سلبياً وسيئاً.. بل إن هذا لا يختص بطلب السلطة، بل كلّ طلب، وكلّ مسعى، يُراد منه هوى النفس والمصالح الشخصية، فهو على الضدّ من القيم، وهو من مصاديق الدخول في الدنيا. كما قال: '«الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا»»<sup>(1)</sup>.

وأما إذا كان التوجّه نحو السلطة لهدفٍ معنويٍّ إلهيٍّ، فهو من أرقى مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أسمى مصاديق الجهاد.

وثانياً: إذا كان وصف (المعّم الحكومي) يطلق على الشخص الذي يدافع عن النظام الإسلامي، أو عن المسؤولين، في سبيل الدين، ومن أجل أداء المسؤولية الشرعية، فهذا الوصف حينئذٍ يمثل قيمة إيجابية، لا سلبية، بل إن عدم التحلي به هو الذي يكون قيمة سلبية.

وعليه: فكلّ من هذين المفهومين، - مفهوم سلطة المعممين، ومفهوم المعّم الحكومي والمعّم غير الحكومي - ليس صحيحاً. وإن إثارة مثل هذه المفاهيم بعد الثورة، وبعد تأسيس النظام الإسلامي، كان يهدف إلى المغالطة، ولا صلة له بثقافة هذه الثورة وحقيقتها.

وفي المقابل، ثمة حقيقتان ومفهومان آخران وصانعان للقيم:

أحدهما: أنّ النظام الإسلامي يحتاج، نظرياً وعملياً، إلى علماء الدين والحوارات العلميّة، ويستند ويتكئ على جهودهم العلميّة، وعلى آراء العلماء الخبراء وأصحاب الرأي.

والمفهوم الآخر: أنّ الحوزة ورجال الدين ليسوا لأباليين حيال النظام الدينيّ. وما من عالم ورجل دين حقيقيّ، وخادم للإسلام، يستطيع أن يبقى غير أبه ولا مكترث إزاء النظام الذي تكوّن على أساس الإسلام، وسار وعمل بدوافع إسلاميّة، ولا يمكنه أن يعتبر نفسه أجنبيّاً أو غريباً عن مثل هذا النظام. والحقيقة الأولى التي ذكرناها، وهي اعتماد النظام الإسلاميّ على الحوزات العلميّة، مردها إلى أنّ التنظير السياسيّ، بل التنظير لكافة الشؤون المتعلّقة بإدارة الشعب والبلاد في النظام الإسلاميّ، يقع على عاتق علماء الدين المتخصّصين في الشؤون الدينيّة، فإنّ هؤلاء هم الذين يستطيعون الإفصاح عن آراء الإسلام حول قضايا الاقتصاد والإدارة والحرب والسلام والأمر التربويّة والكثير من القضايا الأخرى. وإذا لم ينهض علماء الدين ملء فراغ هذه العمليةّ التنظيريّة، فإنّ النظريّات الغربيّة والمادّيّة وغير الدينيّة هي التي ستملؤه؛ إذ ما من نظام، يمكن أن يدير الأمور في حالة الفراغ، بل سيأتي نظام إداريّ آخر، ونظام اقتصاديّ آخر، ونظام سياسيّ آخر، من إنتاج الذهنيّات المادّيّة، ليشغل ويملأ هذا الفراغ. وهذا ما حصل فعلاً في المواطن التي ظهر فيها مثل هذا الفراغ بنحو ملموس.

ولهذا حدّرت الجامعات من الأخطار التي تتضمّنّها العلوم الإنسانيّة الدارجة اليوم في الجامعات، ونبّهتهم إلى أنّ هذه العلوم مسمومة ذاتياً، نظراً لما فيها من مضامين تتعارض ماهوياً مع المسيرة الإسلاميّة، والنظام الإسلاميّ، وترتكز إلى رؤية عالميّة أخرى، لها خطاب آخر، وتتابع هدفاً آخر. فحينما تشبع هذه العلوم، فسوف ينشأ المدراء على أساسها، ليتولّوا لاحقاً إدارة الجامعات،

وإدارة اقتصاد البلاد، وإدارة الشؤون السياسية الداخلية والخارجية والأمن وغير ذلك.

إنّ الحوزات العلميّة وعلماء الدين أرصدة ودعامات من واجبها استخلاص النظريات الإسلامية في هذه الحقول من النصوص الإلهية وتشخيصها وتوفيرها للمسؤولين من أجل البرمجة والتخطيط والتمهيدات المختلفة.

إذن، علماء الدين وأصحاب الاختصاص والنظريات الإسلامية هم دعامّة النظام الإسلاميّ، لذلك كان من واجب هذا النظام دعم الحوزات العلميّة؛ حيث كانت سنده وركيزته.

مضافاً إلى ذلك، فهناك اليوم شبهات تطرح وتستهدف النظام الإسلاميّ.. شبهات دينيّة وسياسيّة وعقائديّة ومعرفيّة يتمّ نشرها في أوساط المجتمع، وخصوصاً بين الشباب، والهدف منها فقط هو نقلهم من فكرٍ إلى آخر، والقضاء على الرصيد البشريّ الذي يمتلكه النظام الإسلاميّ، والنيل من المباني الأصليّة له في الأذهان، ومناصبه العداء له. وإنّ الردّ على هذه الشبهات ومواجهتها ومسح غبارها عن أذهان المجتمع، يتمّ على يد علماء الدين، فيشكّل - بالتالي - دعماً آخر للنظام الإسلاميّ.

فالنظام الإسلاميّ - إذاً - يعتمد على علماء الدين والمنظرين والباحثين وعلماء الحوزات العلميّة من جهاتٍ عدّة.

وفي المقابل، لا يمكن للحوزات العلميّة أن تبقى غير مكترثة، فإنّها هي - وبخاصّة الحوزة العلميّة في قم - أمّ هذا النظام، والمنتجة التي صنعت هذه الثورة وهذا التحرك العظيم. وكيف يمكن لأُمّ أن تغفل عن ابنها الذي ولدته، أو تكون غير مكترثة له، وغير آبهة به، أو أن تترك الدفاع عنه في وقت الحاجة؟! هذا غير ممكن.

وبذلك نعرف أنّ العلاقة بين الحوزات العلميّة وبين نظام الجمهوريّة الإسلاميّة هي علاقة حماية متبادلة. فالنظام يحمي الحوزات ويدعمها، والحوزات تحمي النظام أيضاً، فهما يتعاونان ويساعدان بعضهما.

ثمّة مسألة تُطرح هنا، وأنا أطرحها، وسوف أطرح بعد ذلك إن شاء الله عدة مسائل أخرى من المسائل المهمة المتعلّقة بالحوزة العلميّة. وهي: مسألة استقلال الحوزات. فهل دعم النظام الإسلاميّ للحوزات العلميّة يمكن أن ينال من استقلال الحوزات العلميّة أم لا؟ وهل عمليّة الدعم هذه جائزة أم لا؟ هذه مسألة على جانب كبير من الأهميّة.

فأولاً: لقد كانت الحوزات العلميّة مستقلّة على امتداد تاريخها، وليس في فترات الدول المعارضة للتشيّع فحسب، بل حتى في عهود الدول الشيعيّة. فعندما كان الصفويّون يحكمون إيران، وجاء علماء كبار، كالمحقّق الكركي، ووالد الشيخ البهائي، وغيرهما من العظماء، وتولّوا مناصب دينيّة مختلفة، لم يكن هؤلاء العلماء، ولا تلامذتهم والمتخرّجون على أيديهم، من الخاضعين ولا من المرتهنين للسياسة الصفويّة. نعم، كانوا يتعاونون ويساعدون ويمجّدون ويعظّمون، لكنهم لم يكونوا في قبضة الحكّام ولا تحت تصرفهم.

وكذلك كان الأمر في فترة من الدولة القاجاريّة، ف «كاشف الغطاء» (رضوان الله تعالى عليه)، هذا العالم الكبير حينما أتى إلى إيران وألّف كتابه: «كشف الغطاء»، أثنى في مقدّمته وفي مبحث الجهاد ثناءً كبيراً على «فتح علي شاه القاجاري»، بسبب الحروب التي خاضتها إيران في زمانه مع روسيا، لكن «كاشف الغطاء» لم يكن شخصاً يخضع لقبضة «فتح علي شاه» وأمثال «فتح علي شاه»، بل كان مستقلاً.

«الميرزا القمي» في بيته في قم كان - أيضاً - موضع احترام وتكريم الملك في زمانه، لكنّه لم يكن ليرضخ لإرادته. وقد أصرّ الملك على الميرزا أن يفتي بما يريد، ولكنّ الميرزا لم يوافق ولم يرضخ. وللميرزا القمي رسالة بعنوان «الرسالة العباسيّة» يعرض فيها رأيه الفقهي في باب الجهاد. وقد طبعت هذه الرسالة ونشرت لأول مرة قبل عدّة سنوات. يسألونه فيها سؤالاً يوحى بأنّهم يريدون منه وكالة تخوّلهم الجهاد بالنيابة عنه، ولكنّه لم يستجب ولم يوافق. هكذا كان رجال الدين الشيعة دوماً.. كانوا دائماً مستقلّين، ولم يرهنوا أنفسهم لقبضة الحكّام والسلطات أبداً، وكذلك الحال اليوم أيضاً، ويجب أن يكون كذلك في المستقبل أيضاً، وسيكون كذلك بتوفيق من الله.

ولكن ينبغي أن نحذر هنا من مغالطة أخرى قد تطرح.. إنّ استقلاليّة الحوزات لا يعني أن لا يقوم النظام بدعمها، أو أن تقوم هي بدعم النظام. وهذا ما يريده البعض، يريدون قطع العلاقة وفصم العرى بين الحوزة والنظام تحت ذريعة الاستقلال وباسمه، وهذا غير ممكن، فإنّ التبعية تختلف عن الحماية والدعم، وهذا النظام مدين للحوزة، ولا بدّ له أن يقوم بمساعدة الحوزة.

طبعاً، الوضع المعيشي لطلبة العلوم الدينيّة ينبغي أن يعتمد على الناس وفق التقليد الدارج والزاهر بالمعاني والرموز والأسرار. وعلى الناس أن يدفعوا حقوقهم الشرعيّة. هذه هي عقيدتي. وكلّما دقّق المرء في أعماق هذا التقليد والسنة القديمة التي شاعت في حوزاتنا منذ حوالي مئة سنة أو مئة وخمسين سنة يجدها أكثر أهميّة ومعنى وعمقاً ورموزاً وأسراراً. وهذا هو سرّ الأواصر الوثيقة بين الناس والحوزات، وهو أن يشعروا برابطة القربى والاتّحاد. وليس للناس

توقعات كبيرة من رجل الدين، لكنهم يجدون أنفسهم ملزمين بالدعم المالي للحوزات ورجال الدين، وهذا هو الصحيح.

على أن قضايا الحوزات لا تقتصر على قضية المعيشة. بل ثمة في الحوزات تكاليف لا يمكن النهوض بها إلا بمساعدة بيت مال المسلمين، ومساعدة الحكومات والدول. ومن واجب الحكومات دفع هذه التكاليف، ومن دون أن تتدخل. إن الكثير من المدارس المهمة في مختلف المدن شُيّدت من قِبَل الأمراء والسلاطين. والحوزة تتقبل أنواعاً متعددة من الدعم من قبل النظام، ولكن بكلّ عزّة وكرامة. وهذا الدعم الذي يقدمه النظام حالياً للحوزات العلمية، ويجب أن يقدمه، بل وأن يزيد منه، هو من واجبات النظام. وهو ليس دعماً مادياً فقط، بل إن أهم وأوسع المنابر ووسائل الإعلام الوطنية انتشاراً في الوقت الراهن هي - والحمد لله - تحت تصرف مراجع الدين العظام. وهذا جزء من الدعم الذي يقدمه النظام، والذي يجب عليه أن يقدمه، والسبب هو تلك الأواصر التي تحدّثنا عنها. إذاً قضية التدخل والاستقلال يجب عدم خلطها بالحقائق المشهودة في هذا الباب.

والحقيقة أن هذين التيارين العظيمين - تيار النظام الإسلامي، وفي الصميم منه، تيار الحوزات العلمية - تياران مترابطان ومتّصلان ببعضهما، ومصيرهما واحد. وليعلم الجميع هذا.

إنّ مصير رجال الدين ومصير الإسلام في هذا البلد مرهون اليوم ومنوط بمصير النظام الإسلامي. فإذا أُصيب النظام الإسلامي بأذى ضرر، فالحسارة التي ستلحق رجال الدين وأهل الدين وعلماء الدين هي - لا محالة - أكبر منها على جميع أبناء الشعب الآخرين. النظام - طبعاً - حيّ وقويّ وناهض، وأقول بكلّ ثقة: إنّ النظام بإذن الله تعالى سيتنصر ويتغلّب على جميع التحديات التي تواجهه.



:

القضية المهمة الأخرى التي ينبغي الحديث فيها بوضوح، هي قضية التحول في الحوزات العلمية. فمنذ سنواتٍ عدةٍ تطرح قضية التحول في الحوزات العلمية، وخصوصاً الحوزة العلمية المباركة في قم. ما معنى هذا التحول؟ ما الذي تريد أن تفعله الحوزة ممّا يمكن أن نسميه تحولاً؟

لو أخذنا التحول بمعنى تغيير الخطوط الأصلية للحوزات - كتغيير منهج الاجتهاد - لكان هذا انحرافاً بلا شك. إنه تحول، لكنه تحول نحو السقوط. فإنّ الأسلوب الاجتهاديّ الشائع اليوم في الحوزات العلمية، والذي يعتمد عليه علماء الدين، هو من أقوى أساليب الاجتهاد وأمتنها منطقاً؛ لكونه اجتهاداً يعتمد على العلم واليقين، ويتكئ على الوحي، وينأى عن الظنون، وينتج عنه استنباط علميٍّ و يقينيّ. حتى الظنون الخاصة الموجودة في أدلّتنا يجب أن تكون حجّيتها يقينية وقطعية. وكذلك الأصول العلمية التي نستخدمها في الفقه، - كالاستصحاب أو البراءة أو الاشتغال، كلّ في مجراه - ينبغي أن يكون اعتبارها جزمياً وقطعياً. وحينما لا يتوفّر لنا الدليل القطعيّ على اعتبارها، ولم نجزم به، فلا نستطيع الاستفادة من هذا الأصل.

وعليه: فإنّ كلّ أساليب الاستنباط في فقهنّا تنتهي، إمّا بواسطة أو بدون واسطة، إلى القطع واليقين.

والاجتهاد عند الشيعة لا يعني الاعتماد على الظنون غير المعتمدة، ومن هنا استخدم أسلافنا مصطلح الاجتهاد في معنى الاجتهاد بالرأي، والاجتهاد المستند إلى الظنون غير المعتمدة، كالقياس والاستحسان وما إلى ذلك، وألّفوا الكتب حولها، ككتاب «الردّ على أصحاب الاجتهاد في الأحكام» لإسماعيل بن أبي سهل النوبختي، والسيد المرتضى في «الذريعة»، والشيخ في «عدة الأصول»، وغيرهم الكثير ممن رفضوا الاجتهاد المرتكز على الظنون غير المعتمدة.. وهذا

النحو من الاجتهاد مرفوض. واليوم - أيضاً - إنَّ أيَّ توجهٍ نحو مثل هذا الاجتهاد، تحت أيَّة مسمّيات، يعدّ فعلاً مرفوضاً.

وأما قضية أنَّ العالم لا يتقبَّل هذا منا، أو أنَّ هذا الفكر الفقهيّ ليس له أنصار في العالم - هذه القضية التي قد يقولها البعض صراحةً، وقد لا يصرّح بها آخرون، لكنّها موجودة في قرارة قلوبهم، وهي تقودهم إلى نوع خاطئ من الاستنباط - فهي قضية مرفوضة.

وللأسف، فقد لاحظنا هنا وهناك حالاتٍ من التدخّل والتصرّف في استنباط الأحكام الشرعيّة لا لشيءٍ إلّا لأجل مراعاة أعراف العالم المتحصّر، والذي هو عالم مادّي في الغالب. والأسوأ من ذلك، أنَّ البعض يحاول أحياناً أن يخطب ودّ القوى المادّيّة - لا العرف الدارج في العالم المادّي فحسب، بل أعراف القوى المادّيّة والاستكباريّة -، ومن ذلك ما قام به البعض من إصدار فتوى تمنع المساعي النوويّة السلميّة التي تقوم بها الجمهوريّة الإسلاميّة، بزعم أنّها تثير سوء الظنّ لدى القوى الكبرى!

إنّ على الاجتهاد أن يكون بذلك الأسلوب الصحيح المعتمد على الكتاب والسنة، وبذلك المنهجية المعقولة، الصحيحة والمنطقية والمدرّوسة والمحسوبة والناضجة، فإذا كان كذلك، كان أمراً جيّداً جدّاً، وإن أدّى تعدّده إلى نتائج مختلفة، فإنّ هذا الاختلاف يمكن أن يقودنا إلى الحركة والإيناع والتقدم. فقد كان لفقهاءنا ومجتهدينا على امتداد تاريخنا الفقهيّ آراء مختلفة في مسائل متنوّعة، فكان التلميذ يتبنّى رأياً يخالف به رأي أستاذه، ثمّ يأتي تلميذه - أيضاً - ليتبنّى رأياً مخالفاً لرأيه.

هذا لا إشكال فيه إطلاقاً، بل من شأنه أن يؤدّي إلى الحراك والتقدّم. وهذا الاجتهاد هو الذي ينبغي تعزيزه وتقويته في الحوزة. هذا من جهة.

ومن جهةٍ أُخرى، فالاجتهاد لا يختصّ بالفقه، بل لا بدّ من الاجتهاد في العلوم العقلية، وفي الفلسفة والكلام أيضاً، من قبل الخبراء المختصين بهذه العلوم، ولولا هذا الاجتهاد لأصبحنا كالماء الراكد.

يتعيّن على الحوزة العلميّة في الوقت الراهن أن لا تغيب عن ميادين الفلسفة والفقه والكلام في العالم. ففي العالم اليوم كلّ هذه الأسئلة المطروحة حول مختلف القضايا، فما هي إجابات الحوزة؟ إنّ الحوزة لا ينبغي أن تكون غائبة ولا منفصلة.. إذ كلا الحالتين مضرة بها.

ولا بدّ من تقديم أفكارٍ جديدة، ولا بدّ من الاستجابة للاحتياجات المتجدّدة التي تُطرح كالسبيل في هذا العالم، وعليكم أن تعدّوا لها الإجابات، وعليكم أن تصوّبوا إجاباتكم نحو هذه الاحتياجات، ونحو ما طرحه المدارس والفرق المختلفة؛ إذ لو غفلتم عن إجاباتهم فلن تستطيع إجاباتكم أن تفعل فعلها.

عليكم أن تطرحوا إجاباتٍ قويّة ومنطقيّة ومقنعة. ولا بدّ لهذه الإجابات أن تُطرح على مستوى العالم. وكما قلنا فإنّ قم هي القلب المعرفيّ للعالم الإسلامي، فينبغي ضخّ وتصدير ما تنتجه إلى العالم باستمرار. ولحسن الحظّ، فإنّ وسائل الاتصال اليوم متاحة ومتوفرة للجميع، والعمل والتحرّك متاح لكم هنا، ويمكن أن يُسمّع عملكم وأن يُنتفع منه في الطرف الآخر من العالم وبشكلٍ مباشر.

هناك احتياجات في مختلف المجالات، سواء للنظام الإسلامي أو المحلي، أو العالمي. وإنّ شرح علم المعرفة الإسلامي، وبيان الفكر الاقتصادي الإسلامي، وعلم السياسة الإسلامي، والمفاهيم الفقهية والحقوقية التي يركز عليها هذا الفكر الاقتصادي والسياسي، ونظام التربية والتعليم، والمفاهيم الأخلاقية والمعنوية وغيرها وغيرها، كل هذه العلوم، يجب أن يتمّ توفيرها بنحوٍ دقيقٍ

وعلميٍّ ومقنّع، وبما يرتبط بالأفكار الشائعة في العالم. وهذه إحدى وظائف الحوزات. وهي عملية ممكنة بفضل الاجتهاد.

فإذا لم ننهض بهذه المهمة، فنكون قد ساعدنا بأنفسنا على إقصاء الدين عن ساحة الحياة الإنسانية، وعلى عزلة رجال الدين. وهذا هو معنى التحوّل المطلوب، والذي أساسه هذه الحركة الاجتهادية المتجدّدة.

إنّ التحوّل والتغيير أمر قهريّ ولا بدّ من حدوثه. ولا توجد اليوم جدران وأسوار حول المنظّمات الوطنية والفئويّة والمهنيّة وغيرها. فإمّا أن ندير نحن هذا التحوّل والتغيير ونوجّهه أو أن نتركه، وإذا تركناه، خسرنا بلا ريب.

ولذلك، يتحتّم على كبار شخصيّات الحوزة العلميّة ومراجع التقليد والعلماء والمفكرين والفضلاء أن يشمّروا عن سواعدهم ويبدوا الهمم، ويرمجوا لهذا التحوّل ويوجّهوه ويديروه. والحاصل: أنّ المعنى الذي يمثّل جوهر وحقيقة التحوّل المطلوب هو: التحرّك المضمونيّ المتجدّد.

ولكن قد يراد ويفهم من التحوّل معنى خاطئ ينبغي بالتأكيد تجنّبه وتحاشيه. وهو التحوّل بمعنى ترك الأساليب التقليديّة الناجعة جدّاً في التعليم والتعلّم في الحوزة، وتغييرها إلى الأساليب الدارجة في الجامعات اليوم، إنّ مثل هذا التحوّل والتغيير خطأ في خطأ، وهو ليس إلّا تراجعاً إلى الوراء.

إنّ أساليبنا التقليديّة القديمة هذه آخذة بالانتشار في العالم حالياً، علماً بأنّ البعض ينشرونها بدافع من التقليد، والبعض ينشرونها من منطلق الإبداع والابتكار. ومع ذلك، فهل من المعقول أن نأتي بأساليبنا الجامعيّة المستنسخة عن الأساليب الغربيّة القديمة إلى الحوزة؟! لا، إنّنا لا نعتبر هذا تحوّلاً. بل إذا حصل مثل هذا التحوّل، فهو بالتأكيد تراجع إلى الوراء. ونحن لا نوافق على ذلك. إنّ الأساليب الشائعة في الحوزة العلميّة أساليب جيّدة جدّاً، وقد كانت دارجةً منذ القدم.

ومن هذه الأساليب: أسلوب الاختيار الحرّ للأستاذ من قبَل الطالب، حيث يقوم الطالب أوّل ما يدخل الحوزة العلميّة بالبحث عن أستاذ يتقبّله ويرغب فيه فيلتحق بدروسه.

ومنها: أنّ الأساس في الجهد الذي يبذله الطلبة هو التفكير والتدقيق والمطالعة، وليس الحفظ. إنّ محورِيّة الحفظ هي الأمر الذي تحوّل اليوم إلى مصيبة في نظامنا التربويّ والتعليمي الحديث، ونحن نكافحه ونواجهه منذ فترات طويلة، ولم يتمّ إصلاح الأمر لحدّ الآن، ويجب أن يتمّ إصلاحه. بينما في الحوزة، الأساس التقليديّ لدينا هو التفكير، فطالب العلوم الدينيّة عندما يقرأ درسه، فهو يقوم بمطالعة مسبقاً قبل أن يستمعه من الأستاذ، ليحصل له بذلك الاستعداد الذهنيّ لتلقّي كلام جديد من أستاذه. ثمّ بعد تلقّيه الدرس منه، يتباحث مع زميل أو صديق له حول ما استفاده من هذا الدرس، بحيث يعيد إلقاء الدرس الذي تعلّمه عليه، أو يعيد الآخر الدرس على الأوّل، ما يؤدّي إلى ترسخ هذا الدرس في الذهن.

وفي بعض الحوزات العلميّة مثل حوزة النجف الأشرف، من الدارج تقرير درس الأستاذ - وهو أمر لم يكن دارجاً في قم، أو أنّه كان نادراً جداً -، بحيث يجلس طالب فاضل بعد درس الأستاذ، ليعيد الدرس الذي ألقاه الأستاذ قبل قليل على مسامع بعض الطلبة ممّن يشعرون بالحاجة إلى ذلك. فلتلاحظوا كم تستطيع هذه العمليّة أن تكون مؤثّرة في تعميق العلم والمعلومات لدى الطالب. إنّ هذه التقاليد لا ينبغي التفريط بها، فهي شيء نفيس.

واحترام الأستاذ - بدوره - يعدّ من المسائل المهمة. فمن التقاليد الدارجة في الحوزات العلميّة تواضع الطالب أمام أستاذه وإظهار الاحترام والتبجيل له. كانوا يكتبون كتباً في «آداب المتعلّمين»، ويذكرون فيها واجبات المتعلّم تجاه معلّمه، وما للمعلّم من حقوق على طلابه. كما أنّ للمتعلّم - في المقابل - حقوقاً

على معلّمه. فالأستاذ لم يكن يكتفي بالمجيء وإلقاء الدرس ثمّ يذهب. لا، بل كان يخصّص وقتاً للاستماع لكلام الطالب. وهذه تقاليد كانت دارجة منذ القِدَم.

وفي زماننا هذا، كان بعض الأكابر، ولا يزالون، يرافقهم الطالب بعد الدرس إلى البيت فيتحدّث ويتحاور ويسأل. وهناك - أيضاً - جلسات العلم والبحث، ولسات الأسئلة والأجوبة. وهذه تقاليد جيّدة في حوزاتنا العلميّة. وهناك من يريد سلبنا هذه التقاليد، وأن نستبدلها بأساليب الآخرين المستنسخة والقديمة. ولكنّ هذه التقاليد ينبغي أن تبقى وأن تتعزّز. فليس تغييرها هو المقصود من التحوّل.

ومن الأمور الضروريّة جدّاً في التحوّل الإيجابي أن نطابق أنفسنا وجهودنا وأنشطتنا العلميّة مع الاحتياجات. فهناك أمور يحتاج إليها الناس، ويريدون إجاباتها منّا، وعلينا توفير هذه الإجابات، وتلبية هذه المطالب. كما أنّ هناك أموراً لا يحتاج الناس إليها، وإنّها بدلت من أجلها الكثير من الجهود والأعمال، فعلينا أن لا نشغل أنفسنا بها. وهذه من المسائل الأساسيّة والمهمّة جدّاً.

إنّنا اليوم نطالب الجامعات وأساتذة الجامعات والطلبة الجامعيّين أن يجعلوا نشاطاتهم متطابقةً مع احتياجات المجتمع، نطالبهم بهذا ونكرّره، ونقول: طابقوا حقولكم العلميّة مع احتياجات المجتمع، وانظروا ما الذي نحتاج إليه حقّاً. وهذا الأمر يصدّق على الحوزات العلميّة من باب أوّل.

:

المسألة الأخرى مسألة النظام السلوكي والأخلاقي في الحوزات، والتحوّل إذا حصل ينبغي أن يُعنى بهذا الجانب أيضاً.

هناك عناوين عدّة في هذا الخصوص سجّلناها هنا:

(أ) تكريم الأساتذة: ينبغي لنظامنا السلوكي والأخلاقي في الحوزات أن يتّجه بهذا الاتجاه: تكريم الأستاذ، وتكريم الشخصيات الفاضلة، وخصوصاً مراجع الدين. لا يمكن لأيّ كان أن يبلغ مرتبة مراجع التقليد العظام بسهولة، إذ هناك مواصفات كثيرة يجب أن تتوفر لهذا الغرض. والمراجع في الغالب هم القمم العلميّة العالية في الحوزات. لذلك يتحتّم علينا تكريمهم والحفاظ على احترامهم.

(ب) التهذيب والاستفاضة من المعنويات: وهذه مسألة على جانب كبير من الأهمية. فالشباب الحوزويّ اليوم بحاجة إلى التهذيب المعنويّ أكثر من السابق. الذين يدرسون فروع علم السلوك العامّ ويعملون فيها يؤيّدون هذا الرأي. وإنّ الشائع في العالم كلّ في وقتنا الحاليّ أنّ النظام المادّي والضغط المادّي والمادّيات تجعل الشباب مكتئبين وقليلي الصبر. وفي مثل هذه الحالة، فإنّ العروة التي يمكن للشباب أن يعتصموا بها هي العودة إلى الأخلاق والمعنويّات. وهذا هو السبب فيما تلاحظونه من نموّ الفرق العرفانيّة المزيّفة، والتفاف البعض حولها.. ونحن في الحوزات العلميّة لدينا قمم في مجال التهذيب الروحيّ والنفسيّ. ففي «قم» نفسها كان المرحوم الحاج ميرزا جواد ملكي، والمرحوم العلامة الطباطبائي، والمرحوم الشيخ بهجت، والمرحوم بهاء الديني (رضوان الله تعالى عليهم) قممًا في التهذيب في الحوزة. وإنّ معرفة سلوكهم وحياتهم وكلامهم من الممكن أن تكون من أفضل الأمور الباعثة على الشفاء والسكينة والنور وتنوير القلوب.

وفي النجف الأشرف - أيضاً - كان لدينا عظماء وأكابر، منهم سلسلة تلاميذ المرحوم الآخوند الملا حسين قلي إلى المرحوم القاضي وغيرهم وغيرهم.. هؤلاء هم المميّزون. ولا شأن لنا بمذاهبهم واتّجاهاتهم الفكرية والعرفانيّة، فإنّ القضية هنا ليست قضية نظريّة فكرية. كان للبعض مذاهب مختلفة. فالمرحوم

السيد مرتضى الكشميري (رضوان الله تعالى عليه)، من أساتذة المرحوم الحاج ميرزا علي القاضي، لكنّ مذهبيهما الفكريّين مختلفان تماماً. فأحدهما يوصي توصيةً أكيدةً بعدم اقتناء كتاب معيّن، والآخر يعشق ذلك الكتاب. لا تعارض في ذلك.

وكذلك هؤلاء الأكابر الذين كانوا في مدينة مشهد، وهم أناس كنّا نعرفهم بالتقوى والطهر والنزاهة. كالمرحوم الحاج ميرزا جواد الطهراني والمرحوم الحاج الشيخ مجتبي وأمثالهم، هؤلاء أيضاً من هذا القبيل. إنّ المهمّ هو أنّ هذا القلب الذي بات يعلوه الصدا، يحتاج إلى لسان معنويّ، وإلى كلام نابع من القلب، ليشفيه، ويزيل عنه ذلك الصدا. وعليه، فلسنا هنا بصدد طرح قضية العرفان النظريّ.

(ج) الميول والمشاعر الثوريّة في الحوزة: أعزائي، إنّ المناخ الثوريّ في البلاد له أعداء عنيدون حقودون. إنّهم يعارضون سيادة الأجواء الثوريّة في البلاد، ويريدون تبديدها. وقد لاحظتم أنّهم في فترة من الفترات راحوا يشكّكون في الشهادة ويحاكمونها، ويشكّكون في الجهاد، وفي الشهداء، وفي آراء الإمام الراحل، بل وحتى في الأنبياء العظام!

القضية ليست أنّ فلاناً يعارض هذه المفاهيم، وإنّما هي أنّ هذه المعارضة حسب رأي الأعداء يجب أن تُطرح في المجتمع، ويجب الترويج لها والعمل على هدم الأجواء الثوريّة وإزالتها.

وعلى الجميع في الحوزة العلميّة التنبّه لهذه المسألة. هكذا هو الوضع على مستوى المجتمع، ومن الطبيعيّ أن يكون كذلك في الحوزات العلميّة.

هم يعلمون أنّكم يا رجال الدين لستم أفراداً فحسب، بل لكم من يستمع إليكم ويحبّكم، وبذلك فأنتم تؤثرون في البيئة المحيطة بكم. وهم يريدون إزالة هذا المناخ الثوريّ، وعزل رجل الدين الثوريّ، وإهانة التعبويّين، وإهانة



الشهداء والشهادة، والتشكيك في الجهاد الطويل لهذا الشعب، وإذا حصل هذا - لا سمح الله - في جوانب من الحوزة، كان ذلك فاجعة حقاً. وعلى الشخصيات الكبيرة في الحوزة العلمية أن تحذر ذلك وتراقبه وتمنع منه.

وهنا أقول كلمة أخاطب بها الشباب الثوري المتحمس، وعموم الحوزويين هم من الشباب والطلبة الثوريين والمتحمسين:

أعزائي، إن المستقبل لكم، وأنتم أمل مستقبل البلاد، ويجب أن تتيقظوا جداً. صحيح أن الطالب الشاب الثوري هو أهل عمل ونشاط، وليس من أهل التسويف وإيكال عمل اليوم إلى الغد، ولكن يجب الحذر من أن تكون حركتكم الثورية بحيث تتيح لهؤلاء أن يوجهوا إليها تهم التطرف. ينبغي تجنب الإفراط والتفريط.

وليعلم الشباب الثوري أن العزلة والصمت وعدم الاكتراث كما أنها تسبب الضرر، فكذلك يسببه التماذي والإفراط. احذروا من التماذي والإيغال. وإذا صح ما وصلنا من تقارير حول إهانة بعض مقدسات الحوزة، وبعض كبار شخصيات الحوزة، وبعض مراجع الدين، فاعلموا أن هذا انحراف وخطأ بلا شك. وهو ليس من مقتضى النزعة الثورية.

على الإنسان الثوري أن يكون بصيراً واعياً لتعقيدات الزمن. فالفضيحة ليست بهذه السهولة، ولا يمكن بهذه البساطة أن نرفض شخصاً، أو نثبت شخصاً، أو أن نقبل آخر. ينبغي أن تراعوا الدقة، وأن تحافظوا على الحماس الثوري، وتتأقلموا مع المشكلات، ولا تتبرموا من لجانة الآخرين وانتقاداتهم، ولكن - في الوقت نفسه - عليكم أن لا تكونوا سدجاً. احذروا، ولا تياسوا، وابقوا في الساحة، ولكن دققوا واحذروا أن يؤدي سلوك بعض من تعتقدون بأن سلوكهم يستحق النقد إلى الغضب والخروج عن الاتزان؛ لأن السلوك المنطقي والعقلاني شيء ضروري.

كما نوصي الجميع - أيضاً - بعدم اتّهام القوى الثوريّة بالتطرّف. فالبعض اتّهم العناصر الثوريّة - من الشباب وطلبة العلوم الدينيّة والفضلاء والمدرّسين الثوريّين - بالتطرّف في جميع المستويات. وهذا بدوره انحراف واضح، ويتمّ الترويج له على يد العدو. فلا للتطرّف في هذا الجانب، ولا للتطرّف في ذلك الجانب أيضاً.

والآن بعد أن عرفنا أنّ هذه المسائل المتقدّمة هي جميعاً ذات صلة بالتحوّل، أسألكم: هل يمكن تحقيق هذا التحوّل المعقّد الواسع الشامل من دون إدارة متناسقة؟

هذا ما طرحناه قبل سنواتٍ في الحوزة العلميّة نفسها، مع أشخاصٍ بعضهم الآن من مراجع التقليد العظام، وكانوا يومذاك في جماعة المدرّسين، والبعض منهم قد فارق الحياة - رحمة الله ورضوانه عليهم - ويومذاك هم استساغوا الفكرة.

إنّ إدارة وتدير شؤون الحوزة من قبل جماعة مركزيّة يوافق عليهم المراجع العظام وكبار الشخصيّات، ويكونون من الخبراء وأصحاب الرأي في قضايا الحوزة، هو أمرٌ ضروريّ جدّاً، ولا مندوحة منه، بل لا يمكن تسيير الأمور من دونه، وهذه العملية المعقّدة المهمّة والمتعدّدة الجوانب التي أشرنا إليها - أعني: عملية التحوّل - غير متاحة من دون إدارة قويّة.

وأذكر هنا نقطتين أُخريين وأنهي كلامي الذي طال كثيراً، مع الاعتذار منكم أيها الإخوة والأخوات:

#### النقطة الأولى:

قضيّة درس الفلسفة وحقل الفلسفة. فإنّ أهميّة الفقه وعظمته يجب أن لا تجعلنا نغفل عن أهميّة درس الفلسفة، وفرع الفلسفة، وعلم الفلسفة. فكلٌّ من

هذه الأمور مسؤولياتها. فالفقه له مسؤولياته، والفلسفة - أيضاً - مسؤولياتها الكبيرة.

لقد كانت راية الفلسفة الإسلامية بيد الحوزات العلمية، ويجب أن تكون بيدها، وأن تبقى كذلك. فإذا تخلّيتم عن هذه الراية فسوف يحملها آخرون ممن قد لا يتمتعون بالأهلية اللازمة، وسيقع تدريس علم الفلسفة بيد أناس قد لا يمتلكون التأهيل الكافي لهذا الموقع.

وإذا بقي نظامنا ومجتمعنا اليوم محروماً من الفلسفة فإنّه سيكون أعزل لا سلاح له أمام هذه الشبهات المتنوعة والفلسفات المستوردة. إنّ الذي يمكن أن يوفر إجابات حول هذه الشبهات هو ليس هو الفقه - في الغالب - بل العلوم العقلية.. الفلسفة والكلام. فهي حقول لازمة وفروع مهمّة في الحوزات العلمية. والفرع المهم الآخر هو علم التفسير والأنس بالقرآن والمعرفة القرآنية. فيجب أن لا نبقي محرومين من التفسير. فإنّ درس التفسير مهم، كما أنّ درس الفلسفة مهم أيضاً. وهذه الحقول ذات قيمة كبيرة.

#### النقطة الثانية:

حول ظاهرة الأخوات طالبات العلوم الدينية. فإنّها ظاهرة عظيمة ومباركة جداً. ينبغي تخريج الآلاف من العالمات والباحثات والفتيات والفيلسوفات في الحوزات العلمية الخاصة بالأخوات.. لاحظوا آية حركة عظيمة ستكون هذه.. ولاحظوا في المقابل كم هي سيّئة ومهينة ومنحرفة نظرة العالم المادّي للمرأة.

إنّ وجود العالمات الإسلاميات في الحقول المختلفة - كوجود العالمات الواعيات الفاهمات الجامعيات المتديّنات المشرّعات - يترك أثراً كبيراً جداً في العالم، وهي سمعة حسنة للثورة وقيمة مضافة لها. وعلى السيّدات أن يدرّسن بصورة جيّدة.

وبالطبع، ليس الهدف النهائي لدراسة النساء هو أن يصبحن مجتهدات وفيلسوفات؛ إذ قد يكون للبعض منهنّ الرغبة والموهبة والوقت لهذه الأمور، وقد لا يكون للبعض الآخر كلّ ذلك، فمن المفيد لهنّ - حيثنّ - التعرّف على المعارف الإسلامية والقرآنية.

اللّهم اجعل ما قلناه وما سمعناه لك وفي سبيلك.  
اللّهم بارك وارع هذه الأقوال، وهذا الاستماع، وهذه الحركة العظيمة الموجودة في الحوزة العلمية.

اللّهم اجعل أعمالنا وأقوالنا وتحركاتنا تحت عين وليك ومحلاً لرضاه.  
اللّهم أرض قلبه المقدّس عنا. وتغمّد برحمتك وبركاتك الروح الطاهرة لإمامنا الجليل وشهدائنا الأبرار الذين فتحوا لنا هذا الطريق.  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

\* \* \*

## الهوامش:

(١) وهي فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم ، هذه السيّدة الجليلة التي هاجرت من موطن آبائها وأجدادها لتكون إلى جوار أخيها الإمام عليّ بن موسى الرضا ، في غربته بأرض طوس، ولكنّ يد المنيّة عاجلتها وهي في الطريق إلى خراسان، فدُفنت هناك محتسبة صابرة، ومنذ ذلك الوقت، ووفود المؤمنين تؤمّ مرقدها تبرّكاً وتقرباً إلى الله تعالى، عُرفت بكراماتها الكثيرة، وأنها من أبواب الحوائج إلى الله تعالى، حتى قيل: إنّها كريمة آل محمّد، وهو أمر ليس بالبعيد، لا عقلاً ولا شرعاً، عن أولياء الله الصالحين، فكيف إذا كانوا - أيضاً - من أبناء ذلك البيت المبارك، بيت محمّد ، وعليّ X، وفي الحقيقة، فإنّ مدينة قم تشكّلت - في الأصل - من الزائرين الذين آثروا مجاورة هذه السيّدة، والسكنى في كنفها، وسرعان ما حلّت الحوزة العلمية - أيضاً - ضيفاً على هذه السيّدة الجليلة، حيث خُصّصت غرف وقاعات في مرقدها الطاهر للتدريس وإلقاء المحاضرات العلمية والدينيّة وإجراء المباحثات، ولا يزال ذلك مستمراً حتى وقتنا الحاليّ.

(٢) انظر: العلامة المجلسي، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٢: ٢٦، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ، ط مؤسّسة الوفاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

## نداء الإمام القائد الخامنئي دام ظلّه

لحجّاج بيت الله الحرام لعام ١٤٣١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيّدنا محمّد المصطفى وآله الطيّبين وصحبه المنتجبين...

إنّ الكعبة الشريفة التي هي رمز الوحدة والعزّة، ومظهر التوحيد والقيم الروحيّة، تستضيف في موسم الحجّ قلوباً مفعمةً بالشوق والأمل، توجّهت من كلّ أرجاء المعمورة إلى مهد الإسلام، مجيئةً دعوة الربّ الجليل، مردّدة نداء التلبية.

وتستطيع الأمة الإسلاميّة - الآن - أن تشاهد بعيون موفديها المجتمعين هنا، من كلّ أصقاع العالم، صورةً مضغوطةً من رحابة ساحتها وتنوّعها، وعمق الإيمان الذي يحكم قلوب أتباع هذا الدين الحنيف، وأن تقدّر هذا الرصيد الهائل الذي لا مثيل له تقديراً صحيحاً.

إنّ معرفتنا بذاتنا من جديد، تساعدنا - نحن المسلمين - على أن نعرف المكانة اللائقة بنا في عالم اليوم والغد، وأن نسير باتجاهها.

إنّ تنامي موجة الصحوة الإسلاميّة في عالمنا المعاصر حقيقة تبشّر الأُمّة الإسلاميّة بغدٍ سعيد. فمنذ أن بدأت هذه الانطلاقة القويّة قبل ثلاثة عقود، بانتصار الثورة الإسلاميّة، وقيام النظام الجمهوريّ الإسلاميّ، راحت أُمّتنا العظيمة تتقدّم بلا توقّف، وأزالت عقباتٍ من طريقها واستولت على خنادق. وإذا كان الاستكبار قد زاد من التعقيد في أساليب عدائه، وبذل جهوداً باهظة التكلفة لمواجهة الإسلام، فذلك بسبب هذا التقدّم نفسه.

إنّ ما يقوم به العدوّ من عملٍ إعلاميّ واسع النطاق لإشاعة الخوف من الإسلام، والجهود المتهوّرة التي يقوم بها لزرع الخلاف بين مختلف الطوائف الإسلاميّة، وإثارة العصبانيّات الطائفية، وما يدأب عليه من اختلاق عدوّ وهميّ، للسنة من الشيعة، وللشيعة من السنة، وبثّ الفرقة والشقاق بين الدول الإسلاميّة، والسعي لتصعيد الخلافات وتحويلها إلى عداواتٍ ونزاعاتٍ غير قابلة للحلّ، واستخدام الأجهزة الاستخباراتيّة والجاسوسيّة لحقن سموم الفساد والفحشاء في صفوف الشباب ... إنّ كلّ ذلك لا يخرج عن كونه ردود فعلٍ مرتبكةٍ وعشوائيّةٍ أمام حركة الأُمّة الإسلاميّة المتينة، وخطاها السديدة في طريق الصحوة والعزّة والحرّيّة.

واليوم، لم يعد العدو الصهيوني ذلك العملاق الذي لا يُقهر، خلافاً لما كان عليه الحال قبل ثلاثين عاماً؛ ولم يعد الأمريكيّون والغربيّون هم أصحاب القرار في الشرق الأوسط دون منازع، خلافاً لما كان عليه الحال قبل عقدين من الزمن؛ ولم تعد التقنيّة النوويّة، وغيرها من التقنيّات المعقّدة، بعيدةً عن متناول الشعوب المسلمة في المنطقة، ولم تعد بالنسبة لها أحلاماً بعيدة المنال، خلافاً لما كان عليه الحال قبل عقدٍ من الزمن.

إنّ الشعب الفلسطينيّ هو اليوم بطل المقاومة، والشعب اللبنانيّ هو - لوحده - محطّ الهيبة الزائفة للكيان الصهيونيّ، وفتح حرب الـ ٣٣ يوماً (حرب تمّوز)؛

والشعب الإيراني هو حامل الراية ومقتحم العقبات صاعداً نحو القمم.

إنّ أمريكا المستكبرة، التي تزعم لنفسها قيادة المنطقة الإسلامية، والتي تشكّل الحامية الرئيسيّة للكيان الصهيونيّ، قد وقعت في الورطة التي أوجدتها بنفسها في أفغانستان، كما أنّها بدأت تنعزل في الساحة العراقيّة، بعد كلّ تلك الجرائم التي ارتكبتها بحقّ الشعب العراقيّ، وإنّما في باكستان المنكوبة أصبحت مبعوضة أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

إنّ الجبهة المعادية للإسلام التي ظلّت لمُدّة قرنين من الزمن تتحكّم في مصير الشعوب الإسلاميّة ودولها بظلمٍ وتعسفٍ، وتَنهَب ثرواتها نهباً، تشهد اليوم زوال نفوذها، وتصدّي الشعوب المسلمة لها بشجاعةٍ وبسالة.

وفي المقابل، فقد أصبحت حركة الصحوة الإسلاميّة تتقدّم وتتعمّق أكثر فأكثر على مرّ الأيام.

إنّ هذه الأوضاع التي تبعث على الأمل وتحمل معها البشارة، لا بدّ لها - من جهة - أن تدفع بنا - نحن الشعوب المسلمة - إلى مستقبلٍ منشود، بثقةٍ أكبر من أيّ وقت مضى، كما ينبغي لها - من جهةٍ أخرى - أن تُبقينا - بدروسها وعبرها - أكثر وعياً ويقظةً من أيّ وقت مضى. ولا شك أنّ هذا الخطاب العام يجعل علماء الدين والقادة السياسيين والمثقفين والشباب، ملتزمين أكثر من غيرهم، ويطالب هؤلاء بالمجاهدة والريادة.

يخاطبنا القرآن الكريم بنبرة بليغةٍ وحيةٍ فيقول: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]. فالأمة الإسلامية - حسب خطاب العزة القرآنيّ هذا - قد أُخرجت للبشريّة، وإنّ الهدف من وجود هذه الأمة هو إنقاذ البشريّة وتحقيق الخير لها.

كما أنّ الواجب الكبير الملقى على عاتق هذه الأمة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان الراسخ بالله تعالى. ولا معروف أسمى من إنقاذ الشعوب

من برائن هيمنة الاستكبار الشيطانيّة، كما أنّه لا منكر أبشع من التبعيّة للمستكبرين وخدمتهم.

لذلك، فإنّ مساعدة الشعب الفلسطينيّ، والمحاصرين في غزّة، والتعاطف والتعاضد مع شعوب أفغانستان وباكستان والعراق وكشمير، والمجاهدة والمقاومة في وجه العدوان الأمريكي والصهيونيّ، والسهر على وحدة المسلمين، ومكافحة الأيدي القذرة، والألسن العميلة، التي تحاول المساس بهذه الوحدة، ونشر الصحة، والشعور بالمسؤوليّة، والالتزام بين الشباب المسلمين في جميع الأقطار الإسلاميّة... كلّ ذلك يعدّ مسؤوليّاتٍ جسيمة تُلقى على عواتق الخواصّ من أبناء هذه الأمّة.

إنّ المشهد الرائع الذي يبلوره الحجّ، يرشدنا إلى المجالات الملائمة للقيام بهذه المسؤوليّات، ويدعونا إلى مضاعفة العمل والهمم.

والسلام عليكم ورحمة الله

السيد عليّ الحسينيّ الخامنئي

الأوّل من ذي الحجة الحرام - ١٤٣١ هـ. ق.

\* \* \*





## تجليات الأمة الواحدة في مشاهد الحج

□ الشيخ محمد مهدي الأمصفي (\*)

تقديم

تجلى الأمة الواحدة وظهرها في الحجّ واحدة من أعظم منافع الحجّ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ﴾ [الحج: ٢٨]، ولا نعرف مشهداً للأمة الواحدة أعظم وأروع مما نشاهده في الحجّ. هناك يشهد المسلم الأمة الواحدة بكلّ تجلياتها، من إسقاط الفوارق، وملء الفواصل والفجوات، والوقوف جميعاً في موقفٍ واحدٍ وفي وقتٍ واحد. وهذه المشاهد التي تتكرر كلّ سنة، ويحضرها نخبة من المسلمين من كلّ فجٍ عميق... تعتبر أفضل تجسيدٍ للأمة الواحدة، التي تضع أحياناً وتختفي بسبب تراكم الخلافات المذهبية والوطنية.

---

(\*) عالم دين، ومفكر إسلامي كبير.

:

وأول ما يتجلى هذا المشهد التوحيدي والوحدوي العظيم في (الميقات)؛ حيث ينتزعهم الميقات من أزيائهم الوطنية، ويلبسهم لباساً موحداً في غاية البساطة، وبعيداً عن مظاهر الترف، ثم يوحد الميقات خطابهم الرباني «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك»، وهذا هو الخطاب التوحيدي والوحدوي الذي يرفعه الحجاج جميعاً في الميقات... يوحد الميقات خطابهم الذي هو جوهر هذه العبادة، وهي (التوحيد)، ويوحد مظهرهم، وينتزعهم من حالة التشبث في الخطاب، وتمايز المظاهر والأزياء، فيكون مثل الميقات مثل جداول متميزة من أقاليم شتى، تدخل في الميقات وكأنه نهر عظيم من الحجاج، يقبلون على الله بمظهر واحد، وخطاب واحد، وغاية واحدة، حتى يصب هذا النهر في بحر عظيم من الناس بجوار بيت الله الحرام، لا تكاد تميز فيه العراقي عن اليمني، واليمني عن الجزائري، والجزائري عن الإيراني، والتركي... ثم يأتي دور الكعبة الشريفة في توحيد الأمة وإخراجها إخراجاً واحداً. وللکعبة المعظمة دوران في توحيد الأمة (القبلة والطواف)، وكل واحد من هذين الدورين يوحد جبهة هذه الأمة العظيمة، المتفرقة في بلاد شتى من القارات الخمس.

إنَّ (القبلة) ترمز في حياة المسلمين إلى أمرين على أعلى درجات الأهمية، ترمز إلى توجيه الإنسان وجهه إلى الله في كل حالاته: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ اللَّهَ وَهِيَ لِي وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وعندما يوجه الإنسان وجهه إلى نقطة معينة، فإنها سوف تحدّد مساره وخط حركته بشكل قطعي، كما كان يجعل أهل البادية في البرّ، والبحارة في البحار والنجوم بين أعينهم؛ ليحددوا بذلك خطّ حركتهم في البوادي والبحار، قبل أن

يعرفوا نظام البوصلة.

فإذا جعل الإنسان (الله) تعالى وجهته، وتوجه إليه بوجهه، وجعله غايةً لحركته، فإنَّ النقطة الغائية في تحركه التي جعلها وجهته وفي قبالته سوف تحدّد له خطّ حركته ومساره في الحياة الدنيا، وهو الصراط المستقيم الَّذي يهديه إلى الله تعالى، وهو صراط الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ من عباده: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿الفاتحة﴾.

وترمز (القبلة) ثانياً إلى توحيد جهة حركة المسلمين جميعاً إلى الله، بهذا الاتجاه فإنَّ القبلة توجه عامة المسلمين إلى نقطة الكعبة في اليوم خمس مرات على أقلّ التقادير.

إذن القبلة ترمز أولاً إلى توجيه الإنسان المسلم إلى الله في حركته على الصراط المستقيم.

وترمز ثانياً إلى توحيد المسلمين عامة في هذا الاتجاه الرباني في الحركة. وخلاصة القول: إنَّ القبلة ترمز إلى الاستقامة على الصراط المستقيم إلى الله تعالى، وتوحيد حركة المسلمين جميعاً على هذا الصراط.

ويرمز (الطواف) إلى حركة التوحيد على وجه الأرض وفي التاريخ، كما يرمز إلى اجتماع الموحدين لله، بهذا الاتجاه التوحيدي في التاريخ والمجتمع. فإنَّ هذه الحركة الاستدارية حول مركز الكعبة ترمز - والله العالم - إلى الحركة التوحيدية للإنسان. فلا ينحرف الطائف عن مركز الكعبة في كُلِّ دائرة الطواف بكتفه الأيسر على امتداد هذه الدائرة، بينما يتحرك كتفه الأيمن في كُلِّ الاتجاهات من دون استثناء، والدائرة التي يطويها الكتف الأيمن للطائف تصل إلى ٣٦٠ درجة، وهي دائرة كاملة لا تخرج عنها جهة من الجهات على الإطلاق، وهي إشارة رمزية - والله العالم - إلى أَنَّ بإمكان الإنسان أن يحافظ على توحيد الله بالعبادة، والاستعانة، والطاعة، والعبودية في كُلِّ حركته الواسعة في الدنيا، في

كُلَّ حقول الحياة، في حركته، وخطابه، ومواقفه، وعمله، من دون استثناء: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، ليس فقط في صلاته ونسكه، وإنما في محياه ومماته أيضاً.

وفي الوقت نفسه ترمز الكعبة إلى تجميع المسلمين على توحيد الله تعالى في العبادة، والعبودية، والاستعانة، والإخلاص، والدين، والطاعة، والولاء.

وهكذا تتصل تجليات الأمة الواحدة في مشاهد الحج الكبرى من الميقات إلى الطواف، ومن الطواف إلى السعي، ومن البيت الحرام إلى عرفة؛ حيث يجتمع ملايين المسلمين في وادي عرفة، توحدهم عرفة، وتوجههم إلى الله تعالى بالدعاء والصلاة، تصفيهم من كُلِّ ذنوبهم، بلا استثناء إلا الشرك، والقتل، وحقوق الناس، والبدعة في دين الله، فإنها لا تغتفر.

ويفيض الحجاج من عرفة إلى المشعر الحرام، وقد تركوا وراءهم ركام ذنوبهم ومعاصيهم في هذا الوادي الشريف.

ثم مشهد المشعر الحرام ومشاهد رمي الجمرات في وادي منى، وهو يرمز إلى جهدٍ جمعيٍّ من جانب الحجاج كلهم؛ لإقصاء الشيطان عن حياتهم، ورجعه، وإبعاده منهم.

ثم تأتي في نهاية هذه الجولة الصعبة من الميقات إلى منى «العيد الأكبر» الذي يحتفل به الحجاج جميعاً في منى، وفي رحاب بيت الله، وهو عيد الأضحى المبارك.

يوحدهم في فرحتهم بنجاحهم في إقامة هذه الفريضة الصعبة في هذا البلد الذي اختاره الله لبيته الحرام.

إنَّ أبرز شيء في الحركة العظيمة من الميقات إلى منى أمران: توحيد الله تعالى بالعبادة، وتوحيد حركة الأمة على خطِّ توحيد الله، ولا يحسّ الإنسان بهذه الأمة المباركة العظيمة، كما يحسّ بها في مشاهد الحج العظيمة.

وكما يوحد الحنج خطاب هذه الأمة، وحركتها، ومظهرها، ومضمونها، كذلك يوحد جهد هذه الأمة في مكافحة العوامل المعيقة لوحدة الأمة، والفتن الطائفية التي تجعل من هذه الأمة الواحدة أمماً شتى، متقاطعة ومتنافرة، على خلاف ما يريد الله تعالى من عباده المؤمنين.

:

إنَّ مكافحة الفتن الطائفية، والسعي إلى التقريب، والتفاهم، والتضامن، والتعاون بين المسلمين، من ثوابتنا السياسية والحضارية والاقتصادية. وتدخل في تكويني الأمة الإسلامية الواحدة، ومن دونه لا تتحقق الأمة الواحدة التي جعلها الله أمةً وسطاً، وشاهدة على سائر الأمم. ويتوقف عليها انتصارنا في المعترك السياسي، والحضاري، والثقافي، والعسكري، ومن دونها لا يتحقق النصر الذي نسعى إليه في مسيرتنا السياسية والثقافية.

وتتوقف عليها حركتنا الثقافية والعلمية؛ فإنَّ التقاطع الطائفي، والعزلة والانكفاء على الذات، يؤدي بالضرورة إلى الضمور الثقافي والعلمي، وبعكس ذلك التواصل واللقاء والحوار الإيجابي، يؤدي إلى التكامل العلمي والثقافي في حوزاتنا وجامعاتنا العلمية.

إنَّ هناك ثلاث قضايا رئيسية، لا بدَّ فيها من الوعي والوضوح، ولا بدَّ من السعي لنشر وعي سياسي - ثقافي تجاه هذه النقاط في أوساط الجمهور. وهذه النقاط هي:

١. الأمة الواحدة.
٢. الصراع الحضاري الذي تخوضه هذه الأمة.
٣. ضرورة الترافد الثقافي والعلمي في أوساط هذه الأمة.

• هذه الأمة أمة واحدة، وليست أمماً شتى.

وقد ورد هذا المعنى بصراحة في آيتين من القرآن الكريم:

- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

- ﴿وَلَا يَزَالُ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وليس معنى وحدة الأمة التطابق الكامل في الرأي والاجتهاد؛ فإن ذلك ممّا لا يكون، وإنّما معنى ذلك الاتفاق والتفاهم على الأصول، والانسجام والتفاهم والتعاون على المواقف السياسية، وتوحيد الولاء والبراء والطاعة والنصرة.

• سواء أردنا أم لم نرد، نحن ندخل اليوم في صراع حضاري عسير، والمواجهة العسكرية شكل من أشكال التعبير عن هذا الصراع. وهذا الصراع صراعٌ شرس، وخصوصاً في هذا الصراع جبهة واحدة مهما تعددت توجهاتهم.

وليس من الصدفة أن تتفق أمريكا والاتحاد الأوروبي على دعم إسرائيل في كل أعمالها العدوانية تجاه المسلمين، وأن تقف إلى جانبها من غير أن تأخذ بنظر الاعتبار حاجتها إلى المسلمين، وعلاقاتها الاقتصادية والواسعة بالعالم الإسلامي.

نحن نواجه اليوم صراعاً حضارياً، سياسياً، اقتصادياً، عسكرياً، من أشرس ما يكون الصراع، وإذا خسرنا الحرب في هذه المعركة المصيرية، فسوف نعود مرة أخرى إلى دورة جديدة من التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية للغرب التي طالتنا من بعد سقوط الدولة العثمانية إلى اليوم.

والانتصار والهزيمة في هذا الصراع - في كلّ أبعاده - قضية مصيرية في

حضارتنا وتاريخنا؛ ولا نشك أننا نكسب هذا الصراع إذا واجهنا خصمنا أمةً واحدة، وصفاً واحداً، وموقفاً واحداً؛ وذلك أن يد الله تعالى مع الجماعة وعلى الجماعة، وإذا كانت يد الله معنا فلا يتخطانا النصر بإذن الله. ولا نشك أننا إذا واجهنا خصومنا مقتسمين على أنفسنا، متقاطعين في مواقفنا وإرادتنا، متخالفين في توجهاتنا، فلا نكسب هذا المعترك الحضاري الصعب.



الترافد الثقافي من نتائج التقريب بين المذاهب الإسلامية، ومن عوامله في الوقت نفسه.

وقد كان علماء المسلمين وطلبة العلم يتوافدون على مدارس فقهية من مذاهب واتجاهات مختلفة، وكانوا يتبادلون الإجازات في رواية الحديث، فكان طلبة العلم من العراق، ومعظمهم من الشيعة، يفدون إلى الحجاز ومصر والشام، ومعظمهم من أهل السنة. وكان يفد إلى العراق على مدرسة الحلة، وهي حوزة شيعية عريقة، طلبة من الحجاز، ومصر، والشام، والمغرب العربي للدراسة، كما كان لعلماء المسلمين زيارات للأقاليم الإسلامية، وكان طلبة العلوم الدينية يلتمسون منهم أن يلقوا عليهم دروساً في الفقه والأصول (أصول العقائد، وأصول الفقه).

واليوم تحتضن الحوزة العلمية في قم، وهي حوزة علمية عريقة تابعة لمدرسة أهل البيت <sup>٨</sup> طلبة العلوم الدينية من أكثر من مئة قطر في العالم من القارات الخمس، وجملة من هؤلاء الطلاب الوافدين إلى هذه الجامعة من أهل السنة، ولا يجدون حرجاً في الدراسة في حوزة شيعية، كما لا تجد هذه الحوزة حرجاً أن تحتضن طلبة من المدارس والاتجاهات الفقهية الأخرى، تجري دراسة فقه المذاهب الإسلامية الأربعة في هذه الحوزة، كما تجري دراسة الفقه الإمامي.

ولهذا الترافد الثقافي والعلمي أثرٌ بليغ في التكامل العلمي والثقافي في المراكز العلمية الإسلامية.

فإنَّ الجهود العلمية، والثقافية المختلفة، عندما تلتقي مع بعضٍ على صعيد موضوعي علمي غير متشجع، يكون هذا اللقاء سبباً للإثراء والتكامل العلمي والثقافي لكلِّ هذه الروافد العلمية والثقافية، ويؤدِّي هذا الترافد إلى التقارب والتعارف بين المذاهب المختلفة، كما أنَّ التقارب والتعارف بين هذه المذاهب يؤدي بالضرورة إلى الترافد العلمي والثقافي.

إنَّ ظاهرة الترافد تؤدي إلى مكافحة وإبطال الفتن الطائفية، والعكس أيضاً صحيح؛ فإنَّ الفتن الطائفية تقلِّل من فرض الترافد الثقافي، وتحوِّل الثقافة والعلم إلى دوائر مغلقة غير مترابطة، وهذه الحالة من أسباب ضمور العلم والمعرفة دائماً.

وعلى كُلِّ حال، ظاهرة الترافد الثقافي ظاهرة مباركة في حياة الأمة، يجب أن نستعيدها، ونجددها ونشجعها، وندعمها، وهي أفضل وسائل علاج الفتنة. وفيما يلي سوف نتحدَّث عن ثلاثة من أبرز النُّقاط التي تساهم في علاج الفتنة الطائفية وإخمادها، وهذه النُّقاط الثلاث هي:

- الوعي والخطاب.

- اللقاء والحوار.

- العمل المشترك.

وإليك تفصيل هذه النُّقاط:

\* \* \*

:

الفتنة الطائفية، كأَيِّ فتنةٍ أُخرى، تنشأ وتنمو في غياهب الجهل والجهالة.



والفتن في حياة الناس كثيرة، وكلها تتكوّن وتظهر وتنمو في ظلمات الجهل. وأفضل العلاج لها ولأمثالها من الفتن هي المعرفة والوعي، فإنّ النور يكسح الظلمة، والمعرفة والوعي نور يزيل ما يعترضه من الظلمات، والفتن تراكم من الظلمات بعضها فوق بعض.

إنّ تحصين المجتمع من الفتن يتمّ بعاملين اثنين مع بعض، وهما التقوى والمعرفة، فإذا اجتمعتا فإنّهما يحصنان المجتمع من أمثال هذه الفتن. ومهما واجهنا فتنة من هذه الفتن التي تمحق دين الناس، وتثير الشغب والفوضى، وتحرق الأخضر واليابس، فلا بدّ أن يكون من وراء هذه الفتنة عجز في (التقوى) أو (الوعي)، أو فيهما معاً. فهما يحصنان المجتمع من كلّ فتنة، ويمنحان أصحابها بصيرةً وفرقاً إذا ادلهمت الخطوب والظلمات على الناس.

ومن أهمّ وجوه الوعي اليوم: الوعي السياسي، فإنّ عامل الاستكبار العالمي، والمخابرات، والمنظمات الجاسوسية العالمية، تكمن خلف هذه الفتن. والمؤسسات الإعلامية (الصحف والفضائيات ودور النشر) تبثّ هذه الفتن بين الناس، وتقوم بتأجيج حرائق الفتنة الطائفية بين المسلمين. وتجد أنظمة الاستكبار العالمي في هذه الفتن الطائفية فرصة ذهبية لبسط نفوذها في العالم الإسلامي، وتمكنها من أسواق المسلمين، ومصادر الثروة النفطية، والمعدنية، والمائية، والزراعية في العالم الإسلامي، وسوف نبسط الحديث في هذا الجانب إن شاء الله.

والأداة المفضلة لمواجهة هذه الفتن هي الوعي السياسي الذي يمكن الناس من معرفة خلفيات هذه الفتن وجذورها، والمنظمات الجاسوسية التي تخطط لها هناك في الغرب عبر المحيطات.

ومن واجب العلماء والخطباء والمثقفين الإسلاميين نشر الوعي السياسي بين الناس، وتمكين الناس من اختراق الغطاء الإعلامي، وتمكينهم من الدرك الصحيح لما يحصل في الساحة العالمية من فنون اللعبة السياسية، وتحذير الناس من أن يكونوا ضحايا هذه اللعب، والخطط التي تنتجها باستمرار العقلية الغربية تجاه العالم الإسلامي.

ولست أعني بـ (الوعي السياسي) هنا وعي النخبة، ولست أنفي ضرورة الوعي السياسي عند النخبة وأهميته، ولكن وعي النخبة لا يغني عن وعي الجمهور، وإذا حلّ الوعي في الشارع الذي يتحرّك فيه الجمهور، وتسَلَّح الجمهور بالوعي، لم تعد هذه اللعب السياسية، والفضائيات المضللة قادرة على تضليل الناس، وتفجير الفتن في أوساطهم، كالذي يحصل اليوم في العراق وفي باكستان وفي بعض الأقطار الإسلامية.

فإنّ الوعي عندما ينزل إلى مستوى الشارع ويثقف الجمهور يحصّنه من أمثال هذه الفتن. والجمهور الذي يمتلك درجة عالية من الوعي السياسي يمتلك درجة عالية من الحصانة تجاه العوامل الإعلامية والسياسية المضللة، وبالضرورة لا تحتوشه الفتن.

والجمهور غير الموجه، وغير الراشد هو الوسط الخصب، والتربة الصالحة لأمثال هذه الفتن، وعن طريق التوعية والتثقيف السياسي يمكننا أن نحافظ على سلامة الجمهور ورشده.

والجمهور كما هو تربة صالحة للفتن والضوضاء، كذلك هو وعاء صالح للوعي، والعقل، والسداد، والتقوى... ويمتلك أعماقاً سليمة من الفطرة لم ينفذ إليها الفساد. والقادة الحقيقيون هم الَّذِينَ يدركون هذا العمق الفطري السليم للجمهور، ويقودونه إلى صراط الله المستقيم، ويحذرونه من مغبة الوقوع في أمثال هذه الفتن، ويفلحون في ذلك.

إنَّ الثقة بالجمهور، وكفاءاته الكثيرة، وسلامة فطرته، هو رأس مال أولئك القادة الَّذِينَ يعرفون كيف يخاطبون الجمهور، وكيف يكسبونه، بعد الثقة بالله، والاعتماد عليه، والاطمئنان إلى وعده بالنصر، وتأنيده للقلّة المؤمنة لمواجهة أمثال هذه الفتن والتحديات.

ولا بدّ للوعي من خطاب، كما أنّ للتضليل السياسي خطاب، ولإثارة الفتنة بين الناس خطاب، ولتغريب الناس وتجهيلهم وتسطيح عقولهم خطاب، كذلك للوعي السياسي.

ولغة الخطاب لغة العقل، وهي اللّغة المفضلة في خطاب الوعي... إنّ العاطفة جزء ضروري من خطاب الجمهور لا شك في ذلك، ولكن من الخطأ الاقتصار على العاطفة في خطاب الجمهور، بل لا بدّ من استخدام لغة العقل في خطاب الناس، إلى جانب لغة العاطفة، ولا بدّ أن تكون لغة العقل هي الحاكمة، وهي الأصل، ولغة العاطفة تأتي في امتداد لغة العقل، ولإسناد العقل عندئذ يكون الخطاب العاطفي خطاباً صالحاً للجمهور. وأمّا عندما يتمخض خطاب الجمهور في الخطاب العاطفي، فلا يكون مثل هذا الخطاب خطاباً راشداً أميناً غالباً، ولا يكون قادراً على توجيه الجمهور إلى الوجهة الصحيحة.

إنَّ مشكلة الخطاب الإسلامي المعاصر لدى أصحاب التوجهات الطائفية

المعاصرة، هي الحالة العاطفية الطاغية على هذا الخطاب والحالة الشعارية، ورفض لغة العقل، وحالة الإنكفاء على الذات، والانغلاق على الرأي الآخر، ورفض الطرف الآخر رفضاً مطلقاً إلى حدود التكفير، واستباحة الدماء التي حرّمها الله تعالى بغير حقّ.

وقد يكون استجابة الجمهور أحياناً إلى الخطاب الشعاري والعاطفي أسرع من استجابتهم للخطاب العقلاني الراض لل عاطفة، ولكن يبقى استخدام لغة العاطفة والشعار محضاً وحسراً في خطاب الجمهور خيانة لهم مهما كانت استجابتهم لهذا الخطاب، واستخدام لغة العقل ومحكمات الدين في خطاب الجمهور هو الموقف الناصح الأمين من الجمهور، وإن واجهه الجمهور أحياناً بالرفض.

وعلى علماء المسلمين أن يتّقوا الله في الخطاب، ولا يبتغوا مرضاة الناس في ذلك، فقد يكون في الناس من يستجيب للشعار والعاطفة، وقد يكون الخطاب العاطفي والشعاري أسرع قبولاً في وسط الجمهور، ولكنّه على كل حال خيانة، يجب أن يحذرّها العلماء الراشدون.

والجمهور الذي يتثقف من خلال الخطاب العقلاني أكثر ثباتاً وصلابة في الموقف، والجمهور الذي يتلقى الخطاب العاطفي الشعاري جمهور متقلّب في الرأي، لا يثبت على موقفٍ ورأي، ومسؤولية هذه الحالة المتقلبة على عهدة الخطاب العاطفي والشعاري الذي يتلقاه هذا الجمهور من حملة الخطاب الطائفي المتشنج.

وكما يجب الاهتمام بلغة الخطاب في حياتنا الثقافية والسياسية المعاصرة، كذلك يجب الاهتمام بمنطلقات الخطاب الإسلامي...

هناك خطاباتٌ سياسية وثقافية كثيرة معاصرة صادرة من (الولاءات) المنتحلة الوهمية، كالولاء للوطن، والأحزاب، والعشيرة، وهي ولاءات منتحلة كاذبة في مقابل الولاء لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين والمؤمنين، وهو الولاء الراشد الصحيح الذي جاء به الوحي من عند الله: ﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وهذا هو الولاء الحق الذي جاء به رسول الله ' من عند الله، وهو الولاء الذي يوحد صف المسلمين، ويجعل منهم أمة واحدة في صفٍ مرصوص، مقابل أعداء هذه الأمة.

وللقضاء على هذا الولاء بادر أعداء هذا الدين إلى طرح ولاءات أخرى، في مقابل الولاء لله، ولرسوله، ولأولياء الأمور، وللمؤمنين، كالولاء للقوم والوطن والعشيرة، وبذلوا أموالاً طائلة لتثبيت هذه الولاءات في ثقافة المسلمين المعاصرة، من خلال المدرسة، والصحافة، والإذاعة، والتلفاز، وإحياء المآثر الفرعونية والبابلية والكسروية والفنيقية... إلى غير ذلك.

من خلال هذه الثقافات عملوا على زرع ولاءات وهمية، قومية، ووطنية.. مقابل الولاء لله ولرسوله.

ونحن عندما نتحدث عن الخطاب السياسي الذي نلقيه إلى جمهورنا يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار منطلقات هذا الخطاب، هذا الخطاب الذي يجب أن ينطلق عن الولاء لله ولرسوله في قوله تعالى: ﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥].

وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقوله: ﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ [المؤمنون: ٥٢].  
﴿وَأَعِصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً

فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَنَزَعُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَنَزَعُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

أُمة واحدة، وولاء واحد، وطاعة واحدة.

إنَّ لكلَّ ولاء خطاب، وخطاب كُلِّ ولاء يختلف عن الخطاب الآخر، ونحن ولاؤنا لله ولرسوله ولأولياء الأمر وللمؤمنين، وليس للوطن والقوم والعشيرة. ولهذا الولاء خطابٌ يختلف عن خطاب الولاء للقوم والوطن.

ونحن لا نرفض الارتباط بالقوم والوطن إلاَّ أنَّ هذا الارتباط من الانتماء وليس من الولاء، والولاء يحكم الانتماء، فقد حارب المسلمون في صدر الإسلام أهلهم وآباءهم وإخوانهم من مكة في الله.

وخطابنا إلى جمهور أمتنا - في السراء والضراء - يجب أن ينطلق من هذا المصدر، وهو الخطاب الذي يجمع الشمل، ويزرع المحبة والمودة في القلوب، ويؤسس التفاهم والتعاون في الأفكار والأعمال.

ويجب أن يكون الخطاب صادقاً وناصحاً. وفي خطابنا المذهبي والطائفي المعاصر الكثير من الكذب والافتراء، ومن يقرأ بعض أدبيات الفتنة الطائفية المعاصرة، يجد نماذج كثيرة من هذا الافتراء والكذب، ومن أمثلة هذا الافتراء: الافتراء على الشيعة الإمامية بأنهم يقولون بتحريف القرآن، وهم ينفون عن

أنفسهم هذه التهمة، ويصرحون ويكتبون عن صيانة القرآن عن التحريف.  
ولو أنك سبرت بلاد المسلمين في كل العالم لا تجد غير هذا القرآن قرآناً يتلوه  
الناس، ويتعبدون به في مشارق الأرض ومغاربها.  
وكم يتبادل المسلمون من المذاهب المختلفة الافتراءات فيما بينهم من غير  
هدى ولا بينة.  
ولا يقتصر أمر هذه الافتراءات فيما بين الشيعة والسنة، وإنما يتم بين الشيعة  
أنفسهم، والسنة أنفسهم، بما لا يقل عما يجري بين الشيعة والسنة.  
وهذا الخطاب الطائفي الاستفزازي ينقصه الصدق والنصح..  
ينقصه الصدق؛ لأن علماء المسلمين من جميع المذاهب يكتبون ويعلنون  
ويصرحون أن ليس لله على وجه الأرض كلها قرآن غير هذا القرآن، الذي يتلوه  
المسلمون صباحاً ومساءً.  
وينقصه النصح؛ لأن المسلم الذي يهمله أمر وحدة المسلمين وانسجامهم،  
والذي يأمر الله تعالى به ورسوله لا ينال مذاهب المسلمين بهذا اللون القاسي من  
الجرح والتشهير والتسقيط، من دون تثبت علمي، بل مع إعلانهم البراءة عما  
ينسب إليهم من الافتراء.

إن مواجهة ظروف الفتنة الطائفية اليوم تستدعي شجاعة وصراحة في  
الخطاب، وما لم يمتلك حملة الخطاب الإسلامي هذه الشجاعة والصراحة لا  
يتمكنون من مواجهة الفتنة الطائفية المعاصرة واستئصالها.  
إن الحالة التكفيرية المعاصرة، واستباحة دماء المسلمين بغير الحق، عودة  
للحالة الخارجية التي ظهرت صدر الإسلام في حرب صفين والنهروان في أيام  
خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وولادة جديدة للحالة نفسها.

وهذه الحالة آخذة بالتوسع والنفوذ إلى داخل الحركة الإسلامية المعاصرة، ولا بدّ أن يمتلك تجاه هذه الحالة علماء المسلمين الجرأة والشجاعة والصراحة الكافية في بيان موقف الإسلام من هذه الجماعة، ومن هذه الحالة التي تُعدّ انزلاقاً خطيراً للحركة الإسلامية المعاصرة.

والتردد والترثيث في مثل هذا البيان والخطاب، يؤدي إلى استثناء هذه الحالة وتوسعها، وإلى حدوث انزلاقات خطيرة في الحركة الإسلامية المعاصرة بهذا الاتجاه.

وقد حرّم الإسلام دم المسلم وماله إذا كان يشهد بالتوحيد لله والنبوة لرسول الله قولاً واحداً بين فقهاء المسلمين.

روى مسلم في الصحيح في فضائل عليّ عليه السلام: عندما دعا رسول الله ' علياً في فتح خيبر، فأعطاه الراية، وقال له: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك، قال: فسار عليّ عليه السلام شيئاً ثم وقف ولم يلتفت فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا من دماءهم»<sup>(١)</sup>.

وفي الصحيحين بالإسناد إلى مقداد بن عمرو أنّه قال: يا رسول الله، أرايت إن لقيت رجلاً من الكفار، فاقتلنا، فضرِب إحدى يدي بالسيف، فقطعها، ثمّ لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله، فأقتله يا رسول الله بعد أن قاهها، فقال رسول الله ' : «لا تقتله، فإنّ قتله فإنّه بمنزلك قبل أن تقتله، وإنّك بمنزله قبل أن يقول كلمته التي قال»<sup>(٢)</sup>.

وأخرج البخاري في بعث عليّ عليه السلام وخالد إلى اليمن: أنّ رجلاً قام، فقال: يا رسول الله اتق الله، فقال ' : «ويلك ألسنت أحق أهل الأرض أن يتقي الله»، فقال خالد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فقال ' : «لا، لعله أن يكون يصلي»<sup>(٣)</sup>.



وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله 'أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد حرم عليّ دماءهم وأموالهم»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ' :  
«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «الإسلام يُحقن به الدم»<sup>(٣)</sup>.  
وعنه عليه السلام أنه قال: «شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله '، به حُقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواarith»<sup>(٤)</sup>.

وعن رسول الله ' أنه قال: «من وحّد الله وكفر بما يعبد من دونه حرم ماله ودمه وحسابه على الله»<sup>(٥)</sup>.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيضاً عن رسول الله ' أنه قال: «أيها الناس إني أمرت أن أقاتلكم حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله، فإذا فعلتم ذلك حقنتم بها أموالكم ودماءكم إلا بحقها، وكان حسابكم على الله»<sup>(٦)</sup>.

عَنْ أَحَدِهِمَا ' قَالَ: «أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ ' فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَتِيلٌ فِي جُهَنِّةٍ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ' يَمْشِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَسْجِدِهِمْ قَالَ وَتَسَامَعَ النَّاسُ فَاتَّوَهُ فَقَالَ مَنْ قَتَلَ ذَا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَدْرِي فَقَالَ قَتِيلٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يُدْرَى مَنْ قَتَلَهُ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ شَرَكُوا فِي دَمِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ وَرَضُوا بِهِ لَأَكْبَهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ فِي النَّارِ أَوْ قَالَ عَلَى وُجُوهِهِمْ»<sup>(٧)</sup>.

وروى مسلم عن أسامة بن زيد أنه قال:

بعثنا رسول الله ' في سرية فصباحنا الحرقات<sup>(٨)</sup> من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي '،

فقال رسول الله ﷺ: «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ!». قال: قلت: يا رسول الله إنَّها قالها خوفاً من السلاح، قال: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا»، فَمَا زَالَ يَكْررها عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ<sup>(١)</sup>.

فرغم أنَّ القَتِيل كان مُقاتلاً يقاتل المسلمين في صفوف الكافرين حتى اللَّحظة الأخيرة، ونطق بكلمة التوحيد في اللحظة الأخيرة عندما وجد السيف على رأسه، وواضح من كُلِّ القرائن أنَّ الرجل شهد الشهادة خوفاً من القتل، وليس عن إيمان، كما قال أسامة بن زيد، إِلَّا أنَّ رسول الله ﷺ غضب غضباً واضحاً، وأنكر على أسامة بشدة، وكرر إنكاره عليه حتى تمنى أسامة أن يكون قد أسلم في ذلك اليوم، حتى يكون الإسلام قد جبَّ من ذنوبه ما سبق.

وهذه الخطبة ألقاها رسول الله ﷺ في جموع المسلمين الغفيرة يوم النحر بمنى، وقد ورى هذه الخطبة ثقة المحدثين بالفاظ متقاربة، ونحن ننقل الخطبة برواية الإمام الصادق عليه السلام، ويغنيها اشتها روايتها بين حفاظ الحديث النبوي عن ذكر مصادرها:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ بِمَنَى حِينَ قَضَى مَناسِكَهَا فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَاعْقِلُوا عَنِّي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَقَاسِمُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ بَعْدَ عَامِنَا هَذَا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ أَعْظَمُ حَرَمَةً؟ قَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ أَعْظَمُ حَرَمَةً؟ قَالُوا: هَذَا الشَّهْرُ، قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ أَعْظَمُ حَرَمَةً؟ قَالُوا: هَذَا الْبَلَدُ، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَغَتْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ، أَلَا مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ اتَّيَمَّنَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ وَلَا مَالُهُ إِلَّا بِطِيَّةٍ نَفْسِهِ، وَلَا تَظْلَمُوا

أنفسكم، ولا ترجعوا بعدي كفاراً».

\* \* \*

:

هذه ثلاثة عناوين يحبُّها الله تعالى، وهي أساس التقريب والتفاهم وجمع الشمل، وهي:

الجماعة، والاجتماع واللقاء، والحوار والتفاهم.

وهذه الثلاثة هي الأداة المفضلة في دين الله لمكافحة الفتن الطائفية، وإزالة التقاطعات، والوصول إلى الانسجام والتفاهم والتعاون.

وسوف نشرح هذه الثلاثة، ونقف وقفاتٍ قصيرةٍ عند كل واحد منها:

( )

نقصد بالجماعة: الأمة الإسلامية الواحدة، وتتميّز هذه الأمة عن سائر الأمم في العقيدة والشريعة والرسالة، ورسالتها التعاون والتضامن الاجتماعي، على أداء هذه الرسالة، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

- ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ [التوبة: ٧١].

هؤلاء جماعة هذه الأمة، يحملون همّاً واحداً، ومسؤولية واحدة، هي الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهم أسرة واحدة، متعاونة ومتفاهمة ومتعاطفة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾، وهم يؤمنون جميعاً بالله ورسوله، ويطيعون الله ورسوله؛ فإن الدعوة إلى الله ورسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يكون إلا مع الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله. إذن، هذه الجماعة تحمل ثلاث خصال:

١. الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله.
  ٢. الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة.
  ٣. التفاهم والتعاون والتعاقد والتواصي بالحق والصبر فيما بينهم.
- ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وعليه، فإن مفهوم (الجماعة) بهذا التوضيح يلتقي مع مفهوم (الأمة)، ويتحد معه.

وهذه الأمة أمة واحدة، وليست أمماً شتى، لا ريب في ذلك.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وهذه الأمة بعرضها العريض أمة واحدة، لها عقيدة واحدة، وشريعة واحدة، ومنهاج واحد، ودعوة واحدة، وسبيل واحد، ورسالة واحدة، يؤدونها مجتمعين.

وهذه الوحدة والاجتماع في الأداء، وتحمل المسؤولية، والوحدة في العقيدة والشريعة والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي التي تجعل من هذه الأمة جماعة واحدة.

وقد ورد التأكيد على هذا الاجتماع، والوحدة في الأداء، والوحدة في الموقف والعمل في آيات عديدة من القرآن.

منها قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ فإن الآية تحمل معنيين: الاعتصام بحبل الله، وأن يكون هذا الاعتصام من قبل الجميع. ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وهذه الآية تحمل معنيين أيضاً:

١. الدخول في السلم.
٢. وأن يكون هذا الدخول من قبل الجميع.

وقد ورد التأكيد في أحاديث كثيرة متضافرة على لزوم الجماعة، منها ما رواه الفريقان عن رسول الله ' في الخطبة التي خطبها في مسجد الخيف بمنى عام حجة الوداع، وإليك هذا الخطاب النبوي الشريف: «نَصَرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ غَيْرُ فِقْهٍ وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ثَلَاثٌ لَا يُغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَالنَّصِيحَةُ لِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَاللُّزُومُ لْجَمَاعَتِهِمْ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ مُحِيطَةٌ مِنْ وَرَائِهِمُ الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِدِمَتِهِمْ أَذْنَاؤُهُمْ» (١).

وهذا خطابٌ شريفٌ يتضمن ثلاث دعوات، وأية دعوات!

١. الإخلاص في العلاقة مع الله.
٢. والنصيحة في العلاقة بأئمة المسلمين وأولياء الأمر ٨.
٣. واللزوم لجماعة المسلمين في العلاقة بالأئمة.

وسلامة الفرد والمجتمع بسلامة هذه العلاقات الثلاث. فإذا سلمت علاقة الفرد بهذه المحاور الثلاثة يسلم الفرد، وتسلم الأمة.

ورد في النصوص الإسلامية التأكيد على اللقاء والاجتماع، والنهي عن الاختلاف والتفريق والتقاطع داخل الجماعة المسلمة، والنهي عن الخروج عن جماعة هذه الأمة والشذوذ عنها.

فعن رسول الله ' : «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة» (١).

وعنه ' : «اثنان خيرٌ من واحد، وثلاثة خيرٌ من اثنين، وأربعة خيرٌ من ثلاثة، فعليكم بالجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، ولم يجمع الله أمتي إلا على هدى، واعلموا أن كل شيطان هوى في النار» (٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الزُّمُّوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّنْبِ» (٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ قَوْمًا جَلَسُوا عَنْ حُضُورِ الْجَمَاعَةِ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُشْعَلَ النَّارُ فِي دَوْرِهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا وَحَضَرُوا الْجَمَاعَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ» (٤).

وقد جعل الله تعالى في لقاء المؤمنين رحمة وبركة وخيراً كثيراً، وجعل اللقاء والحوار من منازل رحمته وبركاته.

كما أن الشيطان يجعل من التباعد سبباً للنفور والقطيعة والخلاف.

واللقاء لا يتم من غير حوار عادة، فهما متلازمان من ناحية اللقاء، وقد رأينا بركات كثيرة في اللقاءات الأخيرة المعاصرة التي تمت في إيران بعد قيام نظام الجمهورية الإسلامية، بين المذاهب الإسلامية، فقد كانت هذه اللقاءات مصدر خير كثير في حياة هذه الأمة، تعارف خلالها بعضهم على بعض، وتحاببوا، ووجدوا فرصاً واسعة للتفاهم والتعاون، لم يكونوا يعرفونها من قبل... في هذه اللقاءات ارتفع كثير من اللبس والغموض الذي كان ينظر من خلاله بعضهم

إلى بعض من قبل، واكتشفوا مساحات مشتركة واسعة جداً في الفكر والثقافة والمعرفة، كانوا يعدّوها من قبل بما ينفرد بها بعضهم عن بعض.

( ) ( )

إنَّ اجتماع المؤمنين واللقاء بينهم أمرٌ يحبه الله تعالى، وما يحبه الله يجعل فيه البركة والخير، ويجعله من منازل رحمته.

وهذا اللقاء، وما يستتبعه من الحوار يدخل في صلب التشريع، فقد شرّع الله في هذا الدين للمسلمين الجماعة والجمعة والحج. ويدخل في الجمعة صلاة العيدين: الفطر والأضحى.

وهذه الثلاثة (الجماعة، والجمعة، والحج) تجمعات إسلامية ثلاثة تجمع المسلمين من مختلف الأقاليم والقوميات والمذاهب والاتجاهات والاجتهادات. ولا شك أنَّ الحالة العبادية والذكر في الصَّلَاة والحج جزءٌ لا يتجزأ من هذه الثلاثة، إلَّا أنَّ حالة اللقاء والاجتماع أمر مقصود في هذه التشريعات الثلاثة من دون شك.

ورغم أنَّ الإنسان يُقبل على صلاته في الخلوات أكثر من الإقبال عليها في الاجتماعات... مع ذلك كلّه يفضّل الإسلام إقامة الفرائض اليومية جماعة على الصلاة انفراداً؛ وذلك نظراً لأهمية التقاء المؤمنين وتواجههم في ساحة واحدة. وقد بلغ من اهتمام الإسلام بالجماعة أنَّ رسول الله ' هدّد أقواماً كانوا مقاطعين لصلاة الجماعة في المدينة بأن يحرق بيوتهم.

فقد روى الشيخ الطوسي في التهذيب، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ إِنَّ أَنَاساً كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ' أَبْطَأُوا عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ' لِيُوشِكُ قَوْمٌ يَدْعُونَ الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ أَنْ نَأْمُرَ بِحَطْبٍ فَيُوضَعَ عَلَى آبَائِهِمْ فَيُوقَدَ عَلَيْهِمْ نَارٌ فَتُحْرَقَ عَلَيْهِمْ يَوْمَهُمْ» (١).

وكذلك الاهتمام بأمر الجمعة في الإسلام، وتحشيد المؤمنين من كل منطقة في جامع عام لإقامة الجمعة، وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «صلاة الجمعة فريضة، والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإن ترك رجل من غير علة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض، ولا يدع ثلاث فرائض من غير علة إلا منافق»<sup>(١)</sup>. واجتماع الحج هو الاجتماع الأوسع للأمة كلها، تجتمع في موعد واحد، ومكان واحد؛ لأقامة هذه الفريضة، وهو أوسع اجتماع يعرفه الناس على وجه الأرض. يقيمهم المسلمون في كل عام تلبية لأذان أبيهم أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وقد حرص الإسلام أن يحضر المسلمون بكل مذاهبهم واتجاهاتهم هذه الاجتماعات الثلاثة؛ لأداء الفريضة اليومية وصلاة الجمعة وفريضة الحج مجتمعين.

وكان أئمة أهل البيت <sup>٨</sup> يؤكدون لشيعتهم حضور الجماعات والجمعات لأهل السنة.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ صَلَّى مَعَهُمْ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ كَانَ كَمَنْ صَلَّى خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>.

وفي آخر عنه عليه السلام: «إِذَا صَلَّيْتَ مَعَهُمْ غُفِرَ لَكَ بِعَدَدِ مَنْ خَالَفَكَ»<sup>(٣)</sup>. وذلك أن الأحناف من أهل السنة يلغون البسملة في القراءة، على خلاف مذهب أهل البيت <sup>٨</sup> في اعتبار البسملة جزءاً من كل سورة إلا سورة التوبة. ويشكو أحد الرواة إلى الإمام الصادق عليه السلام حاله في حضور صلوات جماعة أهل السنة قائلاً: إِنَّ لَنَا إِمَامًا مُخَالَفًا، وَهُوَ يَبْغِضُ أَصْحَابَنَا كُلَّهُمْ، فَقَالَ عليه السلام: «مَا



عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحقّ بالمسجد منه، فكن أنت أوّل داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس، وقل خيراً»<sup>(١)</sup>.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام لإسحاق بن عمار: «يا إسحاق أتصلي معهم في المسجد؟ قال: قلت: نعم، قال: صلّ معهم، فإنّ المصلّي معهم في الصّفّ الأوّل كالشاهر سيفه في سبيل الله»<sup>(٢)</sup>.

إنّ من الضروري تعبئة الجماعات والجمعات بحضور الشرائع الإسلامية المختلفة من كلّ المذاهب والطوائف الإسلامية، وكسر الحواجز الطائفية والمذهبية فيهما.

ومن الضروري أن يكون خطاب أئمة الجماعات والجمعات خطاباً تقريبياً، وحدوياً، توحيدياً، يكسب كلّ الفرق والطوائف الإسلامية، ولا يفرّقهم ولا ينفرّهم.

ومن الضروري تعبئة الحج بالحوار الهادف الموجه بين المسلمين في شؤونهم السياسية والثقافية والاقتصادية.

\* \* \*

أهمّ مساحات اللقاء والحوار، هي المساحة الثقافية والمعرفية، والمساحة السياسية، والمساحة الاقتصادية، والاختلاط العائلي بالتزاوج والمصاهرة.

اللقاء والحوار الموجه في شؤون الثقافة والمعرفة يؤدّي إلى تقريب وجهات النظر من المذاهب الإسلامية في شؤون المعرفة والعلم، كالفقه وأصول الفقه والكلام والتفسير.

ويؤدّي إلى اكتشاف مساحات مشتركة بين المذاهب الإسلامية في مختلف أبواب المعرفة، ويتبيّن لهم أنّ الخلاف فيما بين المذاهب الإسلامية في هذه المسائل لم يكن إلّا خلافاً لفظياً، وهم متفقون على جوهر هذه المسائل.

كما يؤدّي إلى التكامل والتلاحق العملي لدى الجميع.

وقد كانت هذه الطريقة مألوفة لدى العلماء، وطلبة العلوم من المذاهب الإسلامية المختلفة، في التردد على المدارس، والحوزات العلمية المختلفة لتلقي العلوم، رغم اختلاف المذاهب. وكان لهذا الترافد العلمي والثقافي أثر كبير في إثراء المعرفة والثقافة الإسلامية، وتكامل العلوم والمعارف لدى المسلمين.

المساحة السياسية مساحة واسعة... وهذه المساحة اليوم أصبحت مساحة لهواة السياسة والانتهازيين، واللاعبين الدوليين في السياسة، وإنّ للسياسة لاعبين يلعبون في هذه المساحة كما يلعب اللاعبون من هواة الشعبذة والمسرح. وقيسون العمل السياسي ويفهمونه وقيمونه بنفس المقاييس التي يفهم فيها الناس ألعاب التمثيل السينمائي... يكذبون ويكذّبون حتى يصدقهم الناس، ويستخدمون بيوت أموال المسلمين بسخاء لكسب آراء الناس، ويبطلون الحقائق، ويحققون الزيف والكذب والباطل، بأدوات الكذب والتضليل والتغريب.

وللأسف فإنّ المساحة السياسية في العالم اليوم تحكمها هذه العصابات، إلّا ما نذر وشدّ، ولا نطيل في هذا الحديث، وسوف يطول موقفنا بين يدي الله تعالى يوم السُّؤال الأكبر والمحاسبة الكبرى: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] تجاه هذه القضية.

فقد عرف الناس الظالمين، وسكتوا عنهم، وجاوروهم، وتعاونوا معهم، ولم

يجرّوا ساكناً، ولم يزعموهم بموقفٍ أو كلمة، وتركوهم يمرحون ويلعبون بمصالح هذه الأمة وقضاياها الكبرى، وينهبون ثرواتها، ويمكّنون أنظمة الاستكبار العالمي من بلاد المسلمين، إلّا القليل النادر، الذين نهضوا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجابهوهم بكلمة الحق، وكسروا كبرياءهم، وأذلوا غرورهم... وهؤلاء قلّة في هذه الأمة، ولكنها قلّة مباركة.

والسبيل الوحيد إلى طرد هذه العصابات السياسية الانتهازية من الساحة الإسلامية السياسية هو حضور جمهور المسلمين في هذه الساحة، حضوراً موحداً بالإيمان والوعي والعطاء.

إنّ حضور الجمهور في الساحة يغيّب هذه العصابات، ويسلب منهم الأضواء التي يتألّقون بها، وتكشفهم وتعريهم.

وهذا الحضور عبادة، بمستوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنّه يطرد حملة المنكر من الساحة، ويفتح المجال للمعروف والعاملين به.

وهذا الحضور عبادة، كما أنّ الصّلاة والصيام عبادة، وهو من مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ شريطة أن يكون هذا الحضور عن وعي وبصيرة، وليس حضوراً غوغائياً انفعالياً، وبشرط أن يحمل هذا الحضور خصلة المقاومة والعطاء، وليس حضوراً واهياً ضعيفاً انفعالياً، تفرّقه طلقات من الرصاص والغازات المسيلة للدموع.

وبشرط أن يكون هذا الحضور حضوراً وحدوياً تتجسد فيه وحدة الصّف. وتمّ الحوار فيه على أساس مصلحة الإسلام الكبرى، ويتعامل الجمهور في هذه الساحة من منطلق (الأمة الواحدة)، ويتفقون فيها على موقف واحد ورأي واحد.

إنّ مثل هذا الحضور واللقاء والحوار عندما يعمّ الساحة الإسلامية، ويتشعّر في العواصم والحوضر والمراكز الإسلامية، يكون له دورٌ كبيرٌ في توجيه قضاياها

السياسية. ولست أريد أن أشطّ في الخيال وأقول: إنّ حضور الناس في الساحة سوف يؤدّي إلى تغيير شامل لأوضاعنا السياسية الفاسدة في العالم الإسلامي، ولكنني أقول: إنّ هذا الحضور الواحد الشامل سوف يُعدّل كثيراً من قرارات الأنظمة السياسية الكبرى، مثل قرار (التطبيع)، وتبادل السلام بالأرض في فلسطين، والموقف من الاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان، والموقف من المسألة النووية الإيرانية، والموقف السلبي الذي اتخذته الأنظمة العربية من (حماس) في خلافها مع منظمة التحرير الفلسطينية؛ تبعاً للموقف الأمريكي - الأوروبي - الإسرائيلي، والموقف من التأييد الأمريكي لإسرائيل، والرفض الأمريكي للمقاومة الإسلامية في لبنان وفلسطين، وضرورة التفكيك بين (المقاومة) و (الإرهاب)، واحترام الأول وتبنيّه، ونبذ الثاني ورفضه.

إنّ مثل هذا اللقاء والحوار في الساحة الإسلامية العريضة من أهمّ ضرورات المرحلة؛ شريطة أن نحصّن هذا اللقاء والحوار من نفوذ الأنظمة واختراقاتها، فإنّ الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي تملك من وسائل اختراق الساحة ما يهدّد وحدة الساحة ووعيها، ويؤدي إلى تفريقها وتضليلها، وقد شاهدنا في حياتنا السياسية المعاصرة نماذج كثيرة من الاختراق والتضليل والتجهيل والتفريق.

ولكي يكون هذا اللقاء والحوار نافعين يجب أن يتوفّر فيهما الشروط التالية:

#### ١. تقديم مصلحة الإسلام العليا

فقد تتدافع الأطراف الإسلامية فيما بينها، ولا يصلون إلى قناعة مشتركة، عند ذلك يجب عليهم أن يقدّموا المصلحة الإسلامية العليا على كلّ مصلحة... وقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قدوة لكلّ المسلمين في ذلك. يقول

عليه السلام فيما جرى عليه بعد رسول الله ' في تقديم الغير عليه في أمر الولاية والخلافة، وتنحيته عن حقه في هذا الأمر: «فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَلَا يَخْطُرُ بِيَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحَّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْتِثَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايَعُونَهُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ يَدْعُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ دِينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَمًا أَوْ هَذِمًا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ قُوْتٍ وَلَا يَتَكُمُ» (١).

## ٢. حسن الظن في التعامل والحوار

إنَّ سوء الظنَّ إذا استولى على الناس في علاقة بعضهم ببعض أفسد اللقاء، وكانت نتائج اللقاء سلبية، وإنَّ سوء الظنَّ آفة كلِّ لقاء وحوار وعمل مشترك... وقد نهانا الله تعالى عن سوء الظنَّ في دائرة العلاقات التي تربط المسلمين بعضهم ببعض: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ

إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

إنَّ تعاطي سوء الظنَّ في العلاقة يفسدها ويلغيها.

## ٣. العقلانية في اللقاء والحوار

عندما نكون في منعطفٍ تاريخيٍّ حساس، كالمنعطف الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم.

وعندما تكون الأمة الإسلامية ناهضة، وتخوض صراعاً مريباً في مواجهة الأنظمة المرتبطة بعجلة الاستكبار العالمي، وأنظمة الاستكبار العالمي التي تقف خلف هذه الأنظمة.

وعندما تحشد أنظمة الاستكبار العالمي كل إمكاناتها لمواجهة التيار الإسلامي العظيم، الذي يعمُّ كلَّ العالم الإسلامي، وكان الموقف بيننا وبين الاستكبار العالمي موقفاً تاريخياً مصيرياً فاصلاً...

أقول: عند ذلك فإنّ من أفدح الأخطاء في ظروف صعبةٍ وعسيرةٍ مثل هذه الظروف، أن تغلب العاطفة والانفعال والشعار على مواقفنا السياسية، ولقاءاتنا، وخطابنا لجهاهيرنا، وحواراتنا المتبادلة داخل البيت الإسلامي الكبير. إنّ لغة العاطفة والانفعال والشعار، كما هو نافع في إثارة الهمم وإنهاض الجمهور، يمكن أن يتحوّل في بعض الحالات إلى ألغام سريعة الانفجار تحوّل الساحة إلى ساحات للسجال والجدال العقيم الضار. ونتمنى لو أنّ طرفاً أو جهةً أو شخصاً أراد أن يستخدم هذه اللغة في إثارة التشنُّج في صفوف المسلمين، ويعكّر صفو العلاقات الإسلامية داخل الصف الإسلامي... من أيّ مذهب، وأية طائفة، نتمنى أن يواجهه الآخرون بالعقلانية الإسلامية، والدعوة إلى ما يأمرنا به الله تعالى من الاعتصام بحبله ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾، والنهي عن التفرقة ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

#### ٤. الوعي السياسي

إنّ الحالة السياسية والإعلامية في العالم، والعلاقات السياسية والاقتصادية بين أنظمة الاستكبار العالمي، والأنظمة التابعة لها في العالم الإسلامي، والعلاقة بين السياسية والإعلام... حالاتٌ معقدة شديدة التعقيد، ويدخل في تكوينها عوامل غير مرئية كثيرة، وما يظهر على السطح من التصريحات والعلاقات لا يعبر عن كلّ شيء.

أذكر في المصاححة التي تمت بين نظامٍ عربي وإسرائيل بالوساطة الأمريكية، فتصافح زعيمان من الطرفين أمام أضواء الكاميرات في حضور الرئيس الأمريكي، فاجأ الرئيس الأمريكي المسؤول العربي بالسؤال التالي:

منذ كم كانت لك علاقة وارتباط ولقاءات مع المسؤولين في إسرائيل؟  
فقال المسؤول العربي الكبير مأخوذاً بهذه المفاجأة ممتعضاً من هذا الإحراج:  
منذ عشرين عاماً.

إنَّ هذا السؤال والجواب يكشف عن الاحتقار الأمريكي لجملة من زعماء الأنظمة العربية الذين تحميهام أمريكا نفسها، ويحمون مصالحها، كما تكشف عن عمق الفساد السياسي في طائفة من الأنظمة العربية.

منذ عشرين عاماً يتعامل مع إسرائيل، ويتعاطى معها، ويلتقي بقادتها في لندن وواشنطن... ولا يعرف الناس على سطح الإعلام السياسي إلا لغة الشجب والتهديد لإسرائيل!!..

إنَّ هذه الأنظمة السياسية، بين الواقع والتصريحات التي يقدمونها للإعلام، تشبه الكتل الثلجية العائمة على مياه البحار، تسعة أعشار منها غاطسة في الماء لا تُرى، وعُشُرُ منها فقط تظهر على سطح الماء.

إنَّ هذه الأنظمة بين واقعها الغاطس في مستنقع العلاقة بأنظمة الاستكبار العالمي، والشطر الظاهر المسموع والمرئي منها في الإعلام، تشبه هذه الكتل الثلجية... ومن أفذح الخطأ أن نتعامل مع هذه الأنظمة من خلال الإعلام المرئي والمسموع، ومن خلال الخطب والتصريحات السياسية التي يطلقوها بين حين وآخر.

إنَّ لقاءاتنا السياسية، وخطابنا السياسي، يجب أن يمتلك خلفية غنية من الوعي السياسي، والإحاطة بالظروف السياسية المعقدة، والمعرفة بالخلفيات السياسية التي تقع خلف المواقف والقرارات والتصريحات السياسية.

ومن دون هذا الوعي السياسي سوف يقع جمهورنا وساحتنا في تحبُّط سياسي واسع... ونحن قد تحدثنا عن ضرورة الوعي السياسي وأهميته الكبيرة في هذه المرحلة... وعلى علماء المسلمين، وخطبائهم، ومثقفهم، والحركات الإسلامية، إشاعة الوعي السياسي ونشره في الأوساط الإسلامية الشعبية.

##### ٥. الحوار بالتي هي أحسن

قد ينقلب الحوار إلى جدال عقيم، بل ينقلب إلى عائق يعيق حركة الأمة،

وحجاب يحجب المسلمين بعضهم عن بعض، وقد يكون الحوار جسراً للتفاهم والتعاون والتلاقي في المساحات المشتركة السياسية والثقافية والاقتصادية لهذه الأمة؛ وذلك عندما يكون الحوار بالأسلوب الذي علّمنا الله تعالى به: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. ويقول تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣].

ولا سبيل لدفع (نزغ الشيطان) في العلاقة بين أطراف هذه الأمة إلا أن يخاطب بعضنا بعضاً بأحسن ما نستطيع عليه من القول.

#### ٦. تحصين اللقاء والحوار

إنّ علينا أن نحصّن هذه اللقاءات والحوارات الإسلامية من نفوذ الأنظمة التي تقع تحت سلطان أنظمة الاستكبار العالمي واختراقها، فإنّ هذه الأنظمة تملك من وسائل الإعلام والاستخبار ما يمكنها من اختراق هذه اللقاءات والحوارات، وإحباطها وإفسادها... ولكي نتمكن من تفعيل هذه اللقاءات واستثمارها يجب علينا أن نحصّن هذه اللقاءات من نفوذ هذه الأنظمة واختراقاتها.

٨

كان أهل البيت <sup>٨</sup> يوجهون شيعتهم وأتباعهم دائماً إلى اللقاء والاجتماع بأهل السنة، والحضور معهم في جوامعهم، واجتماعاتهم، ومجالسهم، وندواتهم، وينهونهم عن الابتعاد عنهم، ويؤكدون لهم بضرورة التواجد في الساحة الإسلامية العام، وحضور الجمعيات والجماعات، وتوحيد المواقف في الحج.

وقد تصدّى بعض المنحرفين عن أهل البيت <sup>٨</sup> للدسّ في أحاديثهم؛ لعزلهم وعزل شيعتهم عن الوسط الإسلامي الكبير... وكانت هذه الأحاديث على أنحاء، منها أحاديث الغلو، ومنها أحاديث التحريف، ومنها أحاديث فيها



تخليط في الفقه، ومنها أحاديث فيها انتقاص وتسقيط لأهل البيت <sup>٨</sup>، ومنها أحاديث في الطعن واللعن على خصومهم.

وكانوا يعملون لإشاعة هذه الأحاديث عنهم <sup>٨</sup>، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المعنى: «إنا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس» <sup>(١)</sup>.

وعنه عليه السلام أيضاً: «إنَّ المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا <sup>(٢)</sup>».

وروي عن يونس عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: «إنَّ أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله عليه السلام لعن الله أبا الخطاب! وكذلك أصحاب أبي الخطاب يدسون هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي عبد الله عليه السلام، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن» <sup>(٣)</sup>.

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث إلى ابن أبي محمود: «يا ابن أبي محمود إنَّ مخالفتنا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام أحدها الغلو وثانيها التقصير في أمرنا وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا فإذا سمع الناس الغلو فينا كفرّوا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسائهم ثلبونا بأسائنا» <sup>(٤)</sup>.

وقد كان أئمة أهل البيت <sup>٨</sup> يعملون لكسر هذا الطوق عنهم وعن شيعتهم بتكذيب هذه الأحاديث، وفضح الوضاعين الذين كانوا يضعون عليهم من الحديث ما لم يتحدثوا به، والتأكيد على رفض كلّ حديث يروى عنهم يخالف القرآن.

وكانوا يطلبون من فقهاء شيعتهم ورواة أحاديثهم أن يتحروا الأحاديث الصادقة المروية عنهم <sup>٨</sup>، ويحذروا ما وضعه النواصب والمنحرفون عنهم،

وكانوا يضعون لهم الأصول والقواعد العلاجية لمعرفة الأحاديث الصادقة من الأحاديث المتعارضة، والأحاديث الضعيفة، وكانوا يدعون شيعتهم للتعايش مع سائر الطوائف الإسلامية، والانفتاح عليهم، والتعاطي العلمي والثقافي معهم، وحضور اجتماعاتهم وصلواتهم.

وكانوا لا يرضون لشيعتهم أن يعتزلوا الوسط الإسلامي العام، فهم جزء من هذه الأمة الكبيرة، واختلافهم عن أهل السنة في بعض الفروع والأصول، ومقاطعتهم للحكام الظلمة الذين كانوا يحكمون المسلمين في العصر الأموي والعباسي لم يكن يحمل معنى الاعتزال عن الساحة والانقطاع عنها.

وقد كان أئمة أهل البيت <sup>٨</sup> يعيشون معهم وفي أوساطهم، ويجتمع إليهم المسلمون من كافة المذاهب والاتجاهات، ويحضرون مجالسهم، ويأخذون منهم العلم، ولو أحصينا أهل العلم الذين أخذوا العلم عن الإمامين الباقر والصادق '، لوجدناهم أئمة كبيرة من أهل العلم، وكانت مجالسهم ومحاضرتهم عامرة بفقهاء المسلمين، وحملة الحديث النبوي، وأهل العلم من كل اتجاه ومن كل بلد... وهذه الحالة يعرفها جيداً من يعرف حديث أئمة أهل البيت <sup>٨</sup> وسيرتهم، وهي تعبّر عن حالة الانفتاح والتعايش المذهبي والإيجابي السليم لكل الاتجاهات والمذاهب الإسلامية. في الوقت الذي كان أهل البيت <sup>٨</sup> يرسمون ويوضحون لشيعتهم وللمسلمين عامة الخط الفكري الصحيح في الأصول والفروع بوضوح وصراحة وبشكل دقيق.

وفي أحاديث أهل البيت <sup>٨</sup> دعوة واضحة وصريحة إلى هذا الانفتاح مع المسلمين والتعايش الإيجابي، والتواصل، والتعاطف، والتعاون معهم، وإليك نماذج من أحاديثهم <sup>٨</sup> في هذا الشأن:

- روى الكليني بسند صحيح عن أبي أسامة زيد الشحام، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «أقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام

وَأَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْوَرَعِ فِي دِينِكُمْ وَالْاجْتِهَادِ لِلَّهِ وَصَدَقَ الْحَدِيثُ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَطُولُ الشُّجُودِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ فَبِهَذَا جَاءَ مُحَمَّدٌ ' أَدُّوا الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ اتَّيَمَّنْكُمْ عَلَيْهَا بَرًّا أَوْ فَاجِرًا فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ' كَانَ يَأْمُرُ بِأَدَاءِ الْخِيْطِ وَالْمَخِيْطِ صَلُّوا عَشَائِرَكُمْ وَاشْهَدُوا جَنَائِزَهُمْ وَعُودُوا مَرْضَاهُمْ وَأَدُّوا حُقُوقَهُمْ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا وَرَعَ فِي دِينِهِ وَصَدَقَ الْحَدِيثُ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ وَحَسَنَ خُلُقَهُ مَعَ النَّاسِ قِيلَ هَذَا جَعْفَرِيٌّ فَيَسْرُنِي ذَلِكَ وَيَدْخُلُ عَلَيَّ مِنْهُ السُّرُورُ وَقِيلَ هَذَا أَدَبُ جَعْفَرٍ وَإِذَا كَانَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيَّ بِلَاؤُهُ وَعَارُهُ وَقِيلَ هَذَا أَدَبُ جَعْفَرٍ فَوَ اللَّهُ لَحَدَّثَنِي أَبِي (عليه السلام) أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَكُونُ فِي الْقَبِيلَةِ مِنْ شِيعَةِ عَلِيِّ (عليه السلام) فَيَكُونُ زَيْنَهَا آدَاهُمْ لِلْأَمَانَةِ وَأَفْضَاهُمْ لِلْحَقُوقِ وَأَصْدَقَهُمْ لِلْحَدِيثِ إِلَيْهِ وَصَايَاهُمْ وَوَدَائِعُهُمْ تُسَالُّ الْعَشِيرَةُ عَنْهُ فَتَقُولُ مَنْ مِثْلُ فُلَانٍ إِنَّهُ لَأَدَانَا لِلْأَمَانَةِ وَأَصْدَقُنَا لِلْحَدِيثِ» (١).

- وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب، قال: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام): «كَيْفَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَصْنَعَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا وَفِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ خُلَطَائِنَا مِنَ النَّاسِ قَالَ فَقَالَ تُؤَدُّونَ الْأَمَانَةَ إِلَيْهِمْ وَتُقِيمُونَ الشَّهَادَةَ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ وَتَعُودُونَ مَرْضَاهُمْ وَتَشْهَدُونَ جَنَائِزَهُمْ» (٢).

- وعنه أيضاً: «قُلْتُ لَهُ كَيْفَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَصْنَعَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا وَبَيْنَ خُلَطَائِنَا مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ لَيْسُوا عَلَى أَمْرِنَا قَالَ تَنْظُرُونَ إِلَى أَيْمَتِكُمُ الَّذِينَ تَقْتُلُونَ بِهِمْ فَتَصْنَعُونَ مَا يَصْنَعُونَ فَوَ اللَّهُ إِنَّهُمْ لَيَعُودُونَ مَرْضَاهُمْ وَيَشْهَدُونَ جَنَائِزَهُمْ وَتُقِيمُونَ الشَّهَادَةَ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ وَيُؤَدُّونَ الْأَمَانَةَ إِلَيْهِمْ» (٣).

- وفي حديث آخر عن حبيب الخنعمي، قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِالْوَرَعِ وَالْاجْتِهَادِ وَاشْهَدُوا الْجَنَائِزَ وَعُودُوا الْمَرْضَى وَاحْضَرُوا مَعَ قَوْمِكُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَأَحْبُوا لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّونَ لَأَنْفُسِكُمْ أَمَا يَسْتَحْيِي الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَنْ يَعْرِفَ جَارُهُ حَقَّهُ وَلَا يَعْرِفَ حَقَّ جَارِهِ» (٤).

- وبسند صحيح عن مرآزم، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ لِلنَّاسِ وَإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ وَحُضُورِ الْجَنَائِزِ إِنَّهُ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنَ النَّاسِ إِنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَغْنِي عَنِ النَّاسِ حَيَاتُهُ وَالنَّاسُ لَا بُدَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ» (١).

\* \* \*

:

قرأنا فيما سبق أنَّ النقاط الثلاث التالية من أفضل المناهج لمكافحة الفتنة الطائفية... وهذه الثلاثة هي:

١. الوعي والخطاب.

٢. اللقاء والحوار.

٣. العمل المشترك.

وقد تحدثنا فيما مضى عن النقطة الأولى والثانية، وهنا نحن نتحدث إن شاء الله عن النقطة الثالثة، وهي العمل المشترك، سواء كان العمل في المجال العلمي والثقافي، أم في مساحة العمل السياسي، أم في المساحة الاقتصادية. والتجارب العديدة التي مارسها المسلمون في الآونة الأخيرة في المشاريع الاقتصادية والفقهية تؤكد هذا المعنى.

ونظراً للتحديات العظيمة التي يواجهها المسلمون اليوم لا بد من مواجهة هذه التحديات بالمشاريع الإسلامية السياسية، والاقتصادية، والثقافية، التي يشترك فيها عامة المسلمين من كل المذاهب والشرائح الإسلامية، فلم تعد الأعمال الفردية، والتي تقوم بها طائفة من المسلمين كافية لمقابلة هذه التحديات، فإنَّ التحديات التي تواجهنا في ساحتنا أكبر من أن نقابلها بمثل هذه المشاريع. إنَّ مشاريعنا السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية يجب أن تكون بحجم الأمة كلها، عندئذ تكون يد الله مع هذه المشاريع إنشاء الله تعالى.

وعندئذ تكون هذه المشاريع والأعمال قادرة على مقابلة التحديات القوية التي تواجهها في ساحة عملنا.

وسوف أتحدث عن واحدة من هذه التحديات التي تواجهها في حياتنا السياسية والثقافية، ولا يتأتى لنا مقاومتها وإحباطها إلا ضمن مشروع سياسي وثقافي كبير، وبتضامن إسلامي واسع على قدر سعة هذه الأمة.

أمامنا قضيتان متخالفتان ومتقاطعتان في ساحة حياتنا، ويجب علينا أن نتعامل معهما بالضرورة، وليس بوسعنا التشكيك في أيٍّ منهما، وليس بوسعنا الإعراض عن أيٍّ منهما أو عن كليهما ومقابلته باللامبالاة.

القضية الأولى: وحدة الأمة الإسلامية، وليس بوسع أحد أن يشك في هذه الحقيقة، وقد تلوت عليكم قريبا آيات تدلّ على ذلك.

وهذه حقيقة من حقائق الوحي، ووحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها، من غير شك ولا تردد، وإذا تعددت الولاءات والبراءات تتعدد الأمة، ولا تبقى الأمة واحدة، كما تخبرنا بها سورة الأنبياء والمؤمنون.

ولا يمكن فصل القيادة السياسية والنظام والقرار السياسي عن مسألة الولاء.

كما لا يمكن فصل التقاطعات والصراعات السياسية والعسكرية بين الأنظمة عن مسألة البراءة.

أقول: إنّ وحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها، فإنّ الولاء للقيادة السياسية الصالحة للأمة تأتي في امتداد الولاية لله ولرسوله ولأولي الأمر، يقول تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وجود ولائين أو أكثر من ذلك في عرض بعض ينافي وحدة الأمة.. فضلاً

عَمَّا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوَلَاءَاتُ مُتَعَارِضَةً فِيهَا بَيْنَهَا، كَمَا هُوَ حَاصِلٌ عَادَةً فِي الْأَنْظِمَةِ السِّيَاسِيَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْوَاقِعَةِ عَلَى خُطُوطٍ سِيَاسِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

أَمَّا الْوَلَاءَاتُ السِّيَاسِيَّةُ الطَّوِيلَةُ (الَّتِي يَعْذُّ بَعْضُهَا فِي امْتِدَادٍ بَعْضٌ) فَلَا تَنَافِي وَحِدَةَ الْأُمَّةِ مَهْمَا تَعَدَّدَتْ وَكَثُرَتْ.

إِذَنْ، لِهَذِهِ الْأُمَّةِ طَبَقًا لِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ:

- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

- ﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

قِيَادَةٌ وَاحِدَةٌ صَالِحَةٌ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَالَةُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتِي نَطْلُبُهَا فِي نِظَامِ الْحُكْمِ وَالْقِيَادَةِ السِّيَاسِيَّةِ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ. هَذِهِ هِيَ الْقَضِيَّةُ الْأُولَى (الشَّرْعِيَّةُ).

القَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: قِيَامُ أَنْظِمَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْحُكْمِ فِي طَوْلِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَعَرْضُهَا...

وهذه الأنظمة - في الأغلب - لا تمثل الحالة الشرعية؛ لأنها غير صالحة، وغير مؤتمنة على دين الناس ودنياهم، وغير منتخبة من قبل الناس، وإنما تُفرض على الناس بآليات عسكرية، أو عبر وسائل أنظمة الاستكبار العالمي... وهذه الأنظمة تفرض طاعتها والالتزام بقراراتها على الناس بالنار والحديد والعنف.. والتغريب والتجهيل الإعلامي.

ولا بدّ للناس من الالتزام بقرارات هذه الأنظمة: وهذا هو (الأمر الواقع) اللاشرعي.

وبين هذا (الأمر الواقع) و (الشرعية) تقاطع شديد، ولكلٌّ منهما ثقافة، وسياسة، وقوانين، وأنظمة، وآليات، وقوة تنفيذ.

هذه هي الحالة الجدلية القائمة بين (الشرعية) و (الأمر الواقع).

ما هو تكليف المسلم تجاه هاتين القضيتين (الشرعية المحظورة) و (الواقع

المفروض).

فلا يجوز الاستسلام للأمر الواقع المفروض، وإلغاء الحالة الشرعية، ولا يمكن تجاوز الأمر الواقع المفروض بالقوة من قبل الأنظمة... هذه هي الجدلية بين (ما لا يجوز) وما (لا يمكن)، وهي جدلية قديمة في التاريخ الإسلامي. فما هو موقف (الفقه الإسلامي) تجاه هذه الجدلية الصعبة؟

٨

إنَّ منهج أهل البيت <sup>٨</sup> الفقهي تجاه هذه الجدلية في الفترة الطويلة التي عاشوها في العصر الأموي والعباسي، تتلخص في ثلاث نقاط: النقطة الأولى: النهي عن إسناد هذه الأنظمة ودعمها، وتحريم (التعاون مع الظلمة)، فلا يجوز للمسلم أن يقوم بأي عمل فيه إسناد ودعم لهذه الأنظمة غير الصالحة بأي شكل، ولو كان ذلك بإعداد ليقة دواة للحاكم الظالم... وقد وردت روايات كثيرة عنهم <sup>٨</sup> في هذا المعنى (١).

النقطة الثانية: الأمر بمعايشة الواقع السياسي الاجتماعي؛ لأنَّ الانفصال عنه بمعنى الخروج من ساحة الحياة والانتحار السياسي والاقتصادي.

ولا مناص للمسلمين من أن يتنظم أمر معاشهم ومعادهم ضمن هذا الواقع، ولا مناص لهم من أن يعاشوا هذا الواقع؛ لتستقيم لهم أمور معاشهم ودينهم... حتى لو يتطلب الأمر أن ينضمَّ المؤمنون إلى مواقع المسؤولية من هذه الأنظمة الفاسدة، ولكن لا لغاية انعاشها ودعمها، وإنَّها لغاية تحقيق الضمان لمعيشة المؤمنين وخدمة الناس في معاشهم ومكاسبهم (٢).

فلا يستغني الناس عن المدارس والجامعات، وجهاز الشرطة، والمستشفيات، والمؤسسات الخدمية وغيرها، وكل هذه المؤسسات مؤسسات

قائمة ضمن هذه الأنظمة الفاسدة... لا حيلة للناس عنها، فيجوز الدخول في هذه المؤسسات لخدمة الناس، ويجوز الاستفادة من هذه المؤسسات، ومن دون ذلك تتعطل حياة الناس، والله تعالى لا يريد تعطيل حياة الناس.

وبين الأمر الأول (المحظور)، والأمر الثاني (السائغ) فرق واضح.

**النقطة الثالثة:** العمل على تحويل هذا الواقع الفاسد إلى نظام صالح، وقيادة صالحة، وقوانين وتشريعات صالحة.

وهذه النقطة الأخيرة تختلف من مجتمع إلى آخر، فقد يتم ذلك عن طريق ثورة مسلحة، وقد يكون ذلك عن طريق الترحيل الثقافي والتبليغي للناس، وقد يكون بالوسائل الديمقراطية الحديثة، التي تمكن الأكثرية الصالحة من الوصول إلى مواقع الحكم وتغيير الحكم إلى نظام صالح، وقيادة صالحة، بصورة سليمة، أو غير ذلك من الوسائل والآليات<sup>(١)</sup>.

وهذه ثلاثة مشاريع عمل إسلامية سياسية، تتطلب مشاركة عامة من المسلمين، من كل المذاهب والفرق والشعوب الإسلامية التي تعاني من سلطة الحكومات الظالمة:

١. مقاطعة الأنظمة الفاسدة، وتحريم دعمها وإسنادها، ووجوب عزل هذه الأنظمة عن الأمة والتشهير بها وإسقاطها.
٢. المشاركة الإيجابية في كل مسالك الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنفوذ إلى مواقع مختلفة من الحكم بهذه الذهنية، ولهذه الغاية.

٣. مشاريع أسلمة الأنظمة، وإقامة الدولة الإسلامية، على أسس شرعية، وترحيل الحالة السياسية إلى قيام حكومة عالمية إسلامية صالحة، كما وعدنا الله تعالى في كتابه... وهذا المشروع يختلف من بلد إلى بلد، ومن حالة سياسية إلى حالة أخرى، ولا يخضع لوصفة سياسية أو حركية



واحدة.

\* \* \*

الأنظمة في العالم الإسلامي - في الغالب - غير صالحة، ولا يمكن الاعتماد عليها في تقرير الموقف الإسلامي من القضايا السياسية الكبرى في العالم الإسلامي.. ومن الواضح أنَّ المواقف الرسمية للأنظمة تجاه القضايا الكبرى تبقى خاضعة لتأثير الدول الكبرى، وليس بوسع هذه الأنظمة أن تتجاوز الخطوط الحمراء التي ترسمها دول الاستكبار العالمي.

نعم، هناك مساحات صفراء يتحرك عليها هؤلاء الحكام.. وقد تكون هذه الحركة مخالفة لقرارات الدول الكبرى.

أمَّا الخطوط الحمراء، فليس بوسع هذه الأنظمة تجاوزها، مهما كان الثمن الذي تدفعه هذه الأنظمة، مثل النفط، فليس بوسع هذه الأنظمة أن تستخدم النفط في قضايا الأمة السياسية، والعكس حاصلٌ فعلاً، فإنَّ الدول الكبرى، ومجلس الأمن يستخدمان العامل الاقتصادي سلاحاً قاطعاً في قراراتها السياسية، وفي عقوبة الأنظمة التي تتجاوز الخطوط الحمراء، فيما يتعلق بأنظمة الاستكبار العالمي.

ومهما يكن السبب، فإنَّ الساحة الإسلامية الواسعة، لا تمتلك اليوم مقومات القرار، والموقف السياسي الراشد الإسلامي، إلا ما يصدر بصورة عفوية من مواقف وقرارات، يتبناه جمهور المسلمين في مختلف أقاليم العالم الإسلامي، كما رأينا ذلك في التعاطف الشديد لمواقف المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان (حزب الله)، من جانب جماهير المسلمين في كلِّ أقاليم العالم الإسلامي، وفي المهاجر الغربية.

ورغم أنَّ الأنظمة العربية - في الغالب - كانت ممتعة من انتصار المقاومة،

وما سجلته من انتصارات باهرة خلال ٣٣ يوماً، إلا أن تيار التضامن والتعاطف الإسلامي مع حزب الله كان أقوى من أن تعاكسها الأنظمة، وأدواتها الإعلامية المسخرة لخدمة مواقفها السياسية... ولكن هذه الأنظمة تمكنت أخيراً من إبراز كراهيتها لانتصار حزب الله، في الاصطفاف الواسع الذي قامت به إلى جانب المعارضين في لبنان لخطّ المقاومة، وكان اصطفاؤهم هذا لأجل إفشال مشروع حكومة الوحدة الوطنية التي دعت إليها المعارضة.. وفي مقدمتها حزب الله؛ ولولا التصرف العقلاني لحزب الله في هذا الموقف المعارض لاستئثار الأقلية بالحكم في لبنان، لكانت العاقبة حرباً أهلية واسعة في لبنان، إلا أن حزب الله أثر ممارسة الاعتراض بصورة سليمة، حتى عندما كانت الحكومة تقابل المعارضة بالعنف.. وكفى الله للبنانيين القتال.

ومهما يكن من أمر، فلا بدّ للساحة الإسلامية الكبرى من أدوات نابعة من إرادة الأمة، ومن عمق الساحة؛ لتنضج القرار السياسي الذي يهم الأمة - كلها -، ولتوحيد الرأي، والموقف السياسي في القضايا الكبرى، وتعميمها على كلّ الساحة الإسلامية، وتحشيد الرأي العام الإسلامي لإسناده، والوقوف إلى جانبه، وتفعيله في الساحة من خلال المسيرات، والاحتجاجات، والهاثفات، والإعلاميات، والآليات المشاعة التي يمتلكها الشارع للتعبير عن موقفه ورأيه واعتراضه واحتجاجه وحبّه وبغضه.

ومن خلال وجود مشروع سياسي - مثل هذا المشروع - ينضج الرأي السياسي الراشد الناضج الموحد، تبقى الساحة معرضة لأمواج الفتن السياسية، وضغوط وسائل الإعلام الرسمية التي تجعل من الحقّ باطلاً ومن الباطل حقاً، وتقرّب البعيد، وتبعدّ القريب.

وتبقى الساحة الإسلامية تتخبط بين اختلاف الآراء والمواقف والفتن والضغوط الإعلامية.

ولكي تسلم الساحة الإسلامية الكبرى من هذا التخبط، لا بد من مشروع سياسي إسلامي كبير، خارج حوزة نفوذ هذه الأنظمة، تمارس هذه المسؤولية في تنضيج القرار، والموقف الإسلامي، توحيده، وتعميقه، وتفعيله في الساحة. ولا بد أن يمثل هذا المشروع السياسي كل الشرائح والمذاهب والأقاليم الإسلامية تمثيلاً صادقاً حقيقياً؛ ليكون لرأي هذا التجمع الإسلامي النفوذ والتأثير الفعلي على كُُلِّ الساحة الإسلامية.

ويكون هذا التجمع مركزاً لتنضيج القرار الإسلامي الراشد الذي تتبناه الساحة الإسلامية كلها، في المسائل الأم الكبرى في العالم الإسلامي، مثل قضية القدس والمسجد الأقصى، والقضية الفلسطينية، والاحتلال الإسرائيلي لأجزاء واسعة من أراضي الوطن الإسلامي من سوريا ومصر والأردن ولبنان؛ ومثل المشكلة الصومالية، وتدخل القوى المتعددة الجنسيات في دارفور؛ والمشروع الإيراني النووي السلمي؛ والاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق؛ والموقف الأمريكي المعادي للقضية الفلسطينية، والداعم لإسرائيل؛ والموقف البريطاني، بل الاتحاد الأوروبي من دعم المرتد سلمان رشدي؛ والموقف الروسي المتعنت من الولايات الإسلامية كالشيشان، وقضية الصحراء المغربية، واضطهاد الأنظمة في العالم الإسلامي لأبناء الحركة الإسلامية...

وقد يتساءل أحدٌ عن الصيغة العملية لهذا المشروع السياسي. فأقول: إنني لست بصدد عرض صيغة محددة لهذا المشروع السياسي، يمكن أن يكون على هيئة مؤتمر دوري لأهل الحل والعقد من المسلمين، ويمكن أن يكون بصيغة أخرى.. وأياً ما تكون الصيغة العملية لهذا المشروع، فهو مركز سياسي يمثل الأمة الإسلامية بعرضها العريض، في تنضيج القرارات، والتوصيات السياسية، والاقتصادية، والثقافية، وغيرها، وبلورتها وتقديمها، في الأمور التي تهم الأمة، ويكون هذا المركز في مقابل مراكز القرار الرسمية للأنظمة، يعبر عن

إرادة الناس وانتباههم، وهويتهم الإسلامية... وهو أمرٌ قائمٌ فعلاً في بعض الحدود، ولكن يحتاج إلى تثبيت، وتطوير، وتوسعة، وتعديل، وتقنين، وتبني من قبل المسلمين.

وقد يثير أحدٌ حول هذا المشروع التساؤلات التالية:

١. أين يمكن إقامة هذا المشروع السياسي المستقل عن الإرادة الأمريكية - والدول الغربية، وأمريكا تقول اليوم للسحاب: أينما تذهبين فإنك تمطرين في مساحة نفوذي وسلطاني.
  ٢. ما جدوى رأي هذا المركز السياسي إذا كان لا يملك آلية التنفيذ في مقابل قرارات الأنظمة التي ينفذها أصحابها بالإرهاب والإعلام.
  ٣. كيف يمكن عزل رأي هذا المركز أو توصياته عن تأثير ونفوذ الأنظمة ودول الاستكبار العالمي في هذه الدنيا المتشابكة المتداخلة.
- والجواب عن السؤال الأول:
- إنَّ أرض الله واسعة، ونحن لدينا مناقشات جوهرية في صدقية النفوذ الأمريكي الكوني المطلق، ليس هنا مجال بسط الكلام فيها.
- وعن السؤال الثاني:
- إنَّ رأي هذا المشروع وتوصياته يكون مدعوماً بالرأي العام الإسلامي، وسوف يكون له دور واضح في تعديل القرارات السياسية للأنظمة إن لم تكن قادرة على إلغائها.
- وعن السؤال الثالث:

لا ننفي إمكانية نفوذ الأنظمة ومن ورائها قوى الاستكبار العالمي إلى صلب هذا المركز وآرائه وتوصياته، ولكنّه على كلّ حال إمكانية محدودة وليست

مطلقة، ولا يمكن أن يحقق أي مشروع سياسي في هذه الدنيا المتداخلة المتشابكة غايته بصورة مطلقة.

وبعد فإننا نرى أن أمثال هذه المشاريع طموحات سياسية واقعية، يمكن أن نسعى إليها، وليست ضرباً من أحلام اليقظة في واقعنا السياسي المعاش.

\* \* \*

### الهوامش:

- (١) التيسابوري، مسلم، صحيح مسلم ٧: ١٢١، نشر دار الفكر، بيروت.
- (٢) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ٥: ١٩، كتاب المغازي، باب: قصة عزوة بدر، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، مصورة عن طبعة دار الطباعة العامة باستانبول. صحيح مسلم ١: ٦٧، مرجع سابق.
- (٣) صحيح البخاري ٥: ١١١، كتاب المغازي، باب: غزوة ذي الخلصة، مصدر سابق.
- (٤) الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا ١: ٧٠، تصحيح وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي، نشر: مؤسسة الأعلمي، ط ١: ١٤٠٤، بيروت.
- (٥) الإمام ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ١: ١١، دار صادر، بيروت.
- (٦) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٦٣٦، كتاب الإيمان والكفر، باب: باب أن الإسلام يحق به الدم، الحديث: (١)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (٧) المصدر نفسه ٢: ٢٥، باب: إن الإيمان يشرك الإسلام، الحديث: (١)، مرجع سابق.
- (٨) مسند أحمد ٣: ٤٧٢، مرجع سابق.
- (٩) أبو جعفر البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن ١: ٢٨٤، نشر: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ.
- (١٠) الكافي ٧: ٢٧٢، مرجع سابق.
- (١١) الحرقات: بضم المهملة والراء وقاف بعدها، من جهينة: هم بنو حميس بن عمرو بن ثعلبة بن مودوعة بن جهينة، كما في جمهرة اللغة.

- (١٢) صحيح مسلم ١: ٦٧، مرجع سابق.
- (١٣) الكافي ١: ٤٠٣، باب: ما أمر به النبي ' بالنصيحة لأئمة المسلمين واللزوم لجماعتهم، الحديث: (١)، مرجع سابق.
- (١٤) مسند أحمد ٥: ٣٧٠، مرجع سابق.
- (١٥) المتقي الهندي، علاء الدين علي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١: ٢٠٥، الحديث: (١٠٢٥)، ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا، نشر: مؤسسة الرسالة ١٤٠٩، بيروت.
- (١٦) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١٤٧، تحقيق: عزيز الله عطاردي، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، قم المقدسة.
- (١٧) المحدث النوري، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل ٦: ٤٥٠، نشر: مؤسسة آل البيت <sup>٨</sup>، الطبعة الأولى، بيروت.
- (١٨) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام ٣: ٢٥، نشر: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ طهران.
- (١٩) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة ٧: ٢٩٧، كتاب صلاة الصلاة، الباب: (١) من أبواب صلاة الجمعة، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت <sup>٩</sup>، الطبعة الأولى ١٤١٢، قم.
- (٢٠) الكافي ٣: ٣٨٠، مرجع سابق.
- (٢١) وسائل الشيعة ٨: ٢٩٩، مرجع سابق.
- (٢٢) تهذيب الأحكام ٣: ٥٥، مرجع سابق.
- (٢٣) المصدر نفسه: ٢٧٧.
- (٢٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣٨٩، تحقيق: عزيز الله عطاردي، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، قم المقدسة.
- (٢٥) الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال: ٣٠٥، تصحيح: د. حسن المصطفوي، نشر: مؤسسة النشر في جامعة مشهد، مشهد المقدسة.
- (٢٦) المصدر نفسه: ٢٢٤.
- (٢٧) المصدر نفسه.
- (٢٨) الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا ٢: ٢٧٢، تصحيح وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي، نشر: مؤسسة الأعلمي، ط ١: ١٤٠٤، بيروت.
- (٢٩) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٦٣٦، كتاب العشرة، باب: ما يجب من المعاشرة،

الحديث: (٥)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.

(٣٠) المصدر نفسه: الحديث: (٢).

(٣١) المصدر نفسه: الحديث: (٤).

(٣٢) المصدر نفسه: الحديث: (٣).

(٣٣) المصدر نفسه: الحديث: (١).

(٣٤) راجع: أبواب حرمة التعاون مع الظلمة في مباحث المكاسب المحرمة وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من وسائل الشيعة، وسائر كتب الحديث.

(٣٥) راجع الروايات الواردة في مستثنيات التعاون مع الظلمة وأبواب التقية.

(٣٦) راجع روايات باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأبواب الجهاد.

## الأمة الإسلامية ما بين التحدي والتصدي

□ الدكتور: أحمد عبد المجيد محمود (\*)

تقديم

منذ أن خلق الله البشر والتحدّي قائم بين العلم والجهل، والخير والشرّ، والحقّ والباطل، والإيمان والكفر، والحرية والعبودية. إنّ أول تحدّي لله عزّ وجلّ جاء من قبل إبليس الذي استكبر، فامتنع عن طاعة الله والسجود لآدم ×، وعمل على إغواء خلقه، { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [ص: ٨٢ - ٨٣]؛ ليُفسد عليهم عيشتهم أو اعتقادهم، وليخرجهم من النور إلى الظلمات، ومن عبادة الرحمن إلى عبادة الشيطان.

ومن هنا، ابتدأت حركة التحدي بين رسل الله عزّ وجلّ وبين الطغاة والظالمين، الذين كفروا بعبادة الله، وأفسدوا البلاد، وأذلّوا العباد، فوقف رسل الله (صلوات الله عليهم) في مواجهة هذا التحدي، فكانت مواقفهم تختلف باختلاف الواقع الذي كانوا يعيشون فيه، والظروف التي كانت تحيط بهم.

(\*) باحث إسلامي/ أستراليا، عضو في اللجنة العامة لمجمع آل البيت <sup>٨</sup>.



إن سياسة الطغاة والجبارين تأبى أن تنصاع للحق، أو تخضع لعبادة الله الواحد القهار، تكبراً وخيلاء؛ لاعتمادهم على قواهم العسكرية والاقتصادية والاستعمارية، ولاعتقادهم بأنهم القوى التي لا تُقهر ولا تُهزم.

إن مسألة الطغاة والظالمين والجبارين عند الله عز وجل مسألة محسومة بنهاية محتومة. فانظروا إلى ما يقصّه الله علينا من خبر فرعون وجنوده، الذي تعاضم فلم يخضع للحق، وترفع عنه ولم يقبله عناداً: {وَأَسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ} (٣١) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ { [القصص]، {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [القصص: ٥٩]. فلا بقاء لحاكم ظالم جائر، ولا بقاء لأمة ظالمة جائرة، إنها سنة الله في خلقه. لكن ذلك يلزمه العدة والاستعداد من قبل المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات. فما عند الله لا يؤخذ بالتمني. إن العدة والاستعداد هما من أكبر عوامل العزة والنصر للأمة، فمن خلأهما تستطيع الأمة أن تتعامل مع التحديات، سواء أكانت على الصعيد الداخلي أم الخارجي.

فعلى الصعيد الداخلي، لقد استطاع رسول الله ' أن يؤلف بين قبائل متناحرة قد طحنتها الحروب، ومزقتها العصبية، ويجعل منها قوة مؤمنة، ووحدة متراصة، ودولة إسلامية ذات قوة عسكرية، بالرغم من مؤامرات الحركات الداخلية المناهضة لرسول الله ' وللإسلام، والقوى المعارضة التي كانت تتحرك لزعة هذه الدولة، وإثارة النزعات القبلية، فهذا يجب أن تُدرس حياة الرسول محمد ' دراسة علمية من جميع جوانبها السياسية والدينية؛ لأن رأس الدين السياسة، بل ديننا سياسة، وسياستنا دين. وهذه

ظاهرة لم تلتفت إليها الأمة الإسلامية منذ أمد بعيد، لا على صعيد الفرد، ولا على صعيد المجتمع. وهل خلافة الله في الأرض التي كرم الله بها بني آدم إلا لإدارة شؤونهم سياسياً واقتصادياً وعسكرياً؟!

إنّ الأمة الإسلامية اليوم تواجه التحديّ على الصعيدين: الداخليّ والخارجيّ. والواقع أنّ التحديّ الداخليّ لأشدّ خطراً من التحديّ الخارجيّ؛ لأنّ المسلمين اليوم يفتقرون افتقاراً عظيماً لفهم الإسلام، فلو فهمت الأمة الإسلامية دينها، ووعت إسلامها، لما آل الأمر إلى ما نحن عليه، ولما كان للتطرف أثر، ولا للتعصب خبر، ولا سعت إلى الفرقة قدم.

وهذا، كما ترى، لقد جزأ الإسلام، وقطّع وسلب، وأسر ونهب، فتجزأت الأمة، وتقطّعت أوصالها، وذهب ريحها، وسلبت نعمة أخوتها، هذه الأخوة التي هي عنوان قوتها.

لقد خاطب الله النبيّ موسى عليه السلام فقال: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا} <sup>١</sup> إِنَّمَا أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ الْغٰلِبُونَ { [القصص: ٣٥].

ومما تحسّن الإشارة إليه هنا: ألم يسترّع انتباهك أنّنا أصبحنا (لا أحرار صدق عند النداء، ولا إخوان ثقة عند النجاء) <sup>(١)</sup>، ولفت نظرك أنّ حدود الله قد عطّلت، وأنّ الأمة عن بعضها البعض قد فصلت، وهجر القرآن، هذا القرآن الذي لا تفنى عجائبه. لقد أصبحت حصوننا مهدّدة من الداخل، حتى بات المسلم وأصبح لا يقترن بدينه، بل بمذهبه، ونسي أنّه ابن الإسلام.

لقد كانت الأوس أوساً، وكانت الخزرج خزرجاً، وكانت الأنصار أنصاراً، وكان المهاجرون مهاجرين، فوحدهم الإسلام، وأصبحوا جميعاً أمةً واحدةً تحت قيادة واحدة، ألا وهي قيادة رسول الله محمد '، ورسول الله ' إمامنا حيّاً وميتاً، فعلام لا تجتمع الأمة تحت قيادته وتحت راية الإسلام؟

ألم يدأب رسول الله ' نفسه في تبليغ رسالة الإسلام، وأتعبها بالدعاء إلى هذه الأمة، وشغلها بالنصح لأهل هذه الدعوة، وهاجر إلى بلاد الغرب حتى ظهر أمر الله وعَلَّت كلمته ولو كره المشركون؟ فما عدا ممّا بدا؟!

إنّ من أشدّ ابتلاءات الأمة الإسلامية اليوم وتحدياتها: الجهل، والجهل يؤدّي إلى التعصّب، والتعصّب يؤدّي إلى التناحر والجمود والتخلّف الفكري والتفرقة.

ومن التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية من الداخل: الأميّة، والفقر، وضعف التخطيط والتنسيق، وعدم نظم أمورها، وهذه آفة من أكبر الآفات التي تواجه المسلمين، حيث يتفرّق المسلمون في بلاد الغرب والهجرة، ليصبح الإسلام نفسه هو الضحيّة.

إنّ أجيالنا في البلاد الإسلامية وفي البلاد الغربيّة بحاجةٍ إلى التوعية بثقافة الإسلام، وإلى الانفتاح، وإلى حركاتٍ تجديديةٍ وإبداعيةٍ وثقافيةٍ تتلاءم مع تحديات العصر.

إنّ التركيز على النماذج المشرقة والمضيئة في تاريخ الإسلام، ولا سيّما في حياة الرسول محمد ' وآله الأطهار <sup>٨</sup>، وأصحابه الأخيار، الذين ضربوا أروع الأمثلة في المحبة والإخاء، والسماح والأخلاق، يجب أن تبرز هذه النماذج في ثقافتنا حتى تكون القدوة الصالحة للأجيال، في وحدتها وتماسكها، بعيدةً عن التنازع؛ لأنّه إذا تنازعت الأمة واختلفت في شرع الله، وقعت في الفتنة والانحدار والانحدار.

فعلام الاختلاف وهذه وصيّة الله تعالى للأمة الإسلامية: أن تلتزم بالإسلام الذي هو صراط الله المستقيم الذي أمر باتّباعه؛ لأنّه هو أساس حياتها ومنعتها

وقوتها وعزتها وحصانتها وشخصيتها، وجمع كلمتها، قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

الله الله! وصية وأي وصية؟ إنها الحياة كلها، بل كل الحياة فيها، والمجد والسؤدد والغلبة والحق.

إذا اتبعت الأمة الإسلام اتقت، وإذا اتقت نجت؛ أما إذا لم تنفذ وصية ربها فستتبع سبلاً غير صراط الله المستقيم، وإذا كان كذلك، تفرقت أعضاؤها، وتمزقت أوصالها، وتداعى جسدها.

إن سبب وهن الأمة وضعفها وتفرقها وتمزقها هو عدم تنفيذ وصية الله تعالى والعمل بها، واتباعها سبلاً وأيديولوجيات وسياسات ونظريات وفلسفات وأطروحات واهية، وآمالاً خداعة لماعة، قد انحرفت عن سبيل الله..  
يا أمة الإسلام...

لقد طغى السيل حتى غاصت الركبُ

فيم التعلل بالآمال تخدعكم

وأنتم بين راحات القنا سُلُبُ

وهكذا يتضح بما لا مجال معه للشك: أن لا حياة لهذه الأمة إلا بالإسلام. فكم من سفن ركبت؟ وكم من بحارٍ ولجت؟ فماذا جنت؟ وماذا كسبت؟ وإلى أية نتيجة وصلت؟ فهذا حالها ينطق عن أخبارها.

إذاً، فلا بد من إحياء دين الله في الأمة، ولا بد من بعثه في نفوسها، وإلا، ستبقى الأمة تتخبط في دياجير الظلم، وستبقى المحن تتابع عليها كتتابع قطع الليل المظلم، كلما قامت لتمشي تعثرت.

إن الأمة بحاجة إلى ثقافة الإسلام، وإلى مكارم أخلاق الإسلام، والأمانة تقع هنا على الذين اختارهم الله لحمل أمانته ودعوته من أهل العلم وأهل الورع

والتقى، من القائمين على إدارة شؤون هذه الأمة سياسياً واقتصادياً ودينياً، وكذلك أيضاً أهل الاختصاص في كل فن من فنون العلم والمعرفة؛ ليُخرجوا هذه الأمة من بحرها اللجّي، الذي تغشاه ظلمات من فوقه ظلمات، إلى نور ربّها حتى تُشرق شمسها من جديد، وليس ذلك عليها ببعيد إذا أخلصت النية لربّها. وتعالّ معي لنرى الإمام الخميني رضوان الله عليه، الذي أعاد لنا سيرة جدّه المصطفى '، وأبيه علي المرتضى X، لقد أخلص مع الله، فأخلص الله معه، فذكّ عروش الظالمين، وهزّ أركان المستكبرين، وجاء بدولة إسلامية، {يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ { [يونس]. إن هذه الدولة الإسلامية لا تزال تواجه التحدي منذ ولادتها، وكلما قويت شوكتها كبرت تحدياتها.

إنّ التحدي للأمة يجب أن يكون بمثابة نعمة لا نقمة، فلعلّه يكون حافزاً ليقظتها، وطريقاً لوحدها، وسبيلاً للإبداع والاختراعات والاكتشافات ورصّ الصفوف والصبر على المكاره.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الحقيقة التي لا يمكن الجدل فيها أنّ التحدي للمسلم قائم من قبل النفس الأمّارة بالسوء والهوى، والجنة والناس، وإبليس وجنوده، في حياته، وعند سكرات موته، وفي لحده، حتى يوم بعثه.

كذلك التحدي لهذه الأمة سيبقى دائماً بدوام بقائها. ومن الخطأ أن يُظنّ أنّها ستعيش بدون تحدّ. وهذا إن دلّ على شيء فإنّها يدلّ على عظمة الإسلام، وأنّه لا خلاص لهذه الأمة إلّا بالإسلام، ولا خلاص للعالم مهما كانت التحديات، ومهما كانت الولاءات، إلّا باتّباع {النَّبِيِّ الْأُمَمِيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ} [الأعراف: ١٥٧].

وهذا يتطلّب من الأمة الإعداد النفسي والتربوي والعلمي والخبرة والكفاءة

والمهارة والجرأة والشجاعة والعزيمة الصادقة والإخلاص والتضحية والتفاني في سبيل المبدأ والعزة والكرامة، وهذا لا يكون بالأمانى والتعليلات، وإنما بالبطولة ومضاء العزيمة وقوة الإرادة، وفوق ذلك كله: الإخلاص بالعمل لله، والثقة والورع، فإذا كان كذلك، فلا حاجة عندئذٍ للحديث عن التحدي الخارجي { سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونِ الدُّبُرَ } [القمر: ٤٥].

\* \* \*

الهوامش:

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢: ٣٠٣.

## دور ثقافة الحوار في نبذ الطائفية

□ د. لاله افتخاري (\*)

المقدمة

لعبت مسألة الأديان والمذاهب على مرّ التاريخ دوراً محورياً وحاسماً في بناء المجتمعات البشرية وتكاملها، وتعود جذور رغبة الإنسان وميله لعبادة الخالق إلى حقيقة الفطرة المتأصلة في طبيعة هذا الكائن، ممّا جعلت منه أهلاً لنعمة الهداية التي أنعمها تعالى على بني آدم من خلال التشريعات السماوية التي تقدّم للإنسان كافة مقوّمات الحياة السامية والمثالية.

ولذلك، فقد تواصلت حلقات النبوة بمرور الزمان، وجاءت الرسل تترى، في تناسقٍ منسجم مع نضج البشرية وتكاملها، إلى أن بعث الله سبحانه نبيّه المصطفى ' خاتماً للنبيين، وشرّع تعالى شأنه دين الإسلام كعصارة لمجموع ما سبقته من الأديان والشرائع.

لقد واجهت معظم الأديان والشرائع السماوية تحديات كبيرة طوال فترات تاريخها؛ إذ نشأ في إطار كلّ واحد منها فرق ومذاهب مختلفة، فتنوّعت الملل والنحل بتنوّع الأديان والشرائع، وظهرت حالة من التعددية الدينية والمذهبية.

(\*) نائبة في مجلس الشوري الإسلاميّ الإيراني.

ويشير المفهوم المعرفي للتعددية في المجالين الديني والمذهبي إلى أنَّ الأديان والمذاهب رغم تنوعها فإنَّها ترشد أتباعها إلى هدف واحد، وتسلك اتِّجاهاتٍ مختلفة عن بعضها للوصول إلى غاية واحدة.

وبطبيعة الحال، فلا تخلو هذه التعددية عن مساحاتٍ مشتركة وفواصل مفرقة في الوقت نفسه، بين القراءات المتعددة، والاجتهادات المتنوعة في إطار الدين الواحد، أو ما يصطلح عليه بـ«المذهبية».

فأمَّا القواسم المشتركة ونقاط الوفاق، فإنَّ التركيز عليها يؤدي إلى التقريب بين تلك المذاهب، وبالتالي: تحقيق الوحدة، وفي المقابل، فإنَّ التأكيد على أوجه الاختلاف ينتج التباعد والتنافر، ومن ثَمَّ الفرقة والتناحر.

وهنا يأتي دور الأمة الإسلامية لتحسم موقفها وتختار ما تختاره من هذين المسارين المتقابلين، وتتجهج الأسلوب الذي يسير بها في أحد الاتجاهين، فإن اختارت منهج التطرف والتعصب الأعمى والطائفية البغيضة، تفرقت كلمتها، وتشتت صفها، وانهارت قواها، وإن ركزت على نقاط الوفاق المشتركة وقربت وجهات نظرها وانسجمت، التأم شملها، وتوحد كيائها، وانطلقت تخطو لاستعادة أمجادها الغابرة.

ونحن في هذه المقالة سنسلط الضوء على إحدى المناهج البالغة التأثير في التقارب المذهبي ووحدة الأمة الإسلامية، وبذ الفرقة والطائفية العمياء، وهو منهج الحوار الذي يؤكد عليه ديننا عبر النصوص الكثيرة.

ولا ريب أنَّ الحوار الشامل والمشارك بين أتباع المذاهب الإسلامية، لا سيَّما على مستوى العلماء والباحثين والمفكرين هو الحل المنطقي والصحي الذي من شأنه التقريب بين المذاهب الإسلامية وتحقيق الانسجام الإسلامي وصولاً إلى الوحدة الإسلامية الشاملة.



طوال الفترات التي مرّ بها تاريخ البشرية، لعب الحوار دوراً أساسياً في حياة الإنسان، فالإنسان بطبيعته يميل للغة الحوار والمناقشة والمجادلة، وقد استفاد من هذه الخاصيّة في جميع المجالات. وتتجلى أهميّة الحوار في المجتمعات البشريّة في المقدمتين التاليتين:

#### ١- أصل فطريّة التفكير:

لقد أنعم الله عزّ وجلّ على الإنسان بنعم كثيرة لا تعدّ ولا تحصى، ومن أكبر هذه النعم: نعمة العقل والقدرة على التفكير، فقد خلق الله تعالى الإنسان مفطوراً على هذه القدرة بما منحه من قوّة عاقلة مفكّرة تميّزه عن باقي الكائنات الحيوانيّة.

#### ٢- أصل فطريّة النطق:

وكما خلق الله سبحانه الإنسان مفطوراً على قدرة التفكير، فكذلك خلقه مفطوراً على النطق، وجعل له اللسان آلة ينطق بها، ويحاور بواسطتها بني جنسه، فالقدرة على النطق والبيان موجودة في طبيعة الإنسان، قال تعالى في محكم التنزيل: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } [الرحمن: ٣-٤].

وبعد انضمام هاتين المقدمتين، يتّضح دور الحوار بما له من أهميّة قصوى في تبادل الأفكار وتعاطي المعلومات والتواصل الاجتماعيّ، ممّا يؤدي بالتالي إلى تنمية المجتمعات وتكاملها على كافة الأصعدة العلميّة والفكريّة والثقافيّة و...

:

#### ١- الحوار كآليّة للتبادل الثقافيّ:

يعتبر الحوار عاملاً مهماً في تبادل الأفكار والرؤى في المجتمعات البشريّة، فالأفكار الإنسانيّة تجد في الحوار مجاًلاً رحباً للتبلور والظهور، وتنتقل عبر هذه

الوسيلة للآخرين. وتظهر أهميّة هذا الموضوع بشكل خاصّ في حالة حدوث مواجهة بين المجتمعات البشريّة ذات الأفكار والثقافات المتنوّعة، أو التي لها رؤية عالميّة، أو معتقدات دينيّة متباينة ومختلفة عن بعضها البعض، فحينها يأتي الدور الفاعل للحوار كوسيلة لتبادل وجهات النظر وتعاطي المعلومات والتجارب المكتسبة، وهو ما يعبر عنه بـ «التبادل الاجتماعي الثقافي».

وبعبارة أخرى: فإنّ المجتمعات البشريّة، ومن أجل التعارف فيما بينها وتفادي المواجهات، لا بدّ لها من التبادل الثقافي والديني، ولأجل تحقيق هذا الهدف لا مفرّ لها سوى الرضوخ لمنطق الحوار.

## ٢- الحوار البناء ينتج الوسطيّة والاعتدال:

إنّ من شأن الحوار الذي يتمّ في الاتجاه الصحيح الهادف - بعيداً عن المسائل الهامشيّة - إلى الرفع من المستوى المعنوي والأخلاقيّ للإنسان وأن يضيء له درب الوسطيّة والاعتدال والتعايش السلمي. قال سبحانه وتعالى: {فَبَشِّرْ عِبَادَ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمر: ١٧-١٨].

ومن الناحية العلميّة، فإنّ الحوار يعتبر أسلوباً من أساليب الفهم المتبادل على مستوى الأفراد والمجتمعات، وطبقاً لقواعد علم النفس: فإنّ للحوار دوراً كبيراً في التآلف القلبي والتوادد بين المتحاورين، مضافاً إلى تأثيره البالغ في انتهاج السلوك العقلاني والمتوازن، ويعتقد «بارنت كينكيد» وخبراء آخرون في علم الاجتماع أنّ مواصلة العلاقات الاجتماعيّة والاستمرار في تبادل المعلومات ينتجان حالة من التفكير الجماعي المنسجم والمعتدل في المجتمعات البشريّة<sup>(١)</sup>.

## أ) مفهوم الحوار الديني:

ينبغي أن يشتمل الحوار الذي يجري على المستوى الديني على عدّة ركائز

أساسية، وقد صوّر لنا القرآن الكريم هذه الركائز بأروع بيان حيث قال تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [النحل: ١٢٥].

وحسبما جاء في كتب التفاسير، فإن هذه الآية تتضمن ثلاث نقاط أساسية، يجب أن يتقيد بها أسلوب إجراء الحوار المذهبي، وهي: «الحكمة» و«الموعظة» و«المجادلة»، ويرى بعض المفسرين: أن عبارة (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة)، ناظرة إلى الاستدلالات والبراهين العقلية، وعبارة (والموعظة الحسنة) تشير إلى التعامل بعطوفة ولين مع الأشخاص الذين لا يستوعبون مفهوم المنطق والاستدلال، أمّا عبارة (وجدلهم بالتي هي أحسن) فتتعلق بالذين امتلأت أفكارهم بالمسائل الخاطئة، بحيث يجب ابتداء العمل على إزالة تلك الأفكار لكي تستعدّ عقولهم للإذعان للحق.

وفي آية أخرى: { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } [العنكبوت: ٤٦]، أي: لا تجادلوهم إلا بأفضل الطرق التي تؤدي إلى الإقرار والإذعان للحق، وهنا قد يكون المقصود أفضل الطرق والوسائل من ناحية الاستدلال والبرهان، أو يكون المراد أفضلها من جهة التلاؤم مع الطبع الإنساني، كما ورد ذلك في قوله تعالى - مخاطباً موسى وهارون -: { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } [طه: ٤٤]، أو يكون المراد الجهتين معاً<sup>(١)</sup>.

وهناك أيضاً آيات أخرى في هذا السياق، منها قوله تعالى: { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [الإسراء: ٥٣]، وقوله: { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } [البقرة: ٨٣].

وحاصل الكلام: أن هناك آيات عديدة في القرآن الكريم تؤكد على ضرورة القول الحسن والحوار الصحي البناء في تعامل المسلمين مع سائر الأديان والثقافات الأخرى.

(ب) أنماط المحاوراة الواردة في القرآن الكريم

ورد مفهوم المحاوراة في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وفي إطار ثلاثة مفاهيم هي: «القول»، وتكرّر في ٥٢٧ موضعاً، و«الحوار» الذي ورد في ٣ مواضع، و«الجدل» الذي تكرّر ٢٩ مرة.

من جهة أخرى، فإنّ المحاورات الواردة في القرآن الكريم جاءت في إطار أشكالٍ وصور مختلفة، وهي كالتالي:

#### (١) الحوارات الإلهية، وتشمل:

أ. الحوارات الإلهية مع الملائكة.

ب. الحوارات الإلهية مع الأنبياء.

ج. الحوارات الإلهية مع العباد.

#### (٢) حوارات البشر، وتشمل:

أ. حوار البشر مع الله سبحانه وتعالى، وهو على نوعين:

- حوار الأنبياء مع الله سبحانه وتعالى.

- حوار العباد مع الله سبحانه وتعالى.

ب. حوار إنسان مع آخر، وهو أيضاً على صنفين:

- حوار الأنبياء مع الناس.

- حوار الناس مع بعضهم البعض.

والصنف الأخير هو المقصود في الحوارات الدينية والمذهبية والثقافية.

#### (٣) حوار سائر المخلوقات، ويشمل:

أ. الحوار بين الأنبياء والمخلوقات.

ب. حوار المخلوقات مع بعضها البعض.

وجميع هذه الحوارات تمت بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبين طرفين أو عدّة أطراف.

وهنا ينبغي ذكر عدّة نقاط مهمّة فيما يخصّ النظرة الدينية بالنسبة لمسألة

الحوار:

- أ. ضرورة الحوار وأهميته في المجتمعات الإنسانية المتنوعة.
- ب. مكانة الحوار ودوره الفاعل والمؤثر في نقل الأفكار والأنظار والمقاصد.
- ج. إمكانية الاستفادة من أساليب الحوار المتنوعة بما يتناسب مع كل حالة من الحالات.

ونظراً إلى إمكانية الاستفادة الواسعة من آلية الحوار في المجالات الدينية والمذهبية، فإنه يمكن استثمار هذه الآلية للحصول على أقصى درجات النجاح والوصول إلى أهداف هي في غاية الأهمية، وخاصة فيما يخص الحوار على صعيد المذاهب الإسلامية، فإن التزام الأمة بالحوار والتفاهم وتبادل وجهات النظر من شأنه القضاء على كل آثار الخلافات والتراكمات السابقة، والانطلاق نحو آفاق الوحدة الإسلامية الشاملة عبر مسار التقريب بين المذاهب الإسلامية.

ج) أسس وضوابط الحوار الديني:

أشرنا سابقاً إلى مدى التأثير البالغ لمنهج الحوار في المجال الديني، والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف يمكن الاستفادة من هذا المنهج في سبيل تحقيق الوحدة؟ وما هي ضوابط الحوار المنشود؟ إذ من الواضح أن ليس كل حوار ديني تقريبي يمكن له أن يثمر النتائج المتوخاة.

وفي الحقيقة، فإن الحوار الديني يجب أن يبتني على أسس وضوابط محدّدة لإيجاد الأثر المناسب في الحدّ من اتّساع هوة الخلافات والقضاء على جميع حالات التعصّب والتطرّف.

ويرتكز الحوار الديني على الأسس والقواعد التالية:

:

### أ. ضرورة الحوار في جميع الظروف:

وقد أشرنا إلى هذه المسألة سابقاً، وقلنا إنّ الحوار هو من أهمّ الوسائل الناجعة للتخلّص من كافة المشاكل والمعضلات، وفي جميع الحالات والظروف، ويظهر من آيات الذكر الحكيم أنّ الأنبياء والرسل كانوا يدعون قومهم إلى الحوار مع ما هم عليه من المعتقدات. {قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران: ٦٤].

### ب. ضرورة تعيين محاور الحوار:

حيث يجب على كلا الطرفين تعيين المحاور الرئيسيّة التي يقصد إجراء الحوار حولها، وإلاّ، دخل الطرفان في متاهة ولم ينتج الحوار شيئاً، لا، بل قد يزيد ذلك من الاختلاف.

### ج. التزام الطرفين بالأصول العقلية المعلومة بالضرورة:

إذ لا يمكن الحصول على أيّة نتيجة من الحوار باللّجوء إلى المعاندة وإنكار الأمور البديهيّة. قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءُنَاۙ أَوَّلُو۟ا۟ كَآفَ ءَآبَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٧٠].

:

### أ. التخصّص في موضوع الحوار والمساواة في المستوى العلميّ والمعرفي:

فمن الضروريّ أن يمتلك الطرفان التخصّص المناسب في موضوع الحوار، ويكونا على مستوى واحد من الجهات العلميّة والمعرفيّة، فلو كان أحد الطرفين أو كلاهما لا يمتلك المعلومات اللازمة أو التخصّص الضروريّ في موضوع الحوار، فلا ثمرة له حينئذٍ. قال الله عزّ وجلّ:

{ هَآأَنَٔمُ هَٔؤُلَآءِ حَٔجَجَٔمُ فِيمَا لَكُمْ بِهِ ءَعِلْمٌ فَلَمُ تُحَآجُونُ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ ءَعِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ ئَعِلْمُ وَأَنتُمْ لَا تَٔعِلْمُونَ} [آل عمران: ٦٦].

## ب. الحياد ومراعاة الإنصاف:

إذ لا يكاد يخفى على أحد: أنَّ الحوار ينبغي أن يتمَّ في مناخ تسوده الثقة المتبادلة، وأن يُراعى فيه الحياد والإنصاف، قال تعالى مخاطباً نبيه الأكرم: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الفصل: ٤٩]، أي: من التوراة والقرآن الكريم، وفي هذا السياق أيضاً يؤكد القرآن الكريم على أهميّة اتباع الأحسن من الأقوال، قال عزّ اسمه: {فَبَشِّرْ عِبَادَ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمر: ١٧-١٨].

:

## أ. مراعاة آداب الحوار:

فلا بدّ حين الحوار من مراعاة الأطر والمعايير الأخلاقية والاحترام المتبادل، وعدم إثارة الحساسيات، والاجتناب عن الإساءة والتهديد والتكفير، وما إلى ذلك، فإنّ رعاية القيم والموازين الأخلاقية في الحوار، بالإضافة إلى كونها نابعة من التعاليم والقيم الإسلامية، فإنّ لها آثاراً ونتائج روحية وعاطفية عديدة، منها: بناء الثقة وتقارب القلوب وتآلفها، وفي المقابل، فإنّ اللجوء للإساءة والسبّ والتهديد وغيرها من الأمور المنافية للمبادئ الشرعية القويمة لها آثار سلبية مدمرة كثيرة، أخفها: التشاؤم والتنافر وسلب الثقة والاعتماد بين الطرفين واللّجاجة في الرأي. قال سبحانه: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيًّا عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٠٨].

ب. ضرورة الحوار في ظلّ مناخ علمي بعيد عن المشاعر أو الانطباعات السابقة لأوانها:

فمن الضروريّ لكلا الطرفين ممارسة الحوار في ظلّ الأطر العلمية والبحثية وتجنّب المسائل الهامشية المرتكزة على المشاعر أو الانطباعات السابقة، فالمهمّ في

الحوار هو الاستدلال المنطقي السليم: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل: ٦٤]، والابتعاد عن السجلات والمناقشات اللفظية: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف: ٥٨].

ج. توفير مساحة للأطروحات الفكرية الجديدة:  
فالإسلام يُولي أهمية كبرى للعطاء الفكري والعلمي ويدافع بشدة عن حرية الفكر وحرية الإبداع.

:

أ. الاستماع لرأي الآخر:

حيث ينبغي على كل طرف من أطراف الحوار الاستماع لآراء ووجهات نظر الطرف الآخر: {فَبَشِّرْ عِبَادَ ۖ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ} [الزمر: ١٧-١٨].

ب. اتباع أفضل أساليب الحوار:

فإن القرآن الكريم يؤكد على ضرورة الاستفادة من الأسلوب الصحيح في الحوار: {أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، {وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}.

ج. ضرورة الاستدلال العقلي والمنطقي:

وقد أشرنا إلى هذه النقطة مسبقاً، وقلنا إن الحوار يجب أن يحدّد في سياق الأطر العلمية والبحثية، ونضيف هنا: أن المباحث العلمية المطروحة على مائدة الحوار يجب أن تعتمد على الأدلة والبراهين العقلية والمنطقية الواضحة والصريحة: {أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ}.

د. إضفاء المؤثرات العاطفية على المباحث العقلانية:

ويتم ذلك بطرح بعض المسائل التي تبعث على التوادد والتآلف بين القلوب، ممّا يؤدي للمزيد من الاطمئنان والثقة والاعتماد المتبادل بين طرفي



الحوار، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بـ «الموعظة الحسنة»، وقد تقدّم أنّ هذا الأسلوب يمكن أن يؤثر فيما لو لم يتفهّم الطرف الآخر منطق الاستدلال والبرهان.

هـ. ضرورة التعرّف على المساحات المشتركة والارتكاز عليها:

وتأتي أهميّة هذه النقطة نظراً إلى أنّ من أولى أهداف الحوار المشترك هو تعرّف الطرفين على نقاط الوفاق والمساحات المشتركة، فيجب على المتحاورين إذاً السير في هذا الاتجاه كمقدمة لمواصلة الحوار، ومن النماذج التي يمكن التمثيل بها في هذا السياق قوله تعالى: {قُلْ يَتَاهَلُ الْكُذِبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران: ٦٤].

فالتأكيد في الآية الكريمة على الكلمة أو النقطة المشتركة له دلالة على أهميّة هذا الموضوع واعتباره محوراً رئيسياً لمواصلة مراحل الحوار اللاحقة. فظهر إذاً ممّا سبق أنّ الحوار حسب الرؤية الإسلامية يشتمل على الخصائص والمميّزات التالية:

- كونه من أهمّ الأساليب التي يمكن بواسطتها مواجهة التمزّق والانحياز الاجتماعيّ.
- إنّ الإنسان بطبيعته يميل نحو الحوار.
- إنّ الحوار على الصعيد الدينيّ ذو ماهيّة تقريبيّة ووحديّة.
- إنّ المحور المشترك للحوار الدينيّ هو القضاء على ظواهر الفرقة والاختلاف.
- وبعد أن اتّضح كلّ هذا، نتعرّض الآن للبحث حول الموضوع الرئيسيّ الذي لأجله أُعدّت هذه الورقة، وهو: (دور ثقافة الحوار في نبذ الطائفية).

## (١) المذهبيّة، النشأة والثمرات:

تعود نشأة المذاهب الإسلاميّة إلى الفترة التي تلت وفاة النبي الأعظم '، إذ إنّ المسلمين إبان حياة النبي ' كانوا يتلقّون الأحكام الشرعيّة والمفاهيم الإسلاميّة منه ' بصورة مباشرة، ولم تكن هناك حاجة للاجتهاد كما هو واضح، وبعد رحيله ' برزت الحاجة الماسّة للاجتهاد<sup>(١)</sup> للإيفاء بالمتطلّبات المستحدثة، إثر توسّع الاحتياجات، وكثرة الحوادث، وظهور مسائل ومفاهيم جديدة، وازدادت الحاجة إلى الاجتهاد والاستنباط في عصر التابعين. وبمرور الزمان، ونظراً لاختلاف القراءات، وتعدّد المسالك والمشارب، وتباين الرؤى والأنظار بالنسبة لمبادئ الشريعة ومقاصدها، ظهرت أولى معالم نشوء المذاهب الإسلاميّة، ويرى بعض المفكرين «أنّ العالم الإسلاميّ شهد منذ أوائل القرن الثاني وحتى منتصف القرن الرابع ١٣٨ مدرسة ومذهباً فقهياً، حتى أنّ الكثير من البلدان كان يمتلك مذهباً خاصّاً به»<sup>(٢)</sup>.

إنّ تعدّد المذاهب، مضافاً إلى كونه حالة طبيعيّة ومتوقّعة، لما أشرنا إليه آنفاً من تباين الاستنباطات الفرديّة واختلاف وجهات النظر في فهم مقاصد الشريعة، فهو يشكّل ثروة هائلة للحضارة الإسلاميّة، ويعتبر عنصراً إيجابياً فاعلاً في ازدهار المجتمع الإسلاميّ وتكامله على كافّة المسارات الفكرية والعلمية والثقافية والاجتماعية، ما دام ذلك يأتي في إطار الشريعة الإسلاميّة الواحدة.

## (٢) الطائفيّة، أسبابها وآثارها:

واصلت الحركة المذهبيّة مسيرها في الاتجاه الصحيّ السليم بصورة عامّة فترةً من الزمن، وقطعت أشواطاً أثمرت من خلالها عن نتائج إيجابية ملموسة، وأسهمت في إغناء الفكر الإسلاميّ الحضاريّ، ولكنّها انحرفت فيما بعد عن مسارها، وتبدّلت هذه الظاهرة الصحيّة الطبيعيّة إلى ظاهرة سلبية، وتحوّلت

المذهبيّة المحمودة إلى طائفيّة ممقوتة، وراحت الأُمّة الإسلاميّة تشهد فتراتٍ مريّة يُمارَس فيها شتّى أصناف التكفير والتفسيق والتبديع، ممّا أدى إلى نزاعاتٍ مريّة خلّفت كوارث مفعجة وآثاراً مدمّرة على الأُمّة الإسلاميّة ككلّ. وتؤكد الدراسات العديدة «أنّ هناك عوامل كثيرة ساعدت على انحراف الاتجاهات المذهبيّة نحو الطائفيّة، نشير هنا إلى البعض منها:

١. الجهل الذي هو آفة الآفات.
  ٢. التعصّبات العمياء.
  ٣. الأطماع السياسية للحكام المنحرفين.
  ٤. المصالح الشخصية الضيقة لبعض الانتهازيين.
  ٥. تصدّي البعض ممّن ليس أهلاً للاجتهاد لهذه المسؤولية الخطيرة.
  ٦. أعداء الإسلام من خارج العالم الإسلاميّ.
- و...»<sup>(١)</sup>.

:

الاختلاف بين أتباع الدين الواحد نوعان: محمود ومذموم:

أ. الاختلاف المحمود:

وهو الاختلاف في المسائل الدينيّة الفرعيّة وبعض مسائل العقيدة التي لا تمسّ الأصول القطعيّة، ويعود سببها إلى تنوّع الاجتهادات وتباينها باختلاف مصادر التشريع والمباني العلميّة. وهذا النوع من الاختلاف هو اختلاف وتنوّع محمود.

يقول المرحوم السيّد عبد الحسين شرف الدين: «إنّ الاختلاف الذي يحصل بين مجتهدين من مذهب واحد، مردّه إلى كفيّة استنباط الحكم من مصادر

الاستنباط، وهذا الأمر ينطبق على الاختلاف بين أتباع المذاهب، فلا يمكن لأتباع إحدى المذاهب إبطال اجتهاد أتباع المذهب أو المذاهب الأخرى».

#### ب. الاختلاف المذموم:

وترجع أسبابه إلى عدّة أمور، أهمّها: التعصّب للأشخاص أو المذاهب، والإعجاب بالرأي، والمسارعة في اتهام الآخرين من دون بيّنة وتفسيرهم وتكفيرهم، وبعض العوامل الأخرى.

وهذا الاختلاف هو ما يؤدّي في نهاية المطاف إلى الطائفية.

يقول المرحوم الشهيد مطهري بهذا الشأن: «إنّ أحد أسباب تأسيس الحضارة الإسلاميّة هو حالة التسامح الحاكمة على علاقات المسلمين مع أتباع الأديان الأخرى، وكذلك مع بعضهم البعض، رغم اختلاف الأفكار والمشارب، وعلى العكس تماماً من تلك العصور، نشاهد اليوم جواً مليئاً بالأفكار الضيقة والمحدودة التي تخطّئ الجميع وتكفرهم وتفسقهم...، إنّ القرآن الكريم يقول بالنسبة للاختلاف: {وَلَدَلِكْ خَلَقَهُمْ} ويقول النبي: ' (اختلاف أُمّتي رحمة). وإنّ لِن أهمّ النتائج المدمّرة لهذه الأفكار الضيقة التي تؤدّي للتخطئة والتكفير والتفسيق، هو الفرقة وتشتّت القوى والطاقات»<sup>(١)</sup>.

:

تقدّم أنّ الحوار له دور أساسي وفاعل في التقريب الثقافي والاجتماعي، وفي المقابل، فإنّ المجتمعات البعيدة عن عالم الحوار وإيجاد العلاقات المتبادلة، تسير في المنحى الذي يؤدّي بها إلى الفرقة والتشتّت والتمزّق الاجتماعي، فإثر عدم الحوار يحصل هناك تباعد في داخل المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات المتعدّدة، ممّا يولّد حالة من التخوّف والتشاؤم، ويخلق مناخاً مضطرباً، ويبعث على

التصرّفات غير المتوازنة، وباستمرار هذه الحالة تظهر حالات التخاصم والتنافر على المستوى الاجتماعي والثقافي، وهو بدوره يؤدي إلى الاختلاف، فالفرقة، في نهاية المطاف.

وفي الحقيقة، فإنّ الكثير من المشاحنات والسجلات الثقافية والدينية لا تحصل إلاّ عبر سلوك هذا المنحى الذي نهت عنه النصوص الإسلامية بشدّة وحزم، قال الله سبحانه وتعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، وفي آية قرآنية أخرى: { وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ }.

\* الفرقة ..\*

\* الاختلاف \*

\*....التنافر....\*

\*....التشاؤم....\*

\*.....عدم الحوار.....\*

:

يعتبر الحوار في حدّ نفسه وسيلة للتقارب والتلاحم ولمّ الشمل، ونعتقد أنّ هذا الموضوع هو أحد مقاصد التأكيد على ثقافة الحوار في النصوص الإسلامية. وفي الحقيقة، فإنّ الحوار يجب أن يتمّ بهدف تبادل وجهات النظر والأفكار، وهو ما يؤدي في مرحلة لاحقة إلى حصول التفاهم المتبادل بين الأطراف بالاستناد إلى المساحات والقواسم المشتركة، وفي صورة مواصلة الحوار، فإنّ التفاهم المذكور يبعث على الانسجام، وهو بدوره يثمر عن تقارب الرؤى

والأفكار، وبالتالي: تحقيق الوحدة العمليّة الحقيقيّة.

ونصطلح على مجموع هذه المراحل المتتالية: (نموذج ثقافة التقريب).

ويمكن تطبيق هذا النموذج على مسألة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة

بالبیان التالي:

فقبل كلّ شيء، يتمّ الحوار بين سائر أتباع المذاهب الإسلاميّة بهدف الوصول إلى المساحات المشتركة بين المذاهب وتعيينها، وفي المرحلة اللاحقة، وفي صورة استمرار الحوار والتواصل، فإنّ ذلك يُنتج التفاهم والتوافق على مجموعة من القواعد والأصول الأساسيّة التي تؤدّي بدورها إلى خلق الانسجام في العالم الإسلاميّ، ومن ثمّ التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وأخيراً الوحدة الإسلاميّة الشاملة.

:

\* الوحدة \*

\* .التقريب .\*

\*...الانسجام...\*

\*.....التفاهم.....\*

\*.....الحوار.....\*

\* \* \*

الهوامش:

(١) Cultural convergence, Barnet. GA and kincaid: ص ١٧٥.

(٢) الطبرسيّ، مجمع البيان ٨: ٤٥٠.

(٣) هذا إنّما يصحّ في الجملة، وبالنسبة إلى بعض المسلمين، لا جميعهم، فإنّ المسلمين الذين عملوا بقول رسول الله ' في حديث الثقلين المتواتر والمشهور لدى كافّة المسلمين شهرة عظيمة: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، هؤلاء - وهم الشيعة الإماميّة الإثنا عشرية على وجه الخصوص - لم يفتح لديهم باب الاجتهاد إلّا بعد غيبة إمامهم الثاني عشر X؛ لأنّهم رأوا - بحقّ - في الحديث المذكور دلالة على أنّ قول العترة الطاهرة هو نفسه قول النبي ' ورأيهم هو نفسه رأيهم '، فانسداد باب النصّ عندهم كان في مراحل متأخرة زمنيّاً بالنسبة إلى ما كان عليه الحال عند سائر فرق المسلمين. (التحرير).

(٤) انظر: تاريخ الفقه الإسلاميّ: ص ٨٦.

(٥) آية الله الشيخ محمّد عليّ التسخيريّ، أساليب وآداب التفاهم والتقريب بين المذاهب الإسلاميّة: ص ٥، (نقل بالمعنى).

(٦) مذكرات الشهيد المطهريّ: ص ١٥٥.

# الحوار والتحاور الحضاري

جمالية المصطلح وسوء المضامين والتطبيقات  
إشكالية التداخل والافتراق

□ الأستاذ: نبيل علي صالح (\*)

تقديم

لا تزال مسألة الحوار تحوز على حيّز واسع من النقاشات الفكرية الدائرة بين النخب والمفكرين العرب والمسلمين وغيرهم من مثقفي الغرب والعالم الغربي..

ويبدو أنّ ضغط وثقل الواقع العالمي المعاش حالياً، بما يفرزه من صراعاتٍ متنوعة ومتعددة، هو من أهمّ الأسباب التي تدفع هؤلاء المفكرين والمثقفين إلى إعادة التركيز على موضوع الحوار بين الحضارات والثقافات..

في هذا المقال سنعرض لهذه الفكرة، وكيفية إيجاد تطبيقاتٍ عملية صحيحة لها في الواقع الإنساني المعاصر..

ولكن بدايةً يحسن بنا أن نعرض لمفهوم «الحوار»، حتى نتعرّف على حوار

(\*) باحث وكاتب سوري مهتمّ بشؤون وإشكاليات الثقافة العربية، بكالوريوس في هندسة الطاقة الكهربائية.



الحضارات والثقافات، وننطلق باتجاه تأسيس رؤية واضحة تكشف عن أهميّة الحوار للإنسان، وحاجة الإنسان الدائمة إليه.

والحوار: الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء، حار إلى الشيء وعنه حوراً، ومحاراً، ومحاوره: رجع عنه وإليه. والتحاور: التجاوب.. وهذا ما يفترض وجود متكلّم ومخاطب، ولا بدّ فيه من مراجعة الكلام وتبادلته وتداوله. وغاية الحوار: توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلّم. والاقتصار على عرض الأفكار القديمة. وفي هذا التجاوب توضيح للمعاني، وإغناء للمفاهيم يُفضيان إلى تقدّم الفكر.

وإذا كان الحوار تجاوباً بين الأضداد كالمجرّد والمشخّص، والمعقول والمحسوس، سُمّي جدلاً. والجدل هو النقاش والخصومة. وهو - منطقياً - قياس مؤلّف من مقدّمات مشهورة أو مسلّمة، وغرضه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدّمات البرهان.

والجدل أصلاً هو من الحوار والمناقشة. قال أفلاطون: «الجدل هو الذي يحسن السؤال والجواب، وغاية الارتقاء من تصوّر إلى تصوّر، ومن قول إلى قول، للوصول إلى أهمّ التصورات، وأعلى المبادئ». وقد اقتبس المحدثون عن أفلاطون، فأطلقوا الجدل على الارتقاء من المدركات الحسيّة إلى المعاني العقليّة، ومن المعاني المشخّصة إلى الحقائق المجرّدة، ومن الأمور الجزئيّة إلى الأمور الكليّة.

وقبل أفلاطون زعم سقراط أنّ العلم لا يُعلم، ولا يدوّن في الكتب، بل يُكشف بطريق الحوار. ويذكر العلماء أنّ قاعدة القواعد في النظام الكوني هي «حوار الكائنات»، وإن جامدة. ليأخذ بعضها من بعض، كما هي طبيعة الحاجة، فيكون الانسجام والشّدّ والعقد والاستمرار.

فالحوار ليس قصراً على الكلمات اللّسانية المسموعة. إنّها قد يتجاوز إلى

الإشارة الموضحة والبسمة المشرقة، والحسّ الخافق، والدورة المقبلة، والعمل الصالح، والموقف الصالح، حتى الصمت لا يبعد أحياناً أن يتأتّى حواراً. ومن البدهة القول: بأنّ الإنسان كائن عقل واجتماع.. كائن علاقة وحاجة. ومن البدهة القول إنّ هذه الأحوال أحوج حاجاتها للقاءات المتحاورّة، ليكون المجتمع على بيّنة من أمر علاقاته، وعلى تناسق مؤتلف، وتفاهم واعٍ، وترابط معقود. كما الكون بقوانينه وأنظمتها التي تجعله يحفظ بعضه البعض، ويستمرّ بعضه ببعض. وهذا هو أصل مفهوم الحوار.

:

تميّز مفهوم «الحضارة» منذ ظهوره في البنية الفكرية الغربية لأوّل مرّة عام ١٧٧٢م، بغناه وتعقّده إلى درجة أن «كروبر» و«كلوكهان» حلّلا ١٦٠ تعريفاً له، وصنّفا هذه التعاريف في ستّ زمر: وصفية، وتاريخية، ومعيارية، ونفسية، وبنوية، وتكوينية<sup>(١)</sup>.

والواضح أنّ مسألة العلاقة ما بين الحضارة (Civilization) والثقافة (Culture) هي من أبرز مظاهر تلك الكثافة من التعقيد والغنى.. ويعود طرحها للمرّة الأولى إلى الفترة الواقعة بين عامي ١٨٤٥ و ١٨٥٨م، حين ميّز «ألكسندر دوهمبولت» ما بينهما، فجعل الحضارة معادلة للجوانب التقنية والمادية، بقدر ما جعل الثقافة معادلة للجوانب الأيديولوجية والمعنوية. وقد هيمن هذا التمييز بشكل خاصّ على الفكر الألمانيّ، إلّا أنّ تطوّر الفكر الأنثروبولوجي - الذي ارتبط تقليدياً بدراسة تاريخ الحضارات، وتحليل الفوارق ما بينها - تخطّى حدود ومعالّم هذا التمييز إلى معنى أوسع وأشمل يعتبر أنّ الجوانب المادية والمعنوية في كلّ مركّب ومتكامل<sup>(٢)</sup>، تنطلق من العلاقات الداخلية الجوهرية ما بين المظاهر المادية والمظاهر الثقافية. إذ يشير مفهوم الثقافة

إلى البنية السوسيوثقافية والنفسية الموازية لذلك الإنتاج المادي، والمتواشجة معه، بما يخلق لدى أصحاب الثقافة إمكانية التأثير والسيطرة المتعاضمة على نشاطهم، ومحيطهم، وإنتاجهم المادي، على نحو أو آخر.

من هنا، صدرت فكرة العلاقة ما بين الثقافة والتقدم، من حيث إن تقدم الثقافة مرتبط بتقدم العقل. وقد أعطى تطور الفكر الأنثولوجي الثقافة أهمية مركزية في تعريف الحضارة من خلال ظهور الأنثروبولوجيا الثقافية الأنكلوساكسونية<sup>(١)</sup>.

ولا أدل على هذه الأهمية من أن هذه الأنثروبولوجيا قد انتشرت وشاعت تحت اسم «الأنثروبولوجيا الثقافية» لا تحت اسم «الأنثروبولوجيا الحضارية» الذي لم يتم استخدامه إلا على نطاق محدود. بل إن البلدان الأنكلوساكسونية هجرت مصطلح «الأنثروبولوجيا» نفسه - لما التصق به من حمولات عرقية عنصرية تركّز على مواصفات الإنسان الجسدية - إلى مصطلح «الأنثروبولوجيا الثقافية».

وقد ارتبط المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة باسم تايلور (١٨٣٣-١٩١٧)م الذي كان أول من صاغ مفهوم الثقافة، وحدّده بأنه «الكل المعقد الذي يشمل على المعارف، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقوانين، والأعراف، وغيرها من الاستعدادات والعادات التي يكتسبها المرء بوصفه عضواً في المجتمع». أي أن الثقافة متعلّقة بأنظمة المعنى، ومنظومات القيم، وعناوين الوجود، كما تتجلى في العقائد والفلسفات والأيدولوجيات، أو في الفنون والآداب، أو في القوانين والشرائع، بما يجعلها، (أي الثقافة) مصدر التمايز والفرادة، ومنبع التباين والاختلاف، ليس فقط داخل الحضارات المتماثلة، أو المجتمعات والأمم الواحدة، بل وحتى داخل الشريحة الواحدة أو المجتمع الواحد.

ويرتبط هذا التعريف - على حد تعبير كلود ليفي ستراوس - بالاختلاف

المميّز بين الإنسان والحيوان، أو الثقافة والطبيعة، حيث يظهر الإنسان كصانع أدوات، فتبدو عندئذ العادات والمعتقدات والمؤسسات تقنيّات بين أُخرى، ذات طبيعة ثقافيّة. أي تقنيّات في خدمة الحياة الاجتماعيّة<sup>(١)</sup>.

ومن هنا أخذ مفهوم «الثقافة» يتضمّن - في الاستخدام الفعليّ - مفهوم «الحضارة» إلى درجة أنّنا لم نلمس اليوم سيادة نوع من مفهوم ثقافيّ خالص للحضارة يسلم باستخدام «الحضارة» و«الثقافة» في دلالة واحدة<sup>(٢)</sup>.

والثقافة الألمانية هي وحدها التي استطاعت - من بين الثقافات الغربيّة كلّها - أن تميّز بوضوح بين الحضارة والثقافة، فضمّنت المصطلح الأوّل - كما ذكرنا - كلّ ما يتعلّق بالمكتسبات البشريّة التقنيّة، وضمّنت الثاني كلّ ما يتعلّق بالمكتسبات الفكريّة والأدبيّة. أمّا في باقي الثقافات البشريّة، فلا يزال هناك خلط كبير بين هذين المصطلحين، وعادةً ما يستخدم الواحد مكان الآخر من دون أيّ تأمل أو تفكّر.

أمّا في الثقافة العربيّة والإسلاميّة المعاصرة، فنحن نستخدم مصطلح «الحضارة» للدلالة على معانٍ متعدّدة ومختلفة، يمكن أن تشمل كلّ ما هو متحضّر بالمقارنة مع ما هو همجيّ. حيث نقوم بوصف نظمنا أو سلوكياتنا وأفكارنا بأنّها «حضاريّة» للدلالة على رقيّها، ورفعتها، ومجدها، أو «غير حضاريّة» للدلالة على فقرها، وانخفاض مستواها.

وإذا عدنا إلى قاموسنا العربيّ الكلاسيكيّ، فإنّنا نجد أنّ كلمة «حضارة» مرادفة لكلمة «حاضرة»، وهي مشتقة من «الحضر» (أي: سكّان المدن)، عكس «البدو» (أي: سكّان البادية). وعندما تحدّث ابن خلدون عمّا يشبه مفهوم الحضارة بلغتنا، أي: التقدّم الماديّ والمعنويّ للإنسان أو للمجتمعات، استخدم كلمة «العمران» التي تشير إلى عمارة الأرض، ومن ثمّ ازدهار العمران والفنون والصناعات والأفكار. لكنّه نظر إلى هذا الازدهار من منظورٍ كلاسيكيّ جعل منه

دورةً ضمن دورات نشوء الدولة وانهارها. وارتبطت الحضارة عنده بالطور الأخير من العمران، الذي ترقى فيه العوائد والأذواق، وتزداد أنماط المعيشة دعةً ورفاهاً. إنّ العمران مرتبط عند ابن خلدون بنشوء الدولة واستقرارها<sup>(١)</sup>. ولكنّه اكتشف أيضاً بموازاة ذلك علاقةً أساسيةً بين هذا الازدهار التابع لاستقرار الدولة، وبين عدم انقطاع حبل العلم. ومن هذه الناحية يقترب ابن خلدون كثيراً من بعض النظريات الحديثة التي تنظر إلى الحضارة من منظور تطوّر العلم، وتراكم المعرفة والتقنية البشرية.

وعندما اصطدم العرب المسلمون بالواقع الجديد للحضارة الغربية من خلال حركة الاستعمار الحديث، استخدموا كلمة «المدنية» في مقابل كلمة الحضارة، وميّزوا بين المدنية الإسلامية والمدنية الغربية، وعملوا على استيعاب الخبرة والمعرفة الجديدة القادمة من الحضارة الغربية، من خلال محاولتهم الارتقاء التاريخي ببعض وسائل وأساليب تنظيم حياتهم الاجتماعية والفكرية، وحتى السياسية.

وإذا أردنا أن ندخل في مسألة الفرق بين الحضارة والمدنية، فإننا نرى أنّ مفهوم المدنية ربّما يكون أخصّ من مفهوم الحضارة؛ لأنّ الحضارة تشمل كلّ الحالات الإنسانية، بما فيها الحالات التي تنطلق في أجواء الإنسان الذي يميّز ببعض الموروثات أو المكونات البدائية<sup>(٢)</sup>. وأمّا المدنية فهي التي تمثّل المنهج السلوكي في حياة الإنسان من خلال المجتمع الذي يميّز بطريقة معينة في تكوين البيئة الاجتماعية، وفي تكوين النظام الذي يحكم الناس بشكل متقدّم يبتعد بهم عن حالة البداوة.

انطلاقاً ممّا تقدّم، يمكن أن نقول: بأنّ الحضارة في مفهومها العامّ المتعلّق بأسباب العيش، وأدواته، ومستواه، وبأنماط الإنتاج، ووسائل النقل والتواصل، وتقنيات الاتصال، هي كلّ شكلٍ من أشكال تنظيم الحياة البشرية،

وهي - بالتالي - ثمرة جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرات مقصوداً، أم غير مقصود، وسواء كانت الثمرة مادية أم معنوية. وبذلك تكون الحضارة حصيلة إيجاد علاقة خاصة، ونمط تعامل الإنسان مع العالم. ويتجلى في الإجابة عن التساؤلات، وتلبية الاحتياجات التي تظهر إلى الوجود بوحى من هذه العلاقة. وبناءً على هذا المعنى، فللبدو أيضاً نوع من الحضارة. كما أنَّ الإنسان منذ أن عاش بصورة جماعية كان يتمتع بصورة من صور الحضارة.

ولعلَّ نظرة فاحصة إلى أمم مثل الفرس والصين والهند واليابان ستفضي بالباحثين إلى الاجتماع على حقيقة تميّز الشخصيات القومية، والمواثيق الحضارية، وطرائق العيش والحياة، وفي النظرة للكون والوجود والحياة، وتصورها، لدى شعوب وأمم هذه الحضارات.

وكذلك الحال إذا ما نحن تأملنا الحضارة الغربية منذ اليونان وحتى نهضتها الحديثة، والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لإدماج الموارث القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام، بحيث عمل المسلمون على تطويرها وفقاً لمعاييرهم وتصوراتهم.. ولذلك أمكن لنا القول هنا بأنَّ التأثيرات الحضارية، والاستعارات الثقافية، والأفكار، والآراء، والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هي ظاهرة صحيحة طبيعية وسليمة، لا خطر فيها ولا خوف منها<sup>(١)</sup>.

من هنا يعبر الحوار في لحظة تشكّله الأولى عن وجود خلل واضطراب عام في داخل منظومة العمل الخاضعة لضبط حركة هذا الموقع الإنساني أو ذاك. سواء كان هذا الموقع سياسياً أم فكرياً.. إلخ. فالبشرية وصلت - في طبيعة الحضارة المادية الحديثة، و بعد كلّ هذا التقدّم الهائل على مستوى العلم، والتقنية، والتطوّر الكبير في حركة الثقافة على المستوى العالمي - إلى نتائج كارثية

كان من شأنها أن ساقَت الإنسان نفسه ليعيش بائساً، ومحبطاً، ومحتاراً على امتداد القرن العشرين بأكمله، وجعلته ممزقاً بين مُنَجَز علميٍّ ضخيم غير متصور، وهمجيّة مريعة قاتلة، الأمر الذي أفقد هذا الإنسان الطمأنينة والراحة والهدوء؛ لأنّه افتقد أساساً للحكمة والهدف من وجوده على هذه الأرض. فهو ضحى بكلّ شيء ليصبح مطمئناً، ولكنّ النتيجة كانت غير ذلك، والواقع الذي تعيشه الحضارة حالياً هو الواقع الذي بدأ يكشف أزماتها الحقيقيّة الناجمة، كما ذكرنا، عن فقدان الجانب الروحيّ (الغائيّ) في منطلقاتها، وفي خلفياتها، وفي أبعادها المختلفة بالمستوى الذي جعل مواقفها تصطدم ببعضها البعض بحيث تخلق مشاكل كبيرة تجعل الإنسان يقف أمام الجدار المسدود في حركته النفسيّة والشعوريّة، وفي كلّ علاقاته ومصالحه.

إزاء وضع شاذّ كهذا الوضع، لا مكان فيه لقيم الحقّ والأخلاق فيما العدل إلّا فيما ندر، بدا أنّه لا مناص من العودة إلى مسألة «حوار الحضارات»، باعتبار أنّ هذا النوع من التحوار المبنيّ على ركائز الوعي، والانفتاح، والعقلانيّة، والاعتراف بالآخر، يمكن أن يساهم (ولو جزئياً) في إعادة وصل ما انقطع بين الأمم والشعوب، وبالتالي: يمكن أن يعيد العالم إلى توازنه المفقود منذ زمن طويل، وإلى الإنسان تماسكه واطمئنانه (بعد أن حوّله الشعارات والأيديولوجيا الزائفة إلى كائن مهمّش) بعيداً عن واقع الهيمنة، والتبعية، وسلب الشعوب مقدّراتها، وإرادتها، وطاقتها، وثقافتها، وسلامتها، وأمنها، ومصائرهما. كما بدا أنّ حوار الحضارات وحده، بما تمتلكه هذه الحضارات من طاقات روحيّة خلاّقة، يستطيع أن يزوّد الأمم بمبادراتٍ تتجاوز بها ذاتها، وجغرافيّتها، واقتصادها، ونظمها، وقوميّاتها، وأعراقها نحو أفق يكون فيه الآخر، والانفتاح عليه ضرورة وجود<sup>(1)</sup>.

من هنا، وفي مواجهة هذه الصراعات الإقليميّة والدوليّة المتزايدة حول

قضايا متعددة، ومنها مفاهيم الهوية وأيديولوجياتها، وكذلك في مواجهة افتقار الحضارة الغربية للبعد الروحيّ (الميتافيزيقي) الذي جعلها تصطدم بجدار المعنى<sup>(١)</sup>، تكتسب فكرة الحوار أهميّة كبرى، خصوصاً بعد اتّساع جمهورها في أوساط النخب الثقافيّة، بل والسياسيّة.

ولذلك يأتي هذا الطرح الحواريّ، في هذه الظروف التي يعيش فيها العالم حالات استقطاب حادّة متعددة، ليشكّل فرصة وأسلوباً مناسباً للتعبير عن الأمل بوجود المعنى والحكمة في أصل الخلق، وللتبشير أيضاً بقدرة الإنسان على جعل الحياة جميلة ومعطاءة وذات معنى لكلّ إنسان. ولكنّ ذلك لا يكون إلّا بتفاعل الإنسان مع الإنسان، أي: بأن يعترف الإنسان بوجود تعدّدية ثقافيّة، تأخذ شكلها المطلوب وعنوانها المميّز، وأسلوبها الخاص من الحضارة التي تنتمي إليها. لكن الذي يجب ألاّ يخفى على أحد هو تعرّض معظم ثقافات العالم لانسحاق وتهديد حقيقيّ بالتفكّك والدمار نتيجة الصعود الكاسح للثقافة الغربيّة المركزيّة، وخاصة الثقافة الأمريكيّة، وتمحورها حول ذاتها. فهي الذات والمركز، وغيرها الهامش والطرف.

ولذلك، فإنّنا نؤكّد على أنّ الحوار الحضاريّ المطلوب لن تكون له أيّة قيمة تُذكر إلّا إذا انتقل من كونه حواراً بين الثقافات أو الحضارات إلى حوارٍ بين الجماعات على إعادة توزيع الموارد الماديّة والمعنويّة (أي الثقافيّة) بما يستجيب للحدّ الأدنى من معنى العدالة، كما تستبطنه اليوم الأغليبيّة الساحقة من الساكنة البشريّة<sup>(٢)</sup>. خصوصاً وأنّ هذه الأغليبيّة الساحقة تلتقي مع غيرها من الجماعات البشريّة المتقدّمة على تشجيع الإبداع الفكريّ، والبحث العلميّ، والتفكير العقلانيّ، والتسامح الأخلاقيّ. لكنّ هذه الجماعات لا تملك جميعاً الإمكانيّات والوسائل اللازمة لتطوير هذه القيم الحديثة المطلوبة والمرغوبة.

وبالنظر إلى ذلك، يمكن أن يكون الحوار والتقارب بين الجماعات معنيّ



جديداً، وروحاً جديرة مسؤولية، خصوصاً إذا ما توسّعت دائرة مشاركتها في مرجعيّات إضافية، وتحريرها، من ثمّ، من حتميّة الاعتماد المطلق والأحاديّ على مرجعيّاتها الثقافيّة التاريخيّة. أي: بإيجاد فرص أكبر وأوسع لتنوع هذه المرجعيّات بحيث يظهر أمامها أنّ الحوار بين أصحاب الثقافة المختلفة يمكن أن يتحوّل، بالرغم من سمّته الإنسانيّة الواضحة، إلى وسيلة للتغطية على الأسباب الحقيقيّة للصراعات الدوليّة بمستوياتها وخلفيّاتها المتعدّدة. وهذا الوعي الفعّال لمسألة الحوار هو الذي يمكن أن يُظهر لتلك الجماعات أنّ الانفتاح على الآخر إثراء للنفس، وليس إفقاراً لها. ويبدو لي أنّ هذا الأمر لن يحصل ما لم يتحرّر أطراف الحوار من عقدة التنظير المعرفيّ، وينزلوا إلى الأرض، ويعملوا على تأسيس الحوار الحضاريّ المطلوب على نظام فكريّ وعلاقاتٍ سياسيّة جديدة تقوم على قواعد التحرّر والندية والتكافؤ، وليس على قواعد النهب والسيطرة والإقصاء والتهميش كما هو موجود حالياً. وهذا الأمر يستلزم وجود «رؤية حوار الحضارات» في إطار حقّ الأمم كلّها في الاختلاف والتعدّدية في المفاهيم والرؤى و التصوّرات بحيث يتحرّك ذلك كلّ ضمن عدالة إنسانيّة تتيح للثقافات كلّها فرصة النموّ والتطوّر والازدهار في ظلّ عالم إنسانيّ واحد.

إنّنا نعتقد أنّ مقولات القوّة والصراع والهيمنة، التي لا تزال ترسم وتقود وتتحكّم في العلاقات بين الحضارات، وتعزّز أنماطاً جديدة من علاقات السيطرة والهيمنة، لا يمكن أن تبقى هي العناوين السائدة على ساحة الحياة الإنسانيّة على امتداد الزمن المستقبليّ كله، بل لا بدّ لمقولة الحوار في المستقبل (القريب أو البعيد، إذ إنّ ذلك رهن إرادتنا) أن تهيمن على العلاقات الداخليّة، داخل كلّ مجتمع بعينه، وداخل كلّ حضارة بمفردها.

فعلاقات الحوار التي تنطوي على تأصيل قيم ومعاني التعدّدية، والانفتاح، والتواصل، والاعتراف بالآخر، والتسليم بضرورة التداول السلميّ للسلطة

السياسية، والتعامل بشفافية وإنسانية، هي التي يمكن أن تؤسس على المستوى الداخلي ذاتاً حضارية كَلِّية، أو جماعية، أو روحاً موحدة نسبياً، يمكننا بالاستناد إليها أن نتقل من الحوار الداخلي بين التيارات والقوى والمواقع السياسية والثقافية السائدة في داخل اجتماعنا الديني والسياسي العربي والإسلامي إلى ساحة الحوار واللقاء والتنافس الحضاري الخارجي، في سياق انفتاح الذات وخروجها من دائرتها الخاصة إلى الفضاء الإنساني الأرحب والأوسع.

وإذا كان هذا يدل على التفاعل الخلاق بين النقد والإبداع، فإن حوار الحضارات يجعل أيضاً من هذا التواصل أسساً رابطاً بين الحرية والمصير، والوجود، والمعرفة والفهم. لكن اعتقادنا الجازم بأهمية تعميق هذا التواصل والانفتاح بين الثقافات، والتعددية الثقافية، لا يعني، بأي حال من الأحوال، أن هناك مساواة مطلقة بين الثقافات، كما ولا يعني أن حوار الثقافات قد أضحي مسألة حتمية أو ضرورية. ذلك أن الثقافة ليست هي التي تحاور، بل المجتمعات، ومن ضمنها الأفراد المجتمعون بالحوار أو المسؤولون عن شؤون الجماعة. والعلاقة الطبيعية بين متعددين هي بالضرورة علاقة صراع وتواصل معاً: صراع مع الآخر الغريب، وتواصل مع القريب<sup>(١)</sup>.

فلا قرابة من دون صراع يبني الآخر، ولا صراع من دون هوية تبين حدود الذات والقريب والصديق. وموضوع الصراع بين الثقافات، أو بين الجماعات في الميدان الثقافي، هو السيطرة على الرأس مال الرمزي الذي يشكل رصيد كل ثقافة، أو هو الثقّف الذي يستدعي السيطرة على مواقع استراتيجية في شبكة العلاقات والموارد الثقافية العالمية.. فالحق أن الصراع الثقافي (أو الصراع على الثقافة) يقوم على وسائل تختلف عن تلك التي تستخدمها الحرب، وهو يجري كل يوم من دون أن يدرك الناس أنفسهم ذلك أحياناً، وذلك من خلال توسع دائرة نفوذ اللغات والأفكار، والإشارات، والرموز، والأسماء، والصيغ،

وأنماط الاستهلاك والتسلية، والآداب، والفنون، والأذواق، وأساليب التنظيم والتأهيل والإدارة، والسلوك.. إلخ، وهو صراع مستمرّ سواء دخلت المجتمعات المختلفة الثقافة في نزاع دوليّ مسلّح أم لم تدخل فيه.

\* \* \*

### الهوامش:

(١) راجع: P.H.Chonbart de Lauwe: Images de culture, pagot, Paris ١٩٧٠،

P.١٨

(٢) جاك لومبار، مدخل إلى الأنثولوجيا (الأنثروبولوجيا)، ترجمة حسن قبسي، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط:١، ص ١٥٤ - ١٥٧، قارن مع شومبار ص: ١٥ - ١٦، ومع مادة (الحضارة) في موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ط:١، عام ١٩٩٦م.

(٣) محمد جمال باروت، ما بعد المركزية الأوروبية، من التفاوت إلى الاختلاف، مجلّة الآداب العدد ٣/٤، ص ٢٨، نيسان ٢٠٠٠م.

(٤) كلود ليفي سترافوس، الأنثروبولوجيا البنيوية، ترجمة: مصطفى صالح، ص ٤٠٩، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٧م.

(٥) محمود أمين العالم، صراع الحضارات أم تعدّد ثقافات (ندوة)، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٣٨، ص ٧٦، عام ١٩٩٨م.

(٦) برهان غليون، مجلّة الآداب، عدد ١١١، ص ٤٤.

(٧) العلامة السيّد محمّد حسين فضل الله، المشروع الحضاريّ الإسلامي، ص ٤٠، دار العارف - بيروت ١٩٩٠م.

(٨) انظر: د. محمّد عبد الرحمن مرجبا، أصالة الفكر العربي، ص ١٥٢، منشورات عويدات - فرنسا ١٩٨٢م.

(٩) مجلة الآداب، م.س، ص ٤٤.

(١٠) وصلت الحضارة الغربية إلى درجة عالية من الإشباع المادّي المحسوس، فقد أصبحت الحياة

أسرع وأسهل، وأصبح الإنسان أطول عمراً (كميّاً وكيفيّاً)، ولكن بالرغم من كلّ هذا التقدّم والغنى والثراء المادّي يبقى هناك جانب يشكّل ثغرة هائلة فيها، ألا وهو الجانب والمعنى الميتافيزيقيّ. ولعلّ في قول أحد العلماء المعاصرين: «الإنسان ليس شيئاً سوى آلة بيوكيميائية، مشحونة بجهاز احتراق، يمنح الطاقة للكمبيوترات»، أفضل تعبير عن الحالة المأساوية الخطيرة التي وصلت إليها حضارة الإنسان المعاصر. (راجع: مقالة كاظم جهار، قراءة لمفهوم التمرکز الغربيّ بين كلود ليفي ستراوس ودريدا، مجلة الوحدة، العدد ٤، ص ٥٩-٤٧، ١٩٨٥م).

(١١) مجلّة الآداب، ص ٤٩، م.س.

(١٢) م.س.

## الإمامة القرآنية

ذلك العهد الإلهي.. الفردي.. السياسي.. الاجتماعي.. المعصوم

□ الشيخ علي محسن (\*)

مختصر

يتبنّى المسلمون الشيعة من أتباع مدرسة أهل البيت <sup>٨</sup> في مسألة الإمامة نظريّة خاصّة، تتلخّص في أنّ «الإمامة» - كقيمة دينيّة - تقع إلى جانب «النبوة» أصلاً من أصول الدين، فهي من صميم الدين وأركان من أركانه، وليست مجرد رئاسة دنيويّة أو زعامة سياسيّة، وليس الغرض منها منحصرّاً في تنظيم الاجتماع والاقتصاد والسياسة، بل هي عهد من الله تعالى لا يناله إلّا من كان معصوماً عن الخطأ، منزهاً طيلة عمره وحياته عن كلّ شكلٍ من أشكال الظلم والمعصية، وإلّا لصدق عليه - لا محالة - عنوان الظالم. وهذا العهد الإلهي، الذي يعني الرئاسة المطلقة والزعامة العامّة في أمور الدين والدنيا معاً، لا يثبت إلّا بالتعيين والتنصيب من قبله عزّ وجلّ، والذي يجعل الإمامة ويمنحها ويُعطيها هو الله

(\*) باحث إسلامي / لبنان.

تعالى، فهو الذي يختار الأئمة والدعاة إليه، وهو الذي يعينهم أئمة وقادة، وهذا حق حصري له لا يثبت لأحد سواه.

ويستدل أتباع مدرسة أهل البيت <sup>٨</sup> على صوابية رأيهم وصحة نظريتهم هذه بأدلة كثيرة ومتنوعة، منها العقلي والعقلائي، ومنها النقلية. وهم في أدلتهم النقلية، تارة يتمسكون بآيات الكتاب العزيز، وأخرى بأخبار من الحديث والسنة.

وما نهدف إليه في هذه المقالة المختصرة هو دراسة الخطوط العامة في نظرية الإمامة في مدرسة أهل البيت <sup>٨</sup> على ضوء آية العهد الإلهي، وهي قوله تبارك وتعالى - في واحدة من محطات المسيرة الإبراهيمية الحنيفية -:

{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤].

والخصوصية التي تكمن في الاستدلال بهذه الآية الشريفة، هو أنه - أي: هذا الاستدلال - لا يمكن مواجهته وتضعيفه بالدعوى التي تقول: بأن دلالة الآية لا تزيد على أكثر من أن الإمامة يمكن أن تكون بالجعل الإلهي، أي: على أن الجعل الإلهي هو من جملة الوسائل التي يمكن اعتمادها لتعيين الإمام وإثبات الإمامة، ولكن هذا لا يعني: أن الإمامة منحصره بطريق التنصيب الإلهي، وإذا كانت لا تدل على الانحصار، فهي لا تُنافي إمكانية إثبات الإمامة بغير هذا الطريق، وبوسيلة أخرى سوى هذه الوسيلة، لتكون النتيجة: أن إثبات الإمامة له طرق متعددة، منها: الجعل والتعيين، ومنها: غير ذلك، كالشورى والبيعة والانتخاب ونحوها.

فإن هذه الدعوى لا تعدو أن تكون شبهة واهية وإشكالاً ضعيفاً؛ لأن الآية الشريفة - كما سنثبت - تدل على الانحصار، أعني: انحصار طرق إثبات الإمامة وتعيين الإمام بطريقة واحدة، وهي: التنصيب والجعل والتعيين الإلهي، وأما

سائر الطرق المتبعة، فهي طرق لا مشروعية ولا مقبولة لها.  
والاستدلال بهذه الآية الشريفة، يمرّ في خلال نقاط:

: :

وصفت الآية الشريفة الإمامة بكونها «عهداً إلهياً لا ينال الظالمين»، فالإمامة ليست إلا عهداً من الله تعالى وأمانة منه، وهي ليست إلا مسؤولية جسيمة، ومنصباً خطيراً، وشرفاً عظيماً، يعهد به الله تعالى إلى من يشاء من عباده، ولا تثبت لأحد، ولا مجال لأن يتلقاها أحد، بغير هذه الطريقة، وهي طريقة: العهد الإلهي، والجعل الإلهي، المعبر عنه في المفاهيم القرآنية بعنوان «الجعل» أو «الاصطفاء».

ومما يؤيد هذا المعنى: إضافة كلمة «العهد» في الآية الكريمة إليه تعالى معبراً عن نفسه باستخدام ضمير المتكلم، الأدلّ من غيره من الألفاظ على القرب والالتصاق والاختصاص، كما صرح بذلك أهل النحو واللغة حين جعلوه - أعني: ضمير المتكلم - أعرف المعارف وأخصّها على الإطلاق؛ وذلك من جهتين:

(أ) أنّ غيره من الضمائر بحاجة إلى قرينة تدلّ على تعيين المعنى وتخصيصه، وهذه القرينة هي الخطاب في ضمير المخاطب، أو المرجع الذي يعود عليه ضمير الغائب. وهذا بخلاف ضمير المتكلم، فإنّه ليس بحاجة إلى مثل هذه القرينة، بل دلّته على المتكلم دلالة حضورية مباشرة وبغير واسطة.

(ب) أنّ الألفاظ الظاهرة - وإن كانت من الأعلام الشخصية - فهي عاجزة عن أن تدلّ على معانيها ومسمياتها بنحو الدلالة الحضورية المباشرة، بل دلالتها على المعاني والمسميات تُصنّف في قسم «الغيبية» المقابل لـ «الحضور».

والنتيجة: أنّه إذا ثبت أنّ الإمامة عهد للربّ تعالى، ثبت - أيضاً - عدم جواز

اختيار الناس فيه، وأنّ اختيارهم لا يتطرق إليه؛ وذلك لوضوح أنّ الناس إنّما لهم الاختيار في العهود التي ترجع إليهم، لا في عهد الله سبحانه.

: :

دلّت الآية الكريمة على أنّ إبراهيم الخليل × كان يرى - ورؤية الخليل، ككلّ أنبياء الله تعالى، ليست وجهة نظر، ولا رأياً شخصياً، ولا تحليلاً نفسياً، بل هي رؤية إلهية نبوية معصومة عن كلّ خطأ وزلل - أنّ طريقة الجعل والتنصيب والتعيين الإلهي هي الوسيلة الوحيدة والمنحصرة لنيل الإمامة وهذا العهد الإلهي، وهي السبيل الأوحّد لبلوغ هذا المقام الربّانيّ الشامخ، حيث إنّهُ × توجه بعد نيله لمقام الإمامة، بواسطة الجعل الإلهي {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}، توجه إلى الله تعالى بطلب الإمامة لذريّته، حيث قال: {قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، ما يشير إلى أنّ إبراهيم × لم يجد لدى أحدٍ من المخلوقين، ولا في حوزة شيءٍ من الأسباب الدنيوية، القدرة على الارتقاء بأحدٍ إلى هذا المقام العظيم، فتوجه إلى الباري تبارك وتعالى، الذي يملك أمر هذا العهد وزمامه، متوسّلاً إليه سبحانه أن يُنعم عليه بإعطاء الإمامة لذريّته، وأن يحفظ الاستمرارية لخطّ الإمامة المقدّس في ذريّته؛ ذلك لأنّ الإمامة تعبّر - في المفهوم الإبراهيمي - عن الذروة في الاصطفاء والقرب الإلهي<sup>(١)</sup>، كيف لا؟! وهو لم يكن نيله لها، ووصوله إليها، إلّا بعد نيله لمقام الخلّة (أنّه خليل الله) {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: ١٢٥]، بل ومن بعد أن كان نبياً ورسولاً أيضاً، فإنّ الوحي الإلهي إليه بجعله إماماً للناس، وما أجاب به × من طلب الإمامة لبعض ذريّته، كلّ ذلك، لا يصلح إلّا لمن كان نبياً<sup>(٢)</sup>.

أضف إلى ذلك: أنّه × قد كان نبياً من قبل أن يولد له ولد، ومن قبل هرمه وشيخوخته، في حين إنّ ما يُستفاد من الآية - {قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} - هو أنّ جعله



إماماً من قبل الله تعالى إنّما كان بعد أن صار له أولاد يرجو أن يكون له منهم ذرية، وأمّا قبل ذلك، فلم يكن له رجاء في ذلك، كما يستشفّ من الآية الكريمة - حكاية عن لسانه -: { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بُشِّرُونَ } [الحجر: ٥٤].

وفيما يتعلّق بهذه النقطة يقول العلامة الطباطبائي + - ما لفظه -: «وقوله X : { وَمِنْ ذُرِّيَّتِي }، بعد قوله تعالى: { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا }، قول من يعتقد لنفسه ذريةً، وكيف يسع من له أدنى دربة بأدب الكلام، وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطابٍ يُخاطَب به ربّه الجليل أن يتفوّه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك، لكان من الواجب أن يقول: ومن ذرّيتي إن رزقتني ذريةً، أو ما يؤدّي هذا المعنى، فالقصة واقعة كما ذكرنا في أواخر عهد إبراهيم بعد البشارة»<sup>(١)</sup>.

بل إنّ جعل الإمامة له وطلبها لذريّته لم يكن - أيضاً - إلّا من بعد تبليغه رسالات الله، وتحمّله في سبيل إعلاء كلمة الله ما تحمّله: من الخوف والتهجير والفراق والأذى والإلقاء في النار واختبار ذبح الولد، وغير ذلك ممّا ابتلاه الله تعالى به من كلمات، كما قال عزّ من قائل: { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا }، فالشرف الذي يمثله الخطاب الإلهي: { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا }، لم يرتق إليه إبراهيم X إلّا بعد اجتياز مخاضٍ عسير من المصاعب والشدائد في سبيل الله، وتحت عين الله، أو بتعبير الآية نفسها: بعد أن أتمّ الكلمات التي ابتلاه بها ربّه.

قال العلامة الطباطبائي + : «على أن قوله تعالى: { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا }، يدلّ على أنّ هذه الإمامة الموهوبة إنّما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات، وليست هذه إلّا أنواع البلاء التي ابتلي بها X في حياته، وقد نصّ القرآن على أنّ من أوضحها بلاءً قضية

ذبح إسماعيل، قال تعالى: { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } [الصافات: ١٠٢]، إلى أن قال: { إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ } [الصافات: ١٠٦]، والقضية إنما وقعت في كبر إبراهيم، كما حكى الله تعالى عنه من قوله: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ } [إبراهيم: ٣٩]»<sup>(١)</sup>.

:

عبرت الآية الكريمة بـ { قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }، بجعل (العهد) نفسه فاعلاً لـ (ينال)، وجعل (الظالمين) مفعولاً، دون العكس، حيث لم تأت الآية بصيغة: (لا ينال عهدي الظالمون)..<sup>(٢)</sup>

لتدلّ بذلك - أي: بصيغتها الموجودة حالياً بين دفتي الكتاب الكريم - على أنّ المانع من وصول الإمامة إلى الظالمين، هي أنّ الإمامة في حدّ نفسها مقام سامق يمتنع على الظالمين ويستعصي عليهم، وأنّ الإمامة الحقيقية - وهي التي نجزم بكونها مورداً لرضا الله تعالى، ومحطاً للعناية الربّانية الخاصة، ومصادقاً من مصاديق اللطف الإلهي، لا الإمامة بمعنى: (الزعامة الدينية القائمة على معايير دنيوية) - هي التي تختار صاحبها، وهي التي تتمنّع وتحتجب عن غير أهلها، وهي ليست، ولا يمكن أن تكون، بطرق انتقائية من البشر، مهما كان شكل هذه الانتقائية، ومهما كان النعت الذي نصفها به، من قبيل: أنّها (شورى)، أو (عملية انتخابية ديمقراطية)، أو (بيعة)<sup>(٣)</sup>، أو أنّها (اتفاق وتعيين واختيار من قبل أهل الحلّ والعقد)، أو غير ذلك..

فإنّ كلّ هذه الآليات ما دامت فاقدة للصفة الإلهية، وحيث كانت بعيدة عن روح التعيين والتنصيب الإلهي، وما دامت لا تنطلق من فكرة كون الإمامة في حقيقتها عهداً إلهياً، فهي بأجمعها (هذه الآليات) تكون فاقدة للاعتبار ومنتهية

الصلاحية، وهي بأجمعها عاجزة عن أن تُثبت الإمامة والزعامة - دينياً - لأحد.

: :

إنَّ الإمامة التي تتحدّث عنها الآية الكريمة ليست مجرد مقام ربّاني رفيع يحكي عن جنبه عباديّة فردية، يتّصف بها الإنسان بينه وبين ربّه، بل هي مقام ربّاني رفيع يحكي عن مرحلة متقدّمة جدّاً يطويها الإنسان في مقام العبوديّة لتترتّب عليها آثار كبيرة ومسؤوليّات جسيمة، تتجاوز الطابع الشخصي والفردية، لتصل إلى حدّ قيادة الأمم، وتبوؤ منصب «القدوة» و«الأسوة»، وإلى المستوى الذي يخوّل الإمام بأن يكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فيكون لهذه الإمامة - حينئذٍ - جوانب وحيثيّات متعدّدة: اجتماعيّة وسياسيّة وقياديّة وتربويّة وعلميّة وغير ذلك، إلى جانب ما ترمز إليه - أيضاً - من الطابع الشخصي والفردية في العبادة والقرب الإلهي.

وإن شئت فقل - بعبارة تحكي عبارات الفلاسفة -: إنَّ الإمامة مقام ربّاني لا تجاري، وهو يحكي عن سعةٍ وشرفٍ وجوديين يتّصف بهما الإمام، فيؤدّي - تلقائياً - إلى اتّساع في ولايته وسلطنته وصلاحيّاته ومسؤوليّاته وكمالاته ومؤهلاته، ويتيح له أن يكون مظهراً من مظاهر العظمة الإلهيّة وتجليّاً من تجليّاتها، ويحوّله ممارسة دور الخلافة الإلهيّة على أوسع نطاق، وعلى أكمل وجه. والسّر في ذلك: أنّ الآية الكريمة ذكرت للإمامة متعلّقاً يرتبط بها ويعود إليها، وهو الجارّ والمجرور<sup>(1)</sup>، أعني: قوله عزّ وجلّ: {لِّلنَّاسِ}، ولم يقل تبارك وتعالى لإبراهيم ×: (إني جاعلك إماماً)، بل قال له: إني جاعلك إماماً للناس، ومن الواضح: أنّ الإمامة عندما تؤخذ بالإضافة إلى الناس، فهي ليست تحكي عن الجانب الشخصي من الإمامة فحسب، المتمثّل في طبيعة العلاقة الفردية القويّة التي تقوم بين الإنسان وبين ربّه، بل تحكي عن مقام يناله

الشخص ويكون له انعكاساته عليه وعلى الآخرين على حدٍّ سواء.

وفيما يقرب من هذا المعنى ما قاله شيخ الطائفة + :

«فإن قيل: معنى الإمامة في الآية ليس المراد بها إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام، بل ذلك لا يدخل تحتها.

قيل: هذا باطل؛ لأنّ الظاهر فيه تصريح بذكر الإمامة التي قد فرّق المخاطبون بينها وبين النبوة، فلا بدّ أن يكون محمولاً عليها دون النبوة، وما المنكر من أن يكون إبراهيم نبياً وإماماً، ويكون إليه - مع تبليغ الرسالة - إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام؟!»<sup>(١)</sup>.

وعليه: فلا تنحصر الإمامة المُعطاة إليه × بالجانب الشخصي والمقام المعنوي، بل الإمامة التي تُثبتها الآية - كما أشرنا -:

(أ) فيها جنبه معنويّة فردية؛ لمكان ظهور الآية في أنّ إعطاء الإمامة لإبراهيم الخليل × كان تشريفاً إلهياً، وترقيةً من الله تعالى لإبراهيم ×، وموافقةً على انضمامه إلى ساحة القرب الإلهي، وهو ما يعني إبراهيم × في نفسه، ويعبر عن تطوّر مشهودٍ ونقلٍ نوعيّةٍ في علاقته الشخصية بربه.

(ب) وفيها جنبه عامّة تربويّة، تتمثّل عنصر الاقتداء والتأسي، الذي هو من العناصر الأساسيّة في حركة الهداية، فإنّ الإمامة مأخوذة من ائتمام الناس بالإمام. ومن مقوّمات الائتمام، أو من لوازمه الأساسيّة، الاقتداء والتأسي، بمعنى: أنّ الاقتداء والتأسي هو إمّا مأخوذ في عين حقيقة الائتمام، أو أنّه - على أقلّ التقادير - من لوازمه الضروريّة التي لا يستغني عنها؛ إذ لا يأتّم الناس بأحدٍ ما لم يشعروا بأهليّته لأنّ يكون هو الإمام، ولا يتولّد مثل هذا الشعور لدى شرائح الناس المختلفة، إلّا إذا رأوا فيه القدوة لهم والأسوة الحسنة.

(ج) وفيها جنبه عامّة سياسيّة واجتماعيّة، تتمثّل بالجانب القيادي والإشرافي وموقع المسؤوليّة على الناس والمجتمع، بل على جميع ما في الأرض من كائنات،

وهو الموقع الذي يمكن أن يُعبّر عنه بأن «الإمام مولى كل مؤمن ومؤمنة»، وبأنّه «أولى بالمؤمنين من أنفسهم»<sup>(١)</sup>.

ولعلّ في تعبير الآية عمّن تُنفى عنهم الإمامة الإلهيّة بـ «الظالمين»، مع أنّه كان بالإمكان التعبير عنهم بألفاظ وعناوين أخرى، من قبيل: (الكافرين)، أو (المشركين)، أو (العاصين)، أو (المذنبين)، أو غير ذلك من الأوصاف المذمومة، - لعلّ فيه - إشارة واضحة إلى خطّ الممانعة الجهادي والسياسي الذي تسير عليه وتلازمه الإمامة الإلهيّة، وهي الممانعة لكل شكل من أشكال الظلم والاضطهاد والاستكبار.

كما أنّ فيه إشارة واضحة - أيضاً - إلى أنّ كلّ من يمارس شكلاً من أشكال الظلم، فهو ليس سائراً على هدي إمامة من الله، بل إنّما هو متّبع لخطوات الشيطان، وسائر على مسلك أئمة الكفر الذين يهدون إلى النار، الذين قال فيهم تبارك وتعالى: {فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ} [التوبة: ١٢]، وقال في موضع آخر من كتابه العزيز: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْفَيْكَةِ وَيَوْمَ الْقَيْكَةِ لَا يُصْرَبُونَ} [القصص: ٤١].

وبما ذكرناه في هذه النقطة الرابعة، يتّضح لدينا بطلان الاتجاه السائد لدى بعض المذاهب الإسلاميّة، وهو الاتجاه الذي يصرّ على التفكيك بين الإمامة بمعنى المقام الربانيّ الشامخ، الذي أُعطي مثله لإبراهيم × في الآية المتقدّمة، وبين الإمامة بوصفها منصباً سيادياً وقيادياً وبمعنى الرئاسة الظاهريّة والزعامة الدنيويّة؛ فإنّ الإمامة التي دلّت الآية الشريفة على كونها عهداً إلهياً، وعلى أنّها تُجعل جعلاً، وعلى أنّ صاحبها يُعيّن ويتمّ اختياره من قبل الله تعالى حصراً، وعلى أنّها مقام ربانيّ شامخ، وعلى أنّها قد أُعطيت لإبراهيم × بعد أن أتمّ كلمات ربّه، هي بعينها، الإمامة التي أخذت في الآية بالإضافة إلى الناس، ليكون لها - على أثر هذه الإضافة - أبعاد ثلاثة: أحدها: فرديّ، والآخر: تربيويّ،

والثالث: بُعد قيادي وسياسي واجتماعي.

وعلى هذا الأساس، فليس من الصحيح القول بأن لدينا زعامتين ورئاستين كما يقول به البعض، إحداهما: دينية، والأخرى: دنيوية. بل الإمامة القرآنية التي يريد الله تعالى ليست إلا إمامة واحدة، ولكنها - في عين أنها واحدة - ذات بعدين وجانبين: أحدهما: ديني، والآخر: دنيوي.

فالإمام على الدين هو الإمام على الدنيا، وكذا العكس.. وبالتالي: فلا تحق الإمامة على الدنيا إلا لمن كان إماماً على الدين أيضاً، ولا مجال للتفكيك بينهما بحالٍ من الأحوال. فكل من تبوأ إمامة الناس دنيوياً، وهو ليس بإمام (على الدين) منصوب من قبل الله تعالى أو من قبل نبيه الكريم '، مباشرة أو بالواسطة، فقد تبوأ ما هو ليس بأهل له، فيكون من مصاديق (الظالمين) الذين دلت الآية على نفي الإمامة عنهم.

وبذلك تبطل - أيضاً - الدعوى القائلة: بأن إعطاء منصب الخلافة بعد وفاة النبي ' لبعض الصحابة، مع أن في المسلمين من هو أفضل منه - وهو عليّ × - كان أمراً جائزاً، لا قبح فيه ولا عصيان، غاية الأمر: أنه من باب تقديم المفضل على الفاضل!!

والوجه في بطلان هذه الدعوى: هو أن المفضل لم يكن من حقه - أصلاً - أن يتقدم على الفاضل، بل إن تسلمه الخلافة مع وجود أهلها، مع أنه هو لم يكن من أهلها، أمر باطل، بل ومن مصاديق الظلم والاعتداء والتجاوز، وهو - لعمرى - ظلم عظيم، لما يتركه من آثارٍ جسيمة على الأمة ككل، ولما يؤدي إليه من الانحراف عن الخط الذي رسمه الله تعالى لعباده، والذي أراده لهم، وهو خط الهداية والإمامة الحقة، خط الذين أحسنوا واتبعوا أنبياء الله تعالى من قبل وساروا على هديهم، كما قال جل وعلا: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النساء: ٢٦].

: :

دلّت الآية الكريمة - وبما لا يقبل الشكّ - على لزوم العصمة في الإمام؛ فإنّ انتفاء الظلم - على وجه الحقيقة - لا يكون إلّا بانتفاء المعصية، بجميع أشكالها وأصنافها، بل وبانتفاء إمكانية صدور المعصية من الشخص. وإثبات ذلك يستدعي البحث في نقطتين تتعلّقان بقوله: (الظالمين)، فإنّ هذا الوصف - كما يعبر أهل اللغة والأدب - من المشتقات، والمشتقات تحتوي على عنصرين:

الأول: المصدر، وهو مبدأ الاشتقاق، كالضرب في ضارب، والظلم في ظالم، والقتل في قاتل.

والثاني: الوصف المشتقّ نفسه، وهو اسم الفاعل المأخوذ من المصدر، ك (قاتل) و (ضارب) و (ظالم) في الأمثلة المتقدّمة.

فلا بدّ من البحث في كلا هذين العنصرين. فهاتان - إذاً - نقطتان:

١- النقطة الأولى: ما هو المراد من مصدر الوصف المذكور في الآية؟ أعني: لفظة (الظلم).

«الظلم» في اللغة هو: وضع الشيء في غير موضعه. وهذا المعنى - كما ترى - من المعاني العامّة التي تتناول جميع المجالات، الدينيّ منها والدينيّ، فوضع الشيء في غير موضعه مطلقاً يُسمّى ظلماً، سواء كان في مسألة تتعلّق بشؤون الدين، أم بشؤون الحياة، بشؤون الفرد أم الجماعة.

ولكنّ هذا المعنى العامّ يُطبّق في الاستعمالات الشرعيّة والإطلاقات القرآنيّة على معنى: التعديّ لحدود الله مطلقاً؛ لقوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٢٩]، وقال تعالى في موضعٍ آخر: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [الطلاق: ١].

وفي هذا يقول الراغب الإصفهانيّ - ما نصّه -:

«والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدولٍ عن وقته أو مكانه». ثم قال: «الظلم ثلاثة: الأول: ظُلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]، ... والثاني: ظُلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله: {وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ} إلى قوله: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: ٤٠]... والثالث: ظُلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} [فاطر: ٣٢]، وقوله: {ظَلَمْتُ نَفْسِي} [النمل: ٤٤]، ... وكلٌّ من هذه الثلاثة في الحقيقة ظُلم للنفس؛ فإنَّ الإنسان في أول ما يُمّ بالظلم فقد ظلم نفسه، فإذا، الظالم أبداً مبتدئ في الظلم، ولهذا قال تعالى في غير موضع: {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [النحل: ٣٣]... وقوله: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [الزمر: ٤٧]، فإنه يتناول الأنواع الثلاثة من الظلم...»<sup>(١)</sup>.

وعلى ضوء ما قدّمناه، يتّضح: أنّ الذي يتّصف بوصف (الظالمين) الوارد في الآية محلّ البحث: هو كلّ شخصٍ تعدّى حدود الله، وأقدم على ارتكاب معصية من المعاصي، بدءاً بالشرك الذي هو ظلم عظيم، وصولاً إلى سائر المعاصي والذنوب، المتوعّد عليها بالنار (الكبائر)، وغيرها (المعبر عنها بالصغائر). فالظلم لا ينتفي عن الشخص إلاّ باتتفاء جميع أشكال المعصية، أو فقل: إنّ الوحيد الذي يحقّ له أن يتّصف بغير الظالم هو المعصوم دون سواه من الناس؛ إذ جميع من سواه، فهو ممّن يجوز عليه أن يرتكب الذنب.

وفي هذا يقول الشيخ الطوسي + - بعد أن قرّب الاستدلال بالآية -:  
«... وكان من ليس بمعصوم، وإن كان ظاهره جميلاً، يجوز أن يكون مُبْطِناً للظلم والقبح، ولا أحد ممّن ليس بمعصوم يُؤمّن ذلك منه، ولا يجب فيه، فيجب - بحكم الآية - أن يكون من يناله العهد - الذي هو الإمامة - معصوماً،

وفي هذا يقول الشيخ الطوسي + - بعد أن قرّب الاستدلال بالآية -:

«... وكان من ليس بمعصوم، وإن كان ظاهره جميلاً، يجوز أن يكون مُبْطِناً للظلم والقبح، ولا أحد ممّن ليس بمعصوم يُؤمّن ذلك منه، ولا يجب فيه، فيجب - بحكم الآية - أن يكون من يناله العهد - الذي هو الإمامة - معصوماً،



حتى يؤمن استساراه بالظلم، وحتى يوافق ظاهره باطنه»<sup>(١)</sup>.

٢- النقطة الثانية: ما هو المراد من الوصف المذكور في الآية؟ أعني: لفظة (الظالم).

فإنَّ المراد من (الظالم) في الآية الشريفة - باديء ذي بدء - يمكن أن يكون واحداً من الاحتمالين التاليين، (ولا ثالث لهما بحسب الظهور العرفي):

أ) (الظالم) بمعنى: كل من صدر منه الظلم، ولا يزال يصدر منه، وإن شئت فقل: هو الظالم ما دام ظالماً. فالمقصود من الآية: أنَّ عهد الله لا ينال الظالمين ما داموا ظالمين، ويترتب عليه: أنَّ الظالم إذا تاب لم يبقَ ظالماً، وبالتالي: فيمكن أن تناله الإمامة وعهد الله، فالآية الكريمة لا تدلُّ على أنَّ الإمامة لا تنال الظالم بعد توبته؛ لأنَّه حينئذٍ - أي: بعد أن تتحقَّق منه التوبة - لا يصدق عليه اسم الظالم، وإنَّما تدلُّ على أنَّ الظالم ما دام لم يتب من ظلمه فإنَّ الإمامة لا تناله ولا تبلغه.

ب) (الظالم) بمعنى: كل من صدر منه الظلم في زمانٍ من الأزمنة، سواء تاب منه وأصلح أم لم يتب ولم يُصلح، وسواء كان الظلم لا يزال يصدر منه أم أنَّه انقطع عنه. وبعبارة أخرى: فالظالم في الآية هو من وُجد منه الظلم وقتاً ما، وإن لم يكن في الحال ظالماً مباشراً للظلم ومرتكباً له، بل كان تائباً منه. فالآية - على تقدير هذا الاحتمال - تدلُّ على عدم نبيل الإمامة، التي هي عهد من الله تعالى وأمانة منه، للظالم مطلقاً، وذلك لمجرد صدور الظلم منه، ولو لمرة واحدة، سواء أقلع عن ظلمه أم لا.

هذا.

ولكنَّ الاحتمال الأوَّل غير صحيح؛ لأنَّه يقتضي أن تُحمل الآية الشريفة على معنى ضعيف، وأن يرد عليها - والعياذ بالله - إشكال اللغويَّة (أي: أن تكون الآية لغواً، وليست لإفادة معنى يحتاج إلى الإفادة).

توضيح ذلك: أنَّ الاحتمال الأوَّل يجعل الآية مسوقة لغرض الإخبار عن

قضية مفادها: أن الظالم ما دام ظالماً لا تناله الإمامة ولا تبلغه؛ فإن قوله تعالى: {قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} - بناءً على هذا الاحتمال - يُصبح معناه: (لا ينال عهدي الظالمين ما داموا على ظلمهم، وما داموا لم يتوبوا بعد من ظلمهم الذي ارتكبه). ومعلوم أن مثل هذه القضية تعدّ من الواضحات الأوّليات التي لا يكاد يتطرّفها الشكّ لدى أحدٍ من العقلاء؛ إذ إنّ مباشرة الظلم وممارسته ممّا لا يمكن اجتماعها بحالٍ من الأحوال مع الإمامة بمعنى العهد الإلهي، وهذا حكمٌ معلوم وثابت ببديهة العقل، ولا يحتاج دفع توهمه إلى إنزال آية من السماء به؛ إذ لا مجال لأن يتوهم فيه عاقلٌ أبداً. فكيف يصحّ لنا - والحالة هذه - أن نبني على الاحتمال الأوّل الذي يفترض أن الآية - وهي كلام الحكيم العليم الذي لا يتطرّق إليه ولا إلى كلامه عبث ولا لغو - ناظرة إلى إفادة حكمٍ لا يحتاج إلى إفادة، وإلى بيان معنى لا يحتاج إلى بيان؟!

أولا يكون هذا من مصاديق حمل الكلام على ما يُلصق به تُهمة اللغو؟! والتي يتنزّه عنها كلام الباري جلّ وعلا؛ إذ هو {لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢].

فيتعيّن لذلك أن يكون الصحيح هو الاحتمال الثاني، ومعه: فيكون المستفاد من الآية: أن الإمامة عهد إلهي لا يمكن أن ينال أحداً ممّن صدر منه الظلم وقتاً ما في حياته، سواء تاب من بعد ذلك أم لم يتب. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: فإنّ قوله تعالى: {قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، مسوق في معرض الجواب عن سؤال إبراهيم الخليل × الإمامة لذريّته، بقوله: {قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}.

والذي تُثبتته قواعد التفاهم والتخاطب العرفي هو أن الجواب ينبغي أن يكون على طبق سؤال السائل، وإلا، لم يكن جواباً له، فالمجيب لا بدّ له يأتي في

جوابه بما هو مسؤول عنه.

والسؤال في الآية الشريفة هو طلبٌ للإمامة لبعض الذرية، لا لجميعهم، بدليل: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، فإنه اشتمل على (من) التي هي حرف للتبعية، فالخليل × لم يطلب الإمامة لجميع ذريته، بل طلبها لبعضٍ منهم فقط. وهذا البعض الذي طلب له الإمامة:

- أ. إماما هو البعض الذين لم يظلموا أصلاً.
- ب. وإماما هو البعض الذين ظلموا ولم يتوبوا.
- ج. وإماما هو البعض الذين ظلموا ثم تابوا.
- د. وإماما هو البعض مطلقاً، أعم من الذين ظلموا والذين لم يظلموا، من الذين لم يتوبوا بعد ظلمهم والذين تابوا.

ولا شك ولا ريب في عدم صحّة الوجه الثاني (ب).

وأما الوجه الأول (أ)، فهو وإن كان مقبولاً في حدّ نفسه، إلا أنه لا يتلاءم مع الجواب: {لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}؛ لأنه إذا كان إبراهيم × قد سأل الإمامة للبعض غير الظالمين من ذريته، فلماذا يُجاب - حينئذٍ - بنفي الإمامة عن الظالمين؟! فيكون هذا الوجه بعيداً عن ظهور الآية.

وأما الوجه الثالث (ج)، فهو بعيد عن سياق ظهور الآية، بل هو بعيد في حدّ نفسه، كما هو واضح؛ إذ لماذا يعمد إبراهيم × إلى اختيار خصوص الظالمين التائبين من ذريته لطلب الإمامة؟! ولماذا فضّل هؤلاء على البعض الذين لم يقع منهم في حياتهم ظلم أصلاً؟! هذا لا وجه له، ولا يتصوّر وقوعه من خليل الله، الذائب عشقاً في الله، الذي يحبّ في الله ويبغض في الله. وكما قال العلامة الشيخ محمد جواد مغنّية &: «وهنا سؤال نُلقّيه على كلّ عاقلٍ مُنصف، ليُجيب عنه بوحى من عقله ووجدانه، وهو: مألّ لقاصِر ورثه عن أبيه، ولا بدّ له من وليٍّ يحرص ويحافظ

عليه، ودار الأمر بين أن نوليّ عليه رجلاً لم يعص الله طرفة عينٍ مدى حياته، لا صغيراً ولا كبيراً، وبين أن نوليّ عليه رجلاً عصاه أمداً طويلاً، وهو بالغ عاقل، ثمّ تاب وأناب، فأتيهم نختار: الأوّل أو الثاني؟!»<sup>(١)</sup>.

فتعيّن أن يكون المراد هو الوجه الرابع (د).

وعلى هذا الوجه، ف (البعض) وإن كان يحتمل البعض الذين ظلموا ولم يتوبوا، غير أنّه لا بدّ من الالتزام بخروج هذا البعض أصلاً عن مورد السؤال، لما عرفناه آنفاً من أنّه لا يمكن أن يكون إبراهيم × ناظراً في سؤاله الإمامة إلى هؤلاء.

وبذلك يكون الباقي الداخل تحت مورد السؤال: البعض الذين لم يظلموا أصلاً، والبعض الذين ظلموا ثمّ تابوا.

فجاء الجواب الإلهي، وهو: {لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، لينفي إمكانية نيل الإمامة للبعض الذين ظلموا ثمّ تابوا، لتتحصّر الإمامة بذلك في خصوص البعض الذين لم يصدر منهم ظلم أصلاً، وهم المعصومون ليس غير.

قال بعض المحقّقين في المقام - ما لفظه -:

«فنفي سبحانه أن ينال الإمامة ظالم، وهذا يمنع من استحقاق سمة الظلم وقتاً ما من الصلاح للإمامة؛ لدخوله تحت الاسم المانع من استحقاقها.. وأيضاً: فإنّه سبحانه أخبر بمعنى الأمر أنّ الظالم لا يستحقّها، وخبره متعلّق بالمخبر على ما هو به، فيجب فساد إمامة من يجوز كونه ظالماً، وذلك يقتضي وقوف صلاحها على المعصوم... وليس لأحد أن يقدح في بعض ما مضى بأنّ التائب من الظلم لا يكون ظالماً؛ لأنّ (ظالماً) من أسماء الفاعلين في اللّغة، كقاتل وضارب، وليس باسمٍ شرعيّ، والأسماء المشتقة من الأفعال ثابتة بعد التوبة، كشبوته قبلها، يقولون: هذا قاتل زيد وضارب عمرو وخاذل عليّ، وإن تابوا ممّا اقترفوه، ولو كان من الأسماء الشرعيّة لقبح هذا الإطلاق بعد التوبة، كفاسق وكافر...»<sup>(٢)</sup>.

فصح - إذا - ما تذهب إليه الإمامية من أن الإمامة تستلزم العصمة ولا تنفك عنها، فالإمام ليس إلا من عصمه الله وطهره من كل رجس أو زلل، قال تعالى: { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [الأحزاب: ٣٣].

: :

دلّت الآية الشريفة، وبكلّ وضوح، على أن المعايير والموازن الإلهية المعتمدة في إعطاء المناصب الرسالية بعيدة كل البعد عن الامتيازات الإرثية والتصنيفات العائلية والعشائرية والقبلية والعرقية والقومية...

فالإمامة ليست ملكاً يعيش صاحبه هاجس توريثه وتمليكه ونقله لمن يعقبه من ذريته وأقاربه وأرحامه، وليست كرسياً للتشريف تتوارثه الأسر الحاكمة جيلاً بعد جيل، وليست منصباً فخرياً يُكرّم فيه شخصٌ معيّن انطلاقاً من دوافع ذاتية وشخصانية، بل الإمامة مسؤولية رسالية هادفة تتصل بخلافة الله في الأرض، وتُعنى بالإشراف على تحقيق الأهداف الإلهية المرتبطة بهداية الناس وتدبير حياتهم وشؤونهم.

والإمامة الحقّة منصب لا يمنع منه إلا الظلم، ولا يحول بينه وبين العبد إلا الخروج عن رتبة العبوديّة، والانحراف عن طريق الحقّ، والابتعاد عن جادة الصواب، والنأي عن الصراط المستقيم، وهو صراط الحقّ الذي عليه جميع أنبياء الله تعالى وأئمّته <sup>٨</sup>، كما قال سبحانه: { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } <sup>(٨٣)</sup> وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ <sup>(٨٤)</sup> وَرَكَرَبْنَا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصّٰلِحِينَ <sup>(٨٥)</sup> وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا

فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { [الأنعام: ٨٣-٨٧].

ومن البديهي أن إمامة كهذه، وبهذا المستوى، تتطلب درجة عالية جداً من التقوى، والعبودية، والاستقامة، والكفاءة، وطهارة الذات، والاستعداد الروحي والنفسي، والعلم، والانسجام مع أهداف الرسالة وخطوط الدعوة، وهي - هذه الدرجة - هي التي نعبر عنها بـ «العصمة».

:

ونكتفي في المقام باستعراض أخبار أربعة ترتبط بمدلول الآية المتقدمة، بعضها وارد من طرق أهل البيت المعصومين <sup>٨</sup>، وبعضها الآخر مشترك بينهم وبين غيرهم. ومن خلال هذه الأخبار نستطيع أن نتبين أهمية الإمامة، وعلو شأنها، وعظم منزلتها في الإسلام.

#### (١) الخبر الأول:

ما في أصول الكافي عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن أبي يحيى الواسطي، عن هشام بن سالم ودرست بن أبي منصور، عنه، قال: «قال أبو عبد الله X [الإمام جعفر الصادق]: ... وقد كان إبراهيم X نبياً وليس بإمام، حتى قال الله: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي {، فقال الله: {لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً» <sup>(١)</sup>.

وهو ظاهر، بل صريح، في أنه يكفي في صدق عنوان (الظالم) على شخص أن تتحقق منه، ولو في آن من الآفات، عبادة لغير الله تعالى، من صنم أو وثن، سواء تاب عن ذلك أم لم يتب، وسواء جبَّ الله تعالى عنه وزر العبادة لغيره بالدخول في الإسلام أم لم يفعل، فإن الخبر ورد بلفظ (من عبد)، وليس بمثل لفظ: (من كان يعبد)، أي: أنه وارد بصيغة الفعل الماضي المجرد عن معنى

الشأنية، ومعلوم أنه يكفي في تحقق مدلول الفعل الماضي - كما ينص على ذلك أهل اللغة والأدب - أن يكون مدلوله قد صدر زمنًا ما قبل زمن التكلم، سواء تتابع واستمر على الصدور إلى حين زمن التكلم، أو انقطع قبله.

## (٢) الخبر الثاني:

ما في الكافي الشريف - أيضاً - عن زيد الشحام قال: «سمعتُ أبا عبد الله يقول ×: إنَّ الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتَّخذه نبياً، وإنَّ الله اتخذ نبياً قبل أن يتَّخذه رسولاً، وإنَّ الله اتخذ رسولاً قبل أن يتَّخذه خليلاً، وإنَّ الله اتخذ خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء، قال: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}، قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، قال: لا يكون السفية إمام التقي»<sup>(١)</sup>.

وقد دلَّ هذا الخبر على سلّم التراتبية المعتمد في المعايير الإلهية تجاه عناوين: العبودية، والنبوة، والرسالة، والخلة، والإمامة. فإبراهيم × نال العبودية بالدرجة الأولى، فصار بذلك مؤهلاً وجديراً بمقام النبوة، ثم بعد أن حاز على هذا المقام ارتقي إلى مقام الرسالة، ثم كانت الذروة في تكامله، وبعد أن (جمع الله له الأشياء)، شرفه الله تعالى بجعل الإمامة له وعهد بها إليه. وإن أدنى تأمل في قوله ×: «فلما جمع له الأشياء»، يدلُّنا بوضوح على أنَّ مقام الإمامة الإلهية هو الأعظم من بين هذه المقامات، وهو أرفع هذه المنازل.

كما في الخبر دلالة أيضاً - على ما أسلفناه - من أنَّ إبراهيم × استعظم هذا المقام، ورآها في عينه عظيمةً، فلذلك طلبها لبعض ذريته.

وفيه - أيضاً - إشارة إلى ما يدلُّ عليه العقل، ويعمل به العقلاء، وهو لزوم تقديم الفاضل على المفضول، وقبح تقديم المفضول مع وجود الفاضل، في قوله ×: «لا يكون السفية إمام التقي»، فيما يعني: أنَّ الظلم - ومنه: المعصية وظلم النفس - من مصاديق السفه، والسفيه ليس بأهل للقيادة والإمامة، ولا

سيّما مع وجود التقيّ، وهو المعصوم، الذي لم يرتكب - في حياته - سفهاً، ولم يقل شططاً.

### (٣) الخبر الثالث:

ما رواه الشيخ الصدوق في «عيون أخبار الرضا X» عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبد العزيز بن مسلم قال: «كُنَّا فِي أَيَّامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرُّضَا X بَمُرُو، فَاجْتَمَعْنَا فِي مَسْجِدِ جَامِعِهَا فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ فِي بَدْءِ مَقْدَمِنَا، فَإِذَا رَأَى النَّاسُ أَمْرَ الْإِمَامَةِ، وَذَكَرُوا كَثْرَةَ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهَا، فَدَخَلْتُ عَلَى سَيِّدِي وَمَوْلَايَ الرُّضَا X فَأَعْلَمْتُهُ مَا خَاضَ النَّاسُ فِيهِ، فَتَبَسَّمَ X، ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ، جَهْلُ الْقَوْمِ وَخُدْعَا عَنْ أَدْيَانِهِمْ. إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَقْبِضْ نَبِيَّهُ ' حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ الدِّينَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فِيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ، بَيْنَ فِيهِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، وَجَمِيعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ كَمَلًا، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]، وَأَنْزَلَ فِي حَبَّةِ الْوَدَاعِ، وَفِي آخِرِ عَمْرِهِ ' : {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]، وَأَمْرُ الْإِمَامَةِ فِي تَمَامِ الدِّينِ، وَلَمْ يَمْضِ ' حَتَّى بَيَّنَّ لَأَمَّتِهِ مَعَالِمَ دِينِهِمْ، وَأَوْضَحَ لَهُمْ سَبِيلَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ عَلَى قَصْدِ الْحَقِّ، وَأَقَامَ لَهُمْ عَلِيًّا X عَلَمًا وَإِمَامًا، وَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِلَّا بَيْنَهُ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُكْمِلْ دِينَهُ، فَقَدْ رَدَّ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ رَدَّ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ، هَلْ تَعْرِفُونَ قَدْرَ الْإِمَامَةِ وَمَحَلَّهَا مِنَ الْأُمَّةِ فَيَجُوزُ فِيهَا اخْتِيَارُهُمْ؟! إِنَّ الْإِمَامَةَ أَجَلٌ قَدْرًا وَأَعْظَمُ شَأْنًا وَأَعْلَى مَكَانًا وَأَمْنَعُ جَانِبًا وَأَبْعَدُ عَوْرًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَهَا النَّاسُ بِعَقُولِهِمْ، أَوْ يَنَالُوهَا بِأَرَائِهِمْ، أَوْ يُقِيمُوا إِمَامًا بِاخْتِيَارِهِمْ. إِنَّ الْإِمَامَةَ خَصَّ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ X بَعْدَ النَّبَوَّةِ وَالْخُلَّةِ مَرْتَبَةً ثَالِثَةً، وَفَضِيلَةً شَرَفَهُ اللَّهُ بِهَا، وَأَشَادَ بِهَا ذِكْرَهُ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}، فَقَالَ الْخَلِيلُ X سُرُورًا بِهَا: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، فَأَبْطَلَتْ



هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة...». الخبر (١).

وقد تضمّن هذا الخبر مجموعة من النقاط، نشير إليها فيما يأتي:

١. إنّ مفهوم الإمامة عند عامّة الناس قد تعرّض للتشويه والتحريف، وأنّهم كانوا يجهلون حقيقة هذا المنصب والمقام، ويخوضون فيه، ويكثر اختلافهم بشأنه، نتيجةً لابتعادهم عن هدي القرآن والسنة، كما قال ×: «جهل القوم وخُذعوا عن أديانهم».

٢. إنّ موضوع الإمامة لا يمكن أن يكون ممّا ترك النبيّ الأعظم ' أمر بيانه وإبلاغه للناس، فإنّ الله تعالى قد أتمّ دينه للنبيّ '، والإمامة من صلب مسائل الدين (في تمام الدين)، بل هي من مهمّات المسائل الدينيّة، بل إنّ حكمها وحالها وصاحبها مبين في القرآن الكريم نفسه، حيث لم يُقرّط فيه في شيء - كما دلّت عليه الآية -، وقد أوضح النبيّ ' كلّ ذلك للناس قبل وفاته وارتحاله عنهم، وأقام الحجّة عليهم، ولم يُبق عُذراً لأحد، فهو ' قد بين لهم جميع ما يحتاجون إليه، ولا ريب في أنّ حاجتهم إلى ما يرتبط بموضوع الإمامة والخلافة من بعده هي أهمّ بكثير من حاجتهم إلى أمور أخرى بينها لهم.

٣. إنّ دعوى إهمال القرآن الكريم أو النبيّ الأعظم ' لبيان مسألة الإمامة هي شكل من أشكال الردّ لكتاب الله عزّ وجلّ، والردّ لكتاب الله هو أحد الطرق المؤدّية حتماً إلى الكفر.

٤. إنّ قدر الإمامة ومنزلتها مجهول لدى الناس، وهي أبعد غوراً من أن يناله الناس بعقولهم، وإنّ دورها ووظيفتها وصفتها ومحلّها في الأُمَّة، كلّ ذلك، ممّا لا ترقى إليه معرفتهم، ومع جهلهم بها، فكيف استباحوا حرمتها وأجازوا لنفسهم أن يُدلو فيها بدلائلهم، وأن ينالوها بآرائهم، وأن يُدخلوا عليها اختياراتهم؟! «هل تعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأُمَّة فيجوز فيها اختياراتهم؟!». وآتى للجاهل بشيء أن يجادل فيه، أو أن يكون له رأي بشأنه؟! هذا قول بغير علم،

والقول بغير علم قبيح عقلاً، ومنهجي عنه شرعاً، ولا سيما أنّ المسألة على جانب كبير من الأهمية والخطورة، فالخطأ فيها خطأ جسيم، وتبعاته ثقيلة وقاتلة.

٥. إنّ الله تعالى شرف إبراهيم النبي والخليل X ، بعد النبوة والخلة، بمرتبة ثالثة، وفضيلة زائدة، وهي الإمامة. فقد يكون الإنسان نبياً، ولا يكون إماماً، بل قد يكون خليلاً، ولا يكون إماماً.

٦. إنّ الإمامة بعد أن استبعدتها الآية المتقدمة عن الظالمين، انحصرت في دائرة الصفوة. ونقول هنا: إنّ عنوان «الصفوة» كجذر قرآني، يختص بالمطهرين المعصومين المختارين من قبل الله تعالى، قال الراغب الأصفهاني في مادة «صفو» ما نصّه:

«صفو، أصل الصفاء، خلوص الشيء من الشوب، ومنه الصفا، للحجارة الصافية... والاصطفاء تناول صفو الشيء، كما أنّ الاختيار تناول خيره، والاجتباء تناول جبايته. واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه...»، انتهى موضع الحاجة من كلامه (١).

وليس الاصطفاء - قرآنيّاً - من مختصات الأنبياء والرسل، وذلك بقرينة قوله تعالى في حق السيدة مريم: {وَلِذَٰلِكَ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفٰكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفٰكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٤٢].

وكيفما كان، فإنّه - أعني: الاصطفاء - كما دلّ عليه الحديث، جعل على طرف النقيض من (الظلم)، فكلّ من تأتّى منه الظلم فليس من الصفوة، فلا يمكن أن يكون إماماً، فالإمامة ليست إلّا فيمن عصمه الله من الزلل، ولا سبيل للناس إلى معرفة المعصوم، فانحصرت طرق تعيين الإمام في طريقة واحدة، وهي التعيين الإلهي.

(٤) الخبر الرابع:

ما عن مناقب الفقيه ابن المغازلي الشافعي، قال: أخبرنا أحمد بن الحسن بن أحمد بن موسى القندجاني، قال: أخبرنا أبو الفتح هلال بن أحمد الحفّار، قال: حدّثنا إسماعيل بن عليّ بن رزين، قال: حدّثني أبي وإسحاق بن إبراهيم الديري، قال: حدّثنا عبد الرزّاق، قال: حدّثني أبي عن مينا مولى عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ['] : «أنا دعوة أبي إبراهيم. قُلْتُ: يا رسول الله، وكيف صرّت دعوة أهلك إبراهيم، قال ['] : أوحى الله عزّ وجلّ إلى إبراهيم: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}، فاستخفّ إبراهيم الفرح، قال: ومن ذرّيتي أئمة مثلي؟ فأوحى الله عزّ وجلّ: أن يا إبراهيم إنّي لا أُعطيك عهداً لا أفي لك به، قال: يا ربّ، ما العهد الذي لا تفني لي به، قال: لا أُعطيك لظالم من ذرّيتك عهداً، قال إبراهيم عندها: {وَأَجْبُنِي وَبِئْسَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} (٣٥) رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ { [إبراهيم: ٣٥-٣٦]، فقال النبيّ ' : فانتهدت الدعوة إليّ وإلى عليّ، لم يسجد أحدنا لصنم قطّ، فاتخذني نبياً، واتخذ عليّاً وصياً» (١).

والمستفاد من هذا الحديث مضافاً إلى النقاط السابقة أمور:

الأمر الأوّل: أنّ النبيّ ' - بحسب هذا الحديث - يبيّن لنا أنّ الدعوة التي كان إبراهيم الخليل × قد توجّه بها إلى ربّه، وهي: جعل الإمامة مستمرة في عقبه وذرّيته، هذه الدعوة، قد استجابها الباري عزّ وجلّ من خلال خاتم النبيّين '، فهو ' قد أعطي هذه الإمامة - أيضاً - كأبيه إبراهيم ×، بل وفي ذيل الحديث تصريح: بأنّ هذه الإمامة قد أُعطيت له ' ولعليّ × - «فانتهدت الدعوة إليّ وإلى عليّ» -.

الأمر الثاني: أنّ الظلم المذكور في الآية الشريفة يتناول بمفهومه عبادة غير الله تعالى، والسجود الأصنام، ولو للحظة واحدة. فإنّ إبراهيم × طلب من ربّه عزّ وجلّ أن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام، جاء ذلك منه × كردّة فعل على

النفي الإلهي للإمامة عن الظالمين، ما يعني: أن ما فهمه إبراهيم × من الظلم الموجب لنفي الإمامة هو معنى يعمّ عبادة غير الله، وليس خصوص الظلم بمعنى التجاوز والاعتداء والممارسة السلوكية المعروفة، وكما قلنا سابقاً، فإنّ فهم أنبياء الله <sup>٨</sup> لا ينبغي حمله على أن يكون مجرد تحليل شخصي أو فهم عادي، بل هو فهم مستند إلى الوحي يتنزه تماماً عن تدخل الأهواء والأمزجة والطباع.

وكذلك، فقد علّل النبي الأعظم ' إعطاء الإمامة له ولعليّ × - كما يظهر من الحديث - بأنه «لم يسجد أحدنا لصنم قطّ»، فدّل بذلك على أنّ انتفاء الظلم المقتضي لاستحقاق مقام الإمامة الإلهية لا يكون إلّا بانتفاء عبادة غير الله تعالى مطلقاً، بأن لا يكون الشخص قد تورّط بعبادة غير الله في آنٍ من آتات حياته، وإن قُدّر له أن يتوب بعد ذلك.

الأمر الثالث: أنّ الإمامة الإلهية بالمعنى الذي أُعطي لكلّ من إبراهيم ×، ونبينا الكريم '، لا تتقوّم بالنبوة، بل يمكن أن يحوز عليها غير الأنبياء أيضاً، شريطة أن تكون فيهم مواصفات ومؤهلات ذاتية خاصة تجعلهم محطّ العناية الإلهية، فإنّ عليّاً × لم يكن نبياً، ولكنّه - بمقتضى هذا الحديث - قد نال الإمامة، وهو وصيّ رسول الله '. وبهذا يمكن أن ندّعي صحّة القضيتين التاليتين:

أ. ليس كلّ نبيٍّ إماماً. ب. ليس كلّ إمامٍ نبياً.

وإذا لم يكن كلّ نبيٍّ إماماً - حيث لم يدلّ دليل واضح على أنّ كلّ نبيٍّ من أنبياء الله قد كُتِب له أن يُعطى هذا المقام الشامخ -، يثبت أنّ بعض غير الأنبياء ممّن قد نالوا الإمامة، وهم - بحسب ما نعتقده نحن - الأئمة الاثنا عشر من أهل البيت <sup>٨</sup>، هم أفضل من بعض الأنبياء، أعني بهم: الأنبياء الذين لم ينالوها. فالإمام أفضل من غير الإمام مطلقاً، أي: سواء كان الإمام نبياً أم لم يكن،

وسواء كان غير الإمام نبياً أم لم يكن.

وعليه: فالإمامة الإلهية والقرآنية التي أشرنا فيها سبق إلى أنها أرفع درجة من النبوة - (بمقتضى: أن إبراهيم × قد أُعطيها بعد نبوته) - ليس من الضروري أن تكون مسبقة بالنبوة. بل قد لا يمر الإنسان في سيره نحو الإمامة بمقام النبوة أصلاً.

وليس في ذلك حطٌّ من شأن مقام النبوة أصلاً، بل عظمتها وسمو مقامها وارتفاع شأنها وقصور عموم الناس عنها، كل ذلك محفوظ ثابت لها، وإنما هو بيان لوجود منصب رباني أعظم منها، وهو منصب الإمامة الإلهية. نعم، لا يدل الحديث المذكور - كما أننا لا نملك دليلاً فيما أعلم - على أن الإمامة، هذا المنصب الإلهي الشامخ، يمكن أن تثبت لأحد من خارج دائرة الأنبياء والأوصياء، فهي منحصرة بهم، ولا تنال غيرهم.

هي دعوة للمسلمين كافة أن يتدبروا ما تواتر نقله من طرق الفريقين، وهو قول النبي الأكرم : '«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»' (١). فقد دلّ هذا الحديث، كآلية المتقدمة، على أن مسألة الإمامة هي من المسائل المصيرية والخطيرة جداً في حياة كل مسلم، حيث إن موت المسلم مسلماً، وعلى دين الإسلام، جعل في الحديث متوقفاً على أن يكون عارفاً بإمام زمانه، وفي عنقه بيعة له.

كما أن آية العهد الإلهي دلت على أن الهداية، على صعيد الأمة والفرد معاً، مرهونة بالسير على خط الإمامة الإلهية، والاقتداء بالإمام المعصوم، الذي جعله الله للناس إماماً.

وعليه: فإن رامت أمة الإسلام النهوض بنفسها، ونفض غبار الذل عنها،

والتحليق في سماء العلم والحضارة، واستعادة قوّتها منعتها، وعودة العزّة المحمّديّة لها، فالطريق لذلك منحصر بالرجوع إلى المعصومين الذين لم يسجدوا لغير الله قطّ، وهم محمّد ' والأئمّة من أهل بيته وعترته <sup>٨</sup>.

وقد قال إمامنا عليّ بن الحسين زين العابدين × في بعض أدعيته، في وصف الإمام وبيان عظمة الإمامة:

«اللّهُمَّ إِنَّكَ أَيَّدْتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ بِإِمَامٍ أَقَمْتَهُ عِلْمًا لِعِبَادِكَ، وَمَنَارًا فِي بِلَادِكَ، بَعْدَ أَنْ وَصَلْتَ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ، وَجَعَلْتَهُ الذَّرِيعَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ، وَافْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ، وَحَذَرْتَ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَالِانْتِهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَأَنْ لَا يَتَقَدَّمَ مَتَقَدِّمٌ، وَلَا يَتَأَخَّرَ عَنْهُ مَتَأَخِّرٌ، فَهُوَ عَصْمَةُ اللَّائِذِينَ، وَكَهْفُ الْمُسْلِمِينَ، وَعُرْوَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِهَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## الهوامش:

(١) وأمّا الدعوى التي تقول بأنّ إبراهيم × إنّما طلب لذريّته الزعامة الدنيويّة والسلطنة الظاهريّة، وليس الزعامة الدينيّة المستلزمة للولاية التشريعيّة، فهي - هذه الدعوى - لا تصمد أمام النقد؛ فإنّ زعامة الدنيا، والسلطة بهذا المعنى، ليست عهداً إلهياً لا ينال الظالمين، بل إنّ أكثر من ينال هذه السلطة - بحكم العادة والتاريخ - هم من الظالمين، بل لم ينلها من المؤمنين إلّا أقلّ القليل. أضف إلى ذلك، أنّ ظاهر الآية الكريمة هو أنّ ما طلبه الخليل × لبعض ذريّته ليس إلّا الإمامة نفسها التي نالها، والتي أخبره الله تعالى بأنّه قد خصّها به وجعلها له، وهي - كما هو ظاهر - الإمامة التشريعيّة ليس غير.

(٢) الظاهر: أنّ من معاني الوحي ما يختصّ بالأنبياء <sup>٨</sup> ويمتنع على غيرهم، ومنها: ما دلّ الدليل القطعيّ على جوازه، بل ووقوعه، بالنسبة إلى غير الأنبياء. قال بعض المحقّقين «والتحقيق: أنّ ارتباط إنسان مع عالم الغيب ونزول الوحي إليه - إمّا بواسطة الملك أو بدونها - قد يكون نزولاً

رسمياً يأتي إليه بحكم يكون بمنزلة إعطاء منصب إلهي، هي النبوة، ولكنها تستلزم الوحي والإلهام، مثل أمراء الملك وحكامه في البلاد، فالنبي من كلف بإحياء شريعة الله وتوحيده على وجه الأرض كمنصب رسمي من قبله تعالى، أو كسفير بينه وبين عباده، ونزول الوحي أو الملك إليه بمنزلة الأحكام والأوامر الرسمية التي تصدر من ناحية الملك إلى وزرائه وأمرائه. وقد يكون ارتباط إنسان مع الله تعالى بالوحي أو بنزول الملك، لا بعنوان أن يكون نبياً ينسب عن الله تعالى أو رسولاً وسفيراً بينه وبين خلقه، بل لتسديده في نفسه، أو ليلتذ بمناجاة ربه؛ لأنه يحبهم ويحبونه، أو يعلمه تعالى وظائفه الشخصية، وإن كانت وظيفته تكميل دين نبية وحفظ الأمة عن الضلال. (والحاصل): أن الوحي على ثلاثة أقسام: أحدها: أن يكون تبليغ رسالته تعالى إلى عباده، وهذا يختص بالأنبياء <sup>٨</sup>. (الثاني): أن يكون لإظهار حبه تعالى له ومناجاته معه وتسديده ونحو ذلك، كما في قضية أم موسى ومريم وذي القرنين، وما روي من نزول الملك إلى فاطمة الزهراء سلام الله عليها وتنزل الملائكة والروح في ليلة القدر على الإمام المعصوم ونحو ذلك. (الثالث): أن لا يكون شيء من الأمرين موجوداً، بل المصالح الإلهية اقتضت رؤية بعض الناس من الأفراد العادية أو الكفار للملك، أو سماعهم صوته، وذلك نظير ما يحكى من رؤية السامري جبرئيل ورؤية قوم لوط للملائكة بتصريح القرآن ونحو ذلك. فالإجماع والضرورة تحقّق على أن الوحي ونزول الملك بالمعنى الملازم للنبوة يختص بالأنبياء، وأنها انقطعت بعد وفاة النبي ' بالكلية، وإن من ادعى ذلك لغير الأنبياء فقد أخطأ وكفر. وأما بالمعنى الثاني والثالث فلم يجمع إجماع على بطلانه، بل ربما يؤدي إنكاره إلى إنكار صريح القرآن في آيات كثيرة، وإنكار روايات متواترة، وقضايا تاريخية واعتقادية ثابتة باليقين». انظر: أوائل المقالات، ص ٢٨٨ - ٢٩٠، من تعليقة الشيخ إبراهيم الأنصاري الزنجاني الخوئي على كلام الشيخ المفيد. ط دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤ هـ، بيروت.

(٣) العلامة الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ١: ٢٦٨، ط مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم المقدسة، ط ٥، ١٤١٧ هـ، قم.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) البيعة من قبل المسلمين، أو من قبل أهل الحل والعقد، وإن أمكن أن يقال بأنها قد ثبتت - تاريخياً - فيما يتعلق بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ×، إلا أن ما نعتقه هو أن إمامته × لم تكن مستمدة - في مشروعيتها الدينية والولائية - من هذه البيعة، بل من التنصيب الإلهي المدلول عليه بأدلة مختلفة من الكتاب والسنة، فصلها علماء مدرسة أهل البيت <sup>٨</sup> في كتبهم الكلامية والتفسيرية. وإن كانت المشروعية السياسية والاجتماعية - بمعنى: المقبولية الجماهيرية وفي أوساط

الناس - قد تكون بحاجة إلى مثل هذه البيعة. فليتأمل.

(٦) ويبدو لنا هنا: أن دعوى كون الجارّ والمجرور هنا متعلّقين باسم الفاعل، وهو (جاعلك)، وليس متعلّقين بقوله: (إماماً)، - هذه الدعوى - لا تنسجم مع مقتضيات الاستظهار العرفي من الآية؛ فإنّ الظاهر منها رجوع هذا المتعلّق إلى الإمامة، وأنّ المعنى - كما ذكرنا في المتن -: إني جاعلك إماماً للناس. وحينئذٍ: فيتّجه السؤال عن سرّ تقديم الجارّ والمجرور (لنّاس) على ما تعلّق به، وهو (إماماً)، وأنّه ما هي النكته البلاغيّة التي تستدعي ذلك؟ وما يمكن أن يقال في وجه ذلك: أنّ النكته البلاغيّة في هذا التقديم هي إفادة أمرين: أحدهما: أنّ إمامته عامّة للناس كافّة؛ إذ لو قال: جاعلك إماماً للناس، لجاز أن يكون للناس إمام غيره معه. والآخر: أنّ إمام الناس منحصر في الإمام الذي يجعله الله إماماً لهم، فغير المجعول من قبله إماماً، فللنّاس أن لا يأمّنوا به.

(٧) راجع: الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة، الإمام أبو جعفر، محمّد بن الحسن، تلخيص الشافي ٢: ٢٥٥، بتحقيق العلامة السيّد حسين بحر العلوم، ط مؤسسة انتشارات محبّين، ط ١.

(٨) في إشارة إلى مقطعين من حديث الغدير المتواتر المعروف بين جميع المسلمين، والذي دلّ - بما لا يتطرّق إليه الشكّ - على أنّ الإمامة الإلهيّة بعد النبيّ الأكرم ' هي - حصراً - لأمر المؤمنين ومولى المتّقين عليّ بن أبي طالب × مباشرة وبلا فصل.

(٩) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٥٣٧ - ٥٣٨، مادّة (ظلم)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، انتشارات طليعة النور، قم المقدّسة.

(١٠) الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة، الإمام أبو جعفر، محمّد بن الحسن، تلخيص الشافي ٢: ٢٥٤، مصدر سابق.

(١١) مغنيّة، الشيخ محمّد جواد، تفسير الكاشف ١: ١٩٨، ط دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ط ١، ١٤٢٤ هـ، في ذيل تفسير الآية. والعبارة التي نقلناها عنه مسبوقه بقوله: «وتشاء الصدق والظروف أن ينشأ غير عليّ في حجر الشرك والرجس وعبادة الأصنام، وأن ينغمس في أرجاس الجاهليّة إلى الأذان، وأن لا ينطق بالشهادة إلّا بعد أن عصي عوده، وبعد أن شبت الأصنام منه ومن سجوده لها، وشاء الله لعليّ بن أبي طالب أن ينشأ في حجر النبوة والطهر، وأن يكبّه محمّد ' وفقاً لإرادة الله، وهو طريّ نديّ، وأن ينزل الأصنام من على عروشها، ويُلقي بها تحت أقدام محمّد...».

(١٢) انظر: أبو الصلاح الحلبيّ، الشيخ تقيّ الدين، تقريب المعارف في الكلام: ص ١٣٣ - ١٣٤، تحقيق وتقديم: رضا الأستاذي، ط ١٤٠٤ هـ.



- (١٣) الكليني، ثقة الإسلام، محمد بن يعقوب، أصول الكافي ١: ١٧٤ - ١٧٥، كتاب الحجّة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمّة<sup>٨</sup>، ح ١، ط دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧ هـ، طهران.
- (١٤) انظر: الكليني، أصول الكافي ١: ١٧٥، كتاب الحجّة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمّة<sup>٨</sup>، ح ٢، مصدر سابق.
- (١٥) الشيخ الصدوق، عليّ ابن بابويه، عيون أخبار الرضا<sup>٩</sup>، ٢: ١٩٥ - ١٩٦، باب ما جاء عن الرضا<sup>٩</sup> في وصف الإمامة والإمام وذكر فضل الإمام ورتبته، تصحيح وتعليق وتقديم الشيخ حسين الأعلمي، ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
- (١٦) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٤٨٧ - ٤٨٨، مادة (صفو)، مصدر متقدّم.
- (١٧) انظر: البهبهاني، السيّد علي الموسوي، مصباح الهداية في إثبات الولاية: ص ١٢٨ - ١٢٩، نقلاً عن غاية المرام: ص ٢٧٠، وبدوره: نقلاً عن: مناقب ابن المغازلي: ص ٢٧٦.
- (١٨) ورد هذا الحديث في مصادر أهل السنة بألفاظ مختلفة، راجع: الطبراني، المعجم الكبير ١٩: ٣٨٨، ح ٩١٠؛ أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء ٣: ٢٢٤؛ الهيثمي، أبو بكر، مجمع الزوائد ٥: ٢١٨؛ المتقي الهندي، كنز العمال ١: ١٠٣، ح ٤٦٣ و ٤٦٤.
- (١٩) انظر: الصحيفة السجّادية: ص ٣٢٢ - ٣٢٣، تحقيق السيّد محمد باقر الموحّد الأبطحي الأصفهاني، ط مؤسسة الأنصارين للطباعة والنشر، ط ١، ١٤١١ هـ، قم.

# مدخل إلى الرؤية الاقتصادية في عهد الإمام

علي × للأشتر

المنهج الواقعي والرؤية البنيوية

□ الدكتور: علي زعيتر (\*)

التمهيد

شهد الفكر الاقتصادي محطات مفصلية ومراحل تحول كبيرة تاريخية أدت إلى تطور الفكر الاقتصادي على المستويات كافة، سواء الفكرية والمنهجية أم أدوات التحليل الرياضي على مستوى علم الاقتصاد، فإن تطور علم الاقتصاد مرهونٌ بشكلٍ كاملٍ بتطور المنهجية أو الرؤية الاقتصادية لكل مرحلة من تلك المراحل.

في هذه المقالة محاولة لقراءة المنهجية الاقتصادية في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب × لملك الأشتر، ومقارنتها مع بعض المنهجيات الاقتصادية المعاصرة.

تركز هذه المقالة على أهمية «الرؤية البنيوية» لدى الإمام علي × في حلّ

(\*) دكتوراه في الاقتصاد النقدي والموارد الطبيعية من جامعة العلامة الطباطبائي / طهران.

المشكلات الاقتصادية من خلال المقارنة والإشارة إلى الرؤى الاقتصادية المختلفة، ولا سيما البنيوية منها، فالتفكير العلمي بالاقتصاد لا يقتصر وحده على المدرسة الليبرالية الكلاسيكية، بل كان علماء الإسلام، وعلى رأسهم الإمام علي × أول من وضع نظريات علمية تفسر وتوضح سلوك الوحدات الاقتصادية تفسيراً مبنياً على المنهج الواقعي<sup>(١)</sup>.

:

تفاوتت الرؤى والمنهجيات الاقتصادية باختلاف التطور التاريخي الاقتصادي للبيئة الاقتصادية لها<sup>(٢)</sup>؛ حيث تراوحت ما بين النظرة الغيبية المطلقة التي ربطت الربح والخسارة والرفاهية والنمو الاقتصادي بالله، أو ما اتسم بربط القوانين الاقتصادية بالدين وإرادة الحاكم آنذاك، إلى النظرة التي اعتبرت أن للسوق قوانينه التي يجب مراعاتها، وأن الربح والخسارة مرهونان لمدى الالتزام بتلك القوانين لتحقيق الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية.

رغم تجاهل دراسات الفكر الاقتصادي التطور الاقتصادي والفكري عند المسلمين، والآراء والمنهجيات الاقتصادية لديهم، فإن البحث في المنهجيات الاقتصادية الإسلامية يرجع إلى عهد الرسول الأعظم<sup>(٣)</sup>، ومن ثم، من أتى بعده من الخلفاء؛ حيث كان الإمام علي بن أبي طالب × أبرز من وضع منهجية ورؤية علمية منسجمة ومتكاملة، والتي ضمّنها عهده للأشتر حين ولّاه مصر<sup>(٤)</sup>.

لذلك عندما نريد أن ندرس المنهجيات الاقتصادية، لا بدّ من الالتفات إلى الرؤية الإسلامية في هذا المجال، وخاصّة عندما ندرك أن في عصور الخلفاء الأربعة، على الأقل، شهد العالم الإسلامي ازدهاراً ونموّاً كبيراً، هو شبيه بما عاشه الغرب بعد التوسّع في العصر الميركانتلي، حيث كانت التجارة المحكّ

الأساسي للنمو، وكان تدفق الذهب يلعب دوراً بارزاً في زيادة فائض ميزان المدفوعات، كما أنه أحدث فائضاً في الموازنة العامة للدولة من خلال العائدات الضخمة، من الخراج والفيء والجزية وغيرها من الموارد المالية آنذاك، الأمر الذي حدا بالدولة إلى التوسع وبناء الأسواق والمدن والبنى التحتية<sup>(١)</sup>.

:X

:

يتلخص النقاش الدائر حول المنهجية الاقتصادية، وكيف تناول الاقتصاديون الاقتصاد بالتحليل في موضوعين: الواقعية<sup>(١)</sup>، والحكمية<sup>(٢)</sup>، حيث أشار نويل كينز إلى أنّ الحكمية هي وسط بين الواقعية والفنّ الذي تحكمه القيم، والتي تتناول ما يجب أن يكون عليه السلوك الاقتصادي<sup>(٣)</sup>، وبطبيعة الحال، مع مرور الزمن ظهرت انتقادات جادة للفكر النيوكلاسيكي أدت إلى ظهور مدارس أخرى تنتمي إلى المنهج الواقعي، وتدعو إلى إعادة النظر في المقولات الاقتصادية، ومن أبرزها: الفكر البنيوي والمؤسسي الذي تكلم عنه نورث<sup>(٤)</sup>. فعلى سبيل المثال، هناك جدل كبير حول ما إذا كان الكلام حول (تعادل باريتو)<sup>(٥)</sup> هو توصيف واقع أو حكم قيم يهدف إلى تحقيق الرفاهية الاجتماعية؛ لذلك نجد أنّ (والراس) يحاول إثبات أنّ التعادل الكلي الذي ينشؤ بناءً على فرضية المنافسة الحرة وسلوك المستهلك يسعى إلى تعظيم المنفعة: هو حكم قيم يرتكز إلى الواقعية التي تؤمن الرفاهية الاقتصادية، والواقعية هي التي تؤدّي إلى العلمية بنظر بوبر وميل واسميث ونويل كينز، والتي من خلال مقارنتها بالمنهج الحكمي أدت إلى نشوء منهجيات ورؤى اقتصادية متفاوته، كذلك الأمر فيما يتعلق بمبدأ اليد الخفية لأدم اسميث، ومفهوم المطلوبة للمستهلك، وغيرها من المقولات الاقتصادية التي لها طابع قيمّي، ولكن يمكن

إثباتها أو نفيها بناءً على منهج الواقعية<sup>(١)</sup>.

:

كتب الإمام علي بن أبي طالب × كتاباً إلى الأشتر حين ولّاه مصر، هو من أسمى وأبدع ما كتبه العقل البشري؛ حيث يمكن اعتباره سفرًا أوضح فيه الرؤية الإسلامية للحكم والإدارة وبناء الدولة العادلة. فالشخصية الجامعة لأمير المؤمنين عليّ × تجعل من الصعب ادّعاء الوصول إلى كلّ جوانب الفكر فيها؛ لذلك نجد أنّ كلّاً بحسبه يغترف من هذا الإبداع ليشرح ما فهمه من كلام أمير المؤمنين ×. هنا في هذه المقالة سعيّ لفهم الرؤية الاقتصادية التي تضمّنها عهد الأشتر مع الإشارة إلى أنّه تمّ الاستفادة من كلام الأمير في كتب أخرى؛ للإضاءة أكثر على تلك الرؤية الاقتصادية.

وقبل التعرّض للعناوين، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ عهد الأشتر هو من الكتب التي تركت أثراً لا يقلّ من حيث الأهمية علمياً عمّا أتى به كارل ماركس أو آدم سميث حول الاقتصاد، على الرغم من عدم تصنيفه ككتاب في الاقتصاد.

وفيما يلي عرّض لأهمّ المقاطع التي تشير وتوضح تلك الرؤية في العهد:

- «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْثَرِ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جَبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا. أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعُدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ، فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجُمُوحَاتِ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ».

- «وَأَعْلَمَ أَنَّ الرِّعْيَةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنصَافِ وَالرَّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجُزْيَةِ وَالْخُرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمُسْكِنَةِ، وَكُلُّ قَدْ سَمَى اللَّهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ 'عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مُحْفُوظًا».

- «وَتَفَقَّدَ أَمْرَ الْخُرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخُرَاجِ وَأَهْلِهِ. وَلَيْكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخُرَاجِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخُرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا، فَإِنْ شَكُوا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً أَوْ انْقِطَاعَ شَرِبٍ أَوْ بَالَةً أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ خَفَّتْ عَنْهُمْ بِمَا تَرَجُّو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلَا يَتَّقِلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّتَ بِهِ الْمُؤَوَّنَةُ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ دُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ وَتَزْيِينِ وَلَاتِيكَ، مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنِ ثَنَائِهِمْ وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِيفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَاعِكَ لَهُمُ وَالثَّقَّةِ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرَفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَّثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ احْتِمَالُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسِهِمْ بِهِ، فَإِنَّ الْعُمَرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَلَتْهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِغْوَاذِ أَهْلِهَا، وَإِنَّمَا يُعَوَّرُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجُمُعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ».

- «ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا، الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِّبِ بِمَالِهِ وَالْمُتَرَفِّقِ بِيَدَيْهِ؛ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ وَجُلَّابُهَا مِنَ الْمُبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ وَحَيْثُ لَا يَلْتَمِسُ النَّاسُ

لِمَوَاضِعِهَا وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سَلِمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلِحَ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ، وَتَفَقَّدَ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ. وَاعْلَمْ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضَيْقًا فَاحِشًا وَشَحًّا قَبِيحًا وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ وَتَحَكُّمًا فِي الْبَيَاعَاتِ؛ وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ، فَامْنَعْ مِنَ الْإِحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ 'مَنْعٌ مِنْهُ. وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْنًا سَمَحًا بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَتَكَلَّ بِهِ وَعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ. ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالرِّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا وَمُعْتَرًّا، وَاحْفَظْ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ وَقِسْمًا مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى، وَكُلُّ قَدْ اسْتُرْعِيَتْ حَقُّهُ، وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ؛ فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّائِبِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهْمِّ، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدَ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ يَمَنْ تَفْتَحُمُهُ الْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ. فَفَرِّغْ لِأَوْلِيكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْحَشِيَّةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ، ثُمَّ اْعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرِّعِيَةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلُّ فَاغْذِرْ إِلَى اللَّهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ. وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيَتَمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السَّنِّ يَمَنْ لَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ؛ وَذَلِكَ عَلَى الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصَدَقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ. وَاجْعَلْ لِدَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تَفَرِّغْ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجَلِّسْ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا، فَتَتَوَاضِعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ 'يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ. ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ، وَنَحِّ عَنْهُمْ الضَّيْقَ وَالْأَنَفَ،

يُسْطِ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ كُتَابَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ، وَأَعْطِيَ مَا  
أَعْطَيْتَ هَنِيئًا، وَأَمْنَعُ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ. ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ  
مُبَاشَرَتِهَا، مِنْهَا: إِجَابَةُ عَمَلِكَ بِمَا يَعْنِي عَنْهُ كُتَابُكَ. وَمِنْهَا: إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ  
عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَخْرُجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ».

:

يتناول الفكر الاقتصاديّ أو الرؤية الاقتصادية في الغالب نظرة علماء  
الاقتصاد إلى أنماط الإنتاج، ومن خلالها يمكن التمييز بين النظم الاقتصادية  
المختلفة ومراحل تطورها ونظرتها إلى الرفاه الاقتصاديّ للمجتمع. يشير  
جالبريث في كتابه (تاريخ الفكر الاقتصاديّ/ الماضي صورة الحاضر)<sup>(١)</sup>: أن  
الفكر الاقتصاديّ وليد البيئة التي ينشأ فيها؛ لذلك فإنّ الأفكار الاقتصادية تعبّر  
عن واقع الحال لدى المنظر والباحث الاقتصاديّ حين يضع نظريّته لتوصيف  
النشاط الاقتصاديّ.

بناءً عليه، يمكن القول بأنّ منهج أمير المؤمنين × في دراسة الاقتصاد كان  
(واقعيًا)، ورؤيته لحلّ المشكلات المعاصرة له كانت رؤية (بنويّة) قائمة على  
فهم حقيقيّ للمشكلات التي تعاني منها البنية الاقتصادية للمجتمع الإسلاميّ  
آنذاك.

:

من خلال قراءة عهد الأمير × للأشتر نجد أنّه ركّز على مجموعة من  
المحاور، وهي:

١. إصلاح النظام السياسيّ وكفاءة الدولة الاقتصادية: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ



الْأَشْتَرِ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جَبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا. أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعُدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ، فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجُمُوحَاتِ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ».

٢. إقرار نظام السوق بعنوان محلّ تلاقي إرادة البائع والمشتري (قانون الطلب والعرض): «وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْنَهُمَا سَمْحًا بِمَوَازِينٍ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحَفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ».

٣. التكامل بين الطبقات الاجتماعية في مختلفها: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الرِّعْيَةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجُرْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الدِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمُسْكِنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللَّهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ 'عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مُحْفُوظًا'.

٤. تعرض النشاط الاقتصادي إلى الدورات التجارية، أي إلى حالات الكساد والرواج، ولا سيما القطاع الزراعي (الخراج): «فَإِنْ شَكُوا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً أَوْ انْقِطَاعَ شَرْبٍ أَوْ بَالَةً أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا عَرَقٌ أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ خَفَّفَتْ عَنْهُمْ بِمَا تَرَجُّو أَنْ يَصْلَحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمُؤُونَةَ عَنْهُمْ».

٥. إمكانية انحراف السوق، فلا يعود أداة كفوءة للاستغلال الأمثل

للموارد، ومن أبرز علائم ذلك وجود الاحتكار: «وَأَعْلَمَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضَيْقًا فَاحِشًا وَشَحًّا قَبِيحًا وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ وَتَحَكُّمًا فِي الْبَيَاعَاتِ؛ وَذَلِكَ بَابٌ مَضَرَّةٌ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوَلَاةِ، فَاُمنَعْ مِنَ الْإِحْتِكَارِ».

٦. يتمحور دور الدولة في مراقبة وتوجيه النشاط الاقتصادي والتدخل للحفاظ على الحد الأدنى من الرفاهية (دولة الرفاه)، ودعم الإنتاج: «ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالرِّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا وَمُعْتَرًّا، وَاحْفَظِ اللَّهُ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ وَقِسْمًا مِنْ غُلَاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى، وَكُلُّ قَدْ اسْتُرْعِيَتْ حَقُّهُ، وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطْرٌ؛ فَإِنَّكَ لَا تُعْذِرُ بِتَضْيِيعِ النَّافَةِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهِمِّ، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلَا تُصْعِرْ حَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدَ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ، وَتَحْفَرُهُ الرِّجَالُ. فَفَرِّغْ لِأَوْلِيكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْحُشْيَةِ وَالتَّوَاضُّعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ، ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْدَارِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلُّ فَاعِذِرٍ إِلَى اللَّهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ. وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُسْرِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السَّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا يَنْصَبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ؛ وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُحَقِّقُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصَدَقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ. وَاجْعَلْ لِدَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ».

٧. تعريف حقوق الملكية بشكل واضح وشفاف: «وَكُلُّ قَدْ سَمَى اللَّهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ' عَهْدًا مِنْهُ

عِنْدَنَا مَحْفُوظًا».

٨. أهميّة النشاط الاقتصاديّ، ولا سيّما الزراعيّ؛ لتنشيط وتدعيم الأمن القوميّ: «وَتَفَقَّدَ أَمْرَ الْخُرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخُرَاجِ وَأَهْلِهِ».

٩. التأكيد على الإنتاج، فتفعيل عجلة الإنتاج تؤدي إلى تفعيل النشاط الاقتصاديّ بأكمله، بمعنى آخر: تقوية جانب العرض لزيادة العمالة والنمو الاقتصاديّ: وَلْيَكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخُرَاجِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخُرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمَّ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا».

١٠. وظيفيّة الموازنة العامة، تخفيف معدلات الضرائب والرسوم بما يؤدي إلى زيادة الاستثمارات وتفعيل عجلة الإنتاج، ولا يضر بإيرادات الدولة. بمعنى آخر: أن لا يؤدي فرض الضرائب والرسوم إلى انكماش اقتصاديّ: خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلَحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمُثُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ وَتَرْزِيْنٍ وَلَا يَتِيكَ، مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِيفَاةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ».

١١. تنظيم السوق: فالسوق هي محلّ تلاقي إرادة البائع والمشتري، وبالتالي هي مكان التخصيص الأمثل للموارد؛ لذلك لا بدّ من التوجه إلى إزالة أيّ عامل قد يؤدي إلى انحراف آليات عمل السوق عن وظيفتها الأصلية في تحقيق أكبر منفعة للبائع والمشتري، ومن أهمّ تلك العوامل هو الاحتكار: «فَامْنَعْ مِنَ الْإِحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ مَنَعٍ مِنْهُ. وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمَحًا بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ

وَالْمُبْتَاعُ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِتَاهُ فَكَفَّلَ بِهِ وَعَاقِبَ فِي غَيْرِ  
إِسْرَافٍ».

:

دأبت الدراسات التي تناولت الاقتصاد الإسلامي على أن تبدأ الحديث  
حول المنهجيات والرؤى الاقتصادية لتخلّص بعدها إلى أن ما هو مطروح من  
الاقتصاد الإسلامي هو (ما يجب أن يكون)، أو اقتصره على بحث تحريم الربا  
أو منع الاحتكار، وأن البحث ليس في علم الاقتصاد؛ لأن ذلك متروك للتجربة  
البشرية.

للأسف، فإن هذه النظرة نابعة من عدم المطالعة الدقيقة للفكر الاقتصادي  
من قبل الدارسين والباحثين، أو اقتصرهم في مطالعتهم للاقتصاد الإسلامي  
على بعض المصادر دون الأخرى. وبشكل عام، يمكن تصنيف الدراسات  
والتحقيقات في الاقتصاد الإسلامي تحت ثلاثة عناوين:

١. الدراسات الفقهية في الاقتصاد.

٢. الدراسات المنهجية والمذهبية.

٣. الدراسات العلمية في الاقتصاد الإسلامي.

لا يسع المجال في هذه المقالة إلى تبيان تلك التصنيفات، إنما تترك إلى مجال  
آخر يتناول فيه بالنقد تلك التحقيقات، ومواطن الضعف والقوة فيها. على كل  
حال، فإن خلاصة ما تناولته تلك التحقيقات كان يتمحور حول رؤيتين:  
الأولى: تعتبر أن الاقتصاد الإسلامي يشترك في كثير من الأمور مع الاقتصاد  
الحديث.

والثانية: تنفي ذلك لتفترض وجود الاختلاف البنوي والأصولي؛ لذا لا  
أريد هنا أن أتعرض لهذا الموضوع، بل أن أبحث الاقتصاد كما ورد من منبعه  
الأصيل، وبناءً على نظرية الشهيد الصدر في تفسير القرآن، أي: أن أعرض

الموضوع على القرآن، وأن استنطقه في ذلك. وخير من نريد أن نستنطقه في الاقتصاد هو: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب × .

الخطأ الكبير الذي ارتكبه الباحثون في الاقتصاد الإسلامي هو الهروب من اعتبار الاقتصاد الإسلامي علماً. والسبب في ذلك بالطبع ناشئ عن عدم المطالعات الدقيقة والشاملة لتاريخ الاقتصاد الإسلامي وغير الإسلامي أيضاً وصولاً إلى الاقتصاد على الفهم الظاهري لعلم الاقتصاد، وكونه عبارة عن رسوم هندسية ومنحنيات وأرقام وأعداد.

هنا تأتي مهمة الفهم الدقيق لعهد الأشر برؤية تحليلية تأخذ الزمان والمكان بالحسبان. وليس من اللازم المقايسة بين الرؤية الاقتصادية في عهد الأشر وغيرها من الرؤى الاقتصادية، وخاصة الرأسمالية؛ لأن الرأسمالية متأخرة عن عهد الأشر، وغير معلوم مدى تأثيرها به من خلال ما تمّ ترجمته إبان عهد الاستشراق، ولكن بكل الأحوال، فإذا دققنا في عهد الأشر نجد أنّ التحليل الاقتصادي تناول أهمّ العناصر التي تكون رؤية اقتصادية تنموية، من قبيل دور الدولة، نظام السوق، الدورات التجارية والتحليل الديناميكي، الزمان والتوقعات، التكامل البنوي بين مختلف أجزاء المجتمع، وبطريقة تحليلية علمية.

× :

طرح أمير المؤمنين من خلال عهد الأشر عدة فرضيات شكّلت في مجملها البناء النظري للمنهج الواقعي الذي تبناه في رؤيته الاقتصادية، وهذه الفرضيات هي:

١. تقسيم المجتمع إلى طبقات لا يستغني بعضها عن بعض، أي: أنّ المجتمع هو عبارة عن وحدة متكاملة ومجموعة أنظمة منسجمة فيها

- بينها، وهذه الفرضية بطبيعة الحال من مسلّمات علم الاجتماع.
٢. أنّ الدولة أو الحاكم له تأثير على النشاط الاقتصاديّ، ولا يمكن أن يقف على الحياد بغضّ النظر عن كيفية التدخّل المطلوب.
٣. أنّ لكلّ وحدة اقتصادية نشاطاً خاصاً بها، وسلوكاً ينسجم والوظيفة الاقتصادية لها، فتعظيم الربح هو سلوكٌ مطلوبٌ لدى البائع، كما أنّ لديه الاستعداد لأن يقوم بالاحتكار لكي يعظّم ربحه.
٤. يتعرّض النشاط الاقتصاديّ إلى تقلّبات دورية ناتجة عن التغيرات في المناخ أو العوامل السياسية وغيرها؛ لذلك عند تحليل سلوك الوحدات الاقتصادية لا بدّ من الأخذ بالحسبان عنصر الزمان، أي: أن يكون التحليل الاقتصاديّ تحليلاً ديناميكياً.
٥. وجود رابطة سببية بين سلوك الوحدات الاقتصادية.
- السؤال الأساسي هو: هل يمكن أن نستنتج من كلام أمير المؤمنين × في عهده للأشتر أنّه قدّم رؤية علمية واقعية للنشاط الاقتصاديّ أم لا؟
- أشار فريدمن في مقالته (الاقتصاد الإثباتي)<sup>(١)</sup> أنّ الواقعية لأيّ نظرية ليست في أن تكون فروضها قابلة للإثبات والنفي، بل في قدرة هذه النظرية على التنبؤ وتوصيف الواقع، أي: في النتائج التي هي بنظر فريدمن المرحلة الثالثة من الواقعية.
- ويمكن إضافة مرحلة رابعة، وهي (الحكمية)، التي تمثّل الغاية من البحث الاقتصاديّ؛ حيث يمكن التسلسل من توصيف الواقع إلى وضع الفروض ومن ثمّ تشكيل النظرية واختبارها، وبعدها مرحلة التنبؤ؛ لنصل إلى المرحلة الرابعة، وهي وضع السياسات والحلول، أيّ المرحلة (الحكمية)، وبذلك تكون قد اكتملت الحلقة بين الاقتصاد (الإثباتي) والاقتصاد (الحكمي).
- بناءً عليه، فإنّ عهد الأمير قد مرّ بتلك المراحل الأربعة، وهي لازمة لكونه

كتبه إلى واليه على مصر للنهوض باقتصادها وبلادها، ولم يكن المهم هو التنظير إلى مرحلة من تلك المراحل، بل إيجاد حلول للمشكلات الاقتصادية؛ لذلك نجده × قد دمج بين التوصيف ووضع النظرية ومباشرة طرح الحلول من خلال (الرؤية البنيوية) في حل المشكلات التي تواجهه.

:

إنّ دراسة وقراءة الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة إبان حكم الخليفة الثالث توضّح لنا لماذا كلّ هذا التأكيد من عليّ بن أبي طالب × علي أهميّة صلاح الحكم والحاكم، أي: السلطة السياسيّة، فلم يكن تناوله التقوى والخوف من الله للموعظة أو الترف الفكريّ، بل لإدراكه العلاقة السببيّة بين فساد الحاكم والتخلّف والركود وضياع وهدر الأموال، وبالتالي: الخلل في البنية الاقتصاديّة للبلاد.

عدم مقدرة الخليفة الثالث على إدارة شؤون البلاد والتقوى في ذلك، وعدم مراعاة المعايير الشرعيّة والعلميّة في إدارة الأموال والموارد الطبيعية بشكل كفوء أدّى إلى تراجع النموّ، وازدياد حالة الفقر، والتبعيض بين الناس، ممّا أدّى في النهاية إلى مقتله، فقد اتّسم عهده بالخصائص التالية:

١. الفساد الإداريّ والماليّ ونشوء إمارات مستقلّة (معاوية نموذجاً).
٢. هدر الأموال وعدم استثمارها بشكل كفوء.
٣. سيطرة الاحتكارات على السوق وإيجاد خلل في آليات عمله.
٤. اتّساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء.
٥. تقوية المركز على حساب الأطراف، أي: الاهتمام بتنمية الحجاز وشبه الجزيرة العربيّة على حساب البلاد الإسلاميّة الأخرى.
٦. التبعيض والاستفادة من النفوذ السياسي، ممّا أدّى إلى إيجاد اقتصاد

(ريعي)<sup>(١)</sup> أدى إلى إلحاق الضرر ببنية الاقتصاد الحقيقي.

وغير ذلك من المشاكل التي أضرت بعملية التنمية الاقتصادية وتوزيع الثروة؛ لذلك نجد أنّ الإمام علياً × كان تركيزه على موضوع العدالة، وبالأخصّ: الاقتصادية منها.

تسلّم الإمام علي × الحكم في ظلّ تلك الظروف ممّا حدا به × أن يطرح رؤية اقتصادية معاصرة أتت على الشكل التالي:

١. إعادة تصحيح للهيكل الاجتماعيّ والسياسي والاقتصاديّ، فهي كحلقات لا يستغني بعضها عن بعض، فبصلاح بعضها يصلح الآخر، والعكس صحيح، والبداية تكون من رأس الهرم السياسي والاقتصادي.

٢. تنظيم السوق: فلكي يكون السوق أداة للتخصيص الأمثل للموارد لا بدّ أن يكون «الْبَيْعُ بَيْعاً سَمَحاً بِمَوَازِينِ عَدْلٍ»، أي لا بدّ من تنظيم السوق وفقاً لمعايير تضمن حقّ البائع والمشتري. فمن المظاهر المهمّة والخطرة التي تؤدي إلى انحراف السوق (الاحتكار)، فلا بدّ من منعه وإيجاد التشريعات التي تضمن ذلك.

٣. تدخّل الدولة في النشاط الاقتصاديّ: لا يمكن من خلال مطالعة العهد أن نستنتج أنّ الدولة الإسلاميّة تتدخّل مباشرة أو غير مباشرة في النشاط الاقتصاديّ، ولكن في العهد إشارة إلى عوامل تدخّل الدولة، والتي هي على الشكل التالي:

أ. انحراف السوق عن الوظيفة الأصليّة له، التي هي تخصيص الموارد (أعمّ من البشريّة والماديّة).

ب. الدورات التجاريّة والتقلّبات الاقتصادية التي تنتج عن التغيرات المناخية.



وقد استطاع أمير المؤمنين × واقعا - في هذا المجال - أن يبدع على مستوى التحليل الديناميكي للمتغيرات الاقتصادية، وأن يضع النظرية التي تربط بين وظيفية الموازنة العامة والدورات التجارية.

ج. التعريف الدقيق لحقوق الملكية: وذلك من خلال تنظيم عمل المؤسسات، وأولها: المؤسسة السياسية.

د. إنشاء البني التحتية، وأولوية إعمار الأرض من أجل التنمية المستدامة، ولا يكون النظر نظراً (مقطعياً)، بل أن يأخذ بالحسبان الاتجاه العام والبعء الزمني للنمو الاقتصادي.

:

تتبع أهمية عهد الأشر من كونه وثيقة علمية ورؤية منهجية نبعت من الحاكم والمدير الأول في ذلك العهد الإسلامي، لذلك لا حاجة للتدليل على إسلاميتها، وبالتالي فإن تحليل هذه الوثيقة يؤدي بطبيعة الحال إلى استشراف الرؤية الإسلامية الصافية والخالصة. لذلك كان علي × يريد أن يؤصل للفكر الاقتصادي الإسلامي بلغة الحاكم الذي يهّم بالدرجة الأولى رفاهية شعبه من خلال الاستفادة المثلى للموارد الطبيعية والبشرية.

قد لا يكون عهد الأشر يعبر عن تجربة أمير المؤمنين × الإدارية والسياسية والاقتصادية كلها، ولكن لا شك في أنه يشكل الإطار العام الذي رسم من خلاله ما يجب أن تكون عليه الرؤية الاقتصادية الإسلامية التي بنظره ستؤدي بالضرورة إلى الرفاهية والسعادة في الدنيا والآخرة.

من أهم النتائج من التحليل السابق مايلي:

١. إن أول من طرح دولة الرفاه كان علي بن أبي طالب ×، حين اعتبر أن على الوالي أن يكون همّه الأول هو تأمين العيش الكريم لرعيته،

وبالتالي: الحد الأدنى من مقومات العيش والاهتمام بالتنمية أكثر من النمو، ولا يقدّم مصلحته كحاكم أو كفرد على مصلحة المجتمع ورفاهيته.

٢. إنّ المجتمع لا يصلح بعضه إلّا ببعض، وبالتالي فالتنمية الاقتصادية من دون التنمية الاجتماعية والسياسية هراء، ولا تؤدي المطلوب منها إذا لم تأت بالعكس، لذلك، فلا بدّ من النظرة الشمولية إلى كلّ النظام، وبكلّ أبعاده، وبالتالي: كان عليّ بن أبي طالب أوّل من طرح الفكر البنيويّ مع وجود بعض التمايز على مستوى الخلفية الفكرية والعقائدية.

٣. التعريف الدقيق لحقوق الملكية، وبالتالي: حكومة القانون الذي يضمن لكلّ حقّه حتى في مقابل الدولة، وبالتالي: ف(القوننة) كان أوّل من نادى بها عليّ بن أبي طالب ×، فهي شرط لازم للنمو والتنمية الاقتصادية. ٤. على كلّ حال، فإنّ الفرضية المطروحة هي: أنّ ما ورد في عهد الأشر يدل على أنّ (الرؤية البنيوية) هي الحاكمة، وأنّ الإسلام بحسب ما ورد يؤمن برؤية تضمن لكلّ ذي حقّ حقّه من خلال تكامل الأدوار في المجتمع.

\* \* \*

الهوامش:

(١) راجع في ذلك كتاب مقدّمة ابن خلدون عندما يتحدّث عن تقسيم الأراضي إلى أراض قابلة للاستخدام وغيرها تحتاج إلى الإصلاح الذي يزيد من تكلفتها، وبالتالي انخفاض العائد منها، وكذلك حول النمو السكاني وما إلى ذلك .

(٢) جالبريث، جون كينيث: تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، ترجمة حمد فؤاد بليغ،

عالم المعرفة العدد: (٢٦١)، ص: ١٥-١٦.

(٣) يعود تاريخ هذا العهد إلى سنة ٣٧ للهجرة، حين أرسل الإمام علي × مالكا إلى مصر لإدارة شؤونها.

(٤) ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى.

(٥) Positivism.

(٦) Normativism.

Blaug, Mark: "The methodology of economics, or, How economists explain " p. ١٨١-١٨٣.

North, Douglass (١٩٢٠): "Structure and change in economic history" (٨) p. ١٨-٢٠.

(٩) تعادل باريتو (Pareto) هو المستوى من التعادل في ظل المنافسة الحرة الذي إذا ما تمّ الخروج عنه يؤدي إلى زيادة رفاهية شخص على حساب رفاهية شخص آخر.

(١٠) المقصود بالواقعية هي المنهج الذي يستند إليه لإثبات علمية المنهج الذي يتمّ اتباعه لإثبات موضوع معين، فحين طرح بوبر موضوع النفي والإثبات كان يريد أن يشير إلى أن المنهج العلمي هو الذي تكون فروضه واقعية، أي: قابلة للنفي أو الإثبات.

(١١) جون جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي/ الماضي صورة الحاضر، ترجمة أحمد فؤاد بليغ، كتاب عالم المعرفة، عدد: ٢٦١، الصّلة: ٨٨.

Fredman , Melton : "Essay in the positive economic " p. ٤ (١٢)

Rent (١٣)

# استراتيجيات الأديان المعرفية

## في إنشاء السلام العالمي

□ الأستاذ: محمود حيدر (\*)

التمهيد

لم يأت عنوان هذه المقالة في صيغة السؤال عما إذا كان للأديان دور في السلم العالمي، بل جاء على نصاب الجواب عن السؤال إياه ليقول: إن ثمة دوراً ما للأديان ينبغي لنا أن نجده في هذا الفضاء الواسع للعالم المعاصر..

نقول هذا لأن ثمة من لا يضع هذا الدور المفترض للأديان على أرض البديهيّات. إمّا لسبب يدعو إليه منطق البحث العلمي، فينظر إلى الأديان بوصفها ظاهرة بشرية سارية في الزمن، وإمّا بداعي التشكيك بأن الدين هو كالأيديولوجيا: منظومة من الأفكار والكلمات والمراسم والسلوكيات تأخذ بها الشعوب لتعرب من خلالها عن هوياتها وتطلّعاتها وحضورها في الجغرافيا والتاريخ. فالأديان بحسب الرؤية الأبستمولوجية، قيمة وجودية لحركة الإنسان في العالم. لكنّها على ما بينت رسالات الأديان، هي خطة السماء الهادية إلى صراط الحق. ومنها تسري منظومات القيم في الاجتماع البشريّ سرياً لا

رسالة الثقلين /

(\*)

يعرف التوقّف. وبهذا الاعتبار ظهرت الأديان بمعتقداتٍ تأسيسيةٍ تعيد رسمه الحياة البشريّ على نشأة رسالات الوحي... كالتوحيد بدل الشرك، والعدل بدل الظلم، والإيمان بدل الإلحاد، والهدى مقابل الضلال، والصراط المستقيم بدل الكفر.. والخير والسلام العامّ مقابل الحروب والفساد في الأرض..

ومهما يكن من دلالة تقريرية للكلام على دور الدين في السلم العالميّ، فإنّ من مزايا هذا الكلام أنّه يضمّر التساؤل عمّا يمكن أن يتوقّعه الإنسان من الدين في هذا المضمار. وكذلك السؤال عن طبيعة المسائل والقضايا التي ينبغي أن نستفهم الدين في شأنها.. ثمّ عن الداعي إلى ما يجعلنا نعرض على الدين قضيةً مهمّةً وخطيرةً واستثنائية كقضية السلام العالميّ؟

قد يكون الدين بما له من تعلّق بحياة ومصير الإنسانية وقضاياها الوجوديّة والغيبية هو المرجع الذي يقدّم إجاباتٍ عن روح هذه القضايا ومعانيها، حيث لا تستطيع المعارف العلميّة الطبيعيّة أن تقدّمها. ومع أنّ غاية الدين هداية الإنسان، إلّا أنّ هذا الأخير محتاج في مسيرة هدايته إلى معارف عن نفسه وعن الكون. ولذا، فإنّ أهمّ ما فعله الدين في مجال الرؤية الكونيّة أنّه فتح للإنسان نافذة يطلّ منها على عالم الغيب. لا سيّما حين حدّثه عن خلق العالم، وغاية الخلق، وخصائص الموجودات، وعلاقة عالم المادّة بعالم ما وراء المادّة، وأنواع الموجودات التي لا يمكن لامرئ ما أن يعرفها بوساطة فكره.

في مستهلّ تجربة الحداثة اتّفق لغاليليو أن يجري مصالحة بين الفكر الدينيّ والثورة العلميّة، حين صرّح بشغف: أنّ لله كتابين هما: كتاب الطبيعة، والكتاب المقدّس.

في كتاب الطبيعة يبدو الله - عند غاليليو - وكأنّه مهندس رياضيّ، وأنّ كتابه هذا مكتوب بلغة الرياضيات، من أوّله إلى آخره، سوى أنّ إلهامات الكتاب المقدّس على العكس من ذلك؛ إذ كتبه الله بلغة البشر التي تستخدم اللفظ

والاستعارة التشبيهية.

أمّا في حقل التدبير السياسيّ، حيث السلام في حياة الإنسان هو الأطروحة الأهمّ في المنظومة الدينيّة، فإنّنا نجد طائفةً من الأركان الكبرى تحيط بمعنى العالم وتحفظه من الفساد:

منها أولاً: ركن العدل، وهو الركن الأهمّ في الإسلام.

ومنها ثانياً: ركن مكافحة الظلم، وهو ملازم لركن العدل.

ومنها ثالثاً: ركن مقارعة الاستبداد والاستعمار ونصرة الضعفاء.

ومنها رابعاً: ركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومبدأ التعاون الاجتماعيّ، {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢]، كذلك الوفاء بالعهود وتأليف القلوب ومبدأ الشورى وسوى ذلك من الأركان الفرعية.

هذه الأركان تؤلّف - على الجملة - إطاراً مشتركاً لسائر الأديان، ولا سيّما منها أديان الوحي. وتبعاً لهذا الاشتراك، الذي هو في جوهره معنويّ وأخلاقيّ وإيمانيّ يتشكّل الأساس الذي قد يفضي إلى بلورة وتأصيل إستراتيجية معرفيّة لأطروحة السلام العالميّ.

على عكس ما يظنّ كثيرون من أنّ تظهير مثل هذه الإستراتيجية يفترض أن يغادر من وقعت عليهم هذه المهمة تحيزهم لهويّتهم الدينيّة. ذاك أنّ تشييد استراتيجية سلامٍ عالميٍّ مؤيّدة من المؤسسة الدينية، يفترض الانطلاق من مواقع التحيز لأهل الأديان أنفسهم.

ذلك أنّ التحيز بمعنى الولاء الإراديّ لدين معيّن، إنّما يحمل في ذاته منفسحاتٍ إيجابيةً باتّجاه الوصل الخلاق مع الضفّة الأخرى. فإذا ما حمّله المؤمنون به على محمل الرؤية الآفاقية، أي: لو امتلك هؤلاء القدرة على اجتياز الإطار المغلق لتحيزهم لاستطاعوا العبور إلى آفاقٍ أخرى متعدّدة الأبعاد في

عالم الإنسان. هنالك إذاً فضاء واحد للأديان يتعلّق بأصل رسالتها الإيمانيّة والقيميّة. في حين يبقى التساؤل قائماً لجهة تسييل هذا الفضاء في حراك الإنسانيّة المعاصرة. ومثل هذا التساؤل يوجب التمييز بين دائرتين يتوقّف على مقاربتهم تحصيل الجواب حول الدور الذي يؤدّيه الدين في حلّ المضكلات الكبرى للعالم الحديث:

**الأولى:** دائرة الدين، بما هو نظام تعبديّ وأخلاقيّ للفرد والجماعة.  
**والثانية:** دائرة الدين، بما هو منظومة تاريخيّة يُخضعها الناس لشروط حياتهم، ويوظّفونها في ميادين السياسة والاجتماع والصراع على المصالح.  
 إذا كانت الدائرة الأولى ثابتة وأصيلة بوصف كون مصدرها الغيب، فالدائرة الثانية هي الميدان الأشدّ تعقيداً بوصف كونها محمولة على التغيّر والتحوّل الدائمين تبعاً لشروط الاجتماع البشريّ. فحين يُستأنف السجال على نشأة العنف، لا يعود ثمة متّسع للدفع الرحمانيّ نحو الخير العامّ. وفي عالمٍ يكتظّ اليوم بما لا حصر من عوامل النزاع، يفيض التساؤل عمّا يمكن أن يصير إليه معنى التواصل وجدواه. ثمة أيضاً من يمضي بالتفاؤل حول إمكان نشوء «أُمّية للحوار»، تتأسّس من المرجعيّات العليا للأديان التوحيدية، ومن قوى المجتمع المدنيّ والنخب الفكرية والثقافية في الشرق والغرب.

لكنّ التساؤل عن قيام خطوط من هذه الأُمّية التواصلية يبقى حاضراً وسط عالمٍ يكتظّ بحروبه ومشاكله الاقتصادية والأيكولوجية والحيوية الإستراتيجية. الذين عاينوا تحولات العالم الجديد، يؤثرون الأخذ بالحوار كمدخل لاستواء التواصل بين المختلفين. يرجع الأمر في ذلك إلى تصوّراتٍ سابقة تقوم في الغالب الأعمّ على الشعور بأنّ العالم الذي يقترب من نفسه، لا بدّ له من أوعية اتّصال تنتظم أطواره، وتستعيد وحدته على نشأة أخرى. فلقد بدا وكأنّ القرن الحادي والعشرين، الذي وُصف بأنّه قرن التوحيد العالميّ، هو الأكثر وجوباً

للحوار والتواصل ممّا كانت عليه حال القرن المنصرم. وثمة من ذهب إلى أنّ الصورة لم تلبث إلا قليلاً على شائعة الوحدة، حتى عاد العالم ليسكن أحياءه المغلقة. ثمّ ليتبين لكثيرين كيف استيقظ عصب التحيز السلبيّ، ليغدو في خلال وقت قصير، هو الفاعل الأعظم في إعادة تشكيل نظام القيم.

تفترض الصورة إذاً مقارنةً للحوار فيما هو مسعى لتعرف الذات صورتها من خلال تعرفها على الغير بما هو يظهر لها في الأخوة الإنسانية. ضمن هذا المحل من الفهم، لا يبدو الغير، بالمعنى الذي نقصده، إلا ما تنطوي عليه الذات من قيم لتبلغ تمامها. فالحوار في هذه المنطقة المعرفيّة، إنّما هو صيرورة الأنا إلى الغير، لتصيراً معاً وحدة اجتماعيّة متّحدة على نشأة الرضا والقبول المتبادل.

لكنّ المقاربة تفترض فوق ذلك، أكثر من مجرد التقاء حول قضية ما، إنّها تستلزم تحويلاً معرفياً وأخلاقياً للشائعة التي تقوم على تلك الثنائية المتنافرة: الأنا والآخر. كأن يصير الكلام عن وحدة الأنا والغير تظهيراً لمنحى جديد في فلسفة الالتقاء. ذلك أنّ الغير هو نفسه هذا الآخر الذي يمكث فينا ولا نملك أن نفارقه قطّ. وهو نفسه الذي سنعتقد وإياه صلاتٍ هي أقرب إلى محاوراتٍ داخلية منها إلى تناظر برّانيّ. وإذ يتحصّل ذلك، يغدو التحوّل ضمن وحدة الأنا والغير بديلاً من السجال العدميّ، الذي غالباً ما ينبني على فرضيّة حضور الغير كخصيم دائم لنا. وبهذا يصبح هذا الخصيم جحيماً بالفعل، على ما لاحظته الفيلسوف الوجوديّ الفرنسي جان بول سارتر، في غير مناسبة.

والأمر يعود إلى تعدّد أوجه استعمال مصطلح الحوار، وبسبب سوء توظيفه في حقول النزاعات السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة والعقائديّة، فقد لحق بالمفهوم التباسات شتّى، حتى أنّنا غدونا نعامله في أحيان كثيرة كما لو كان اصطلاحاً يوضع في غير مقامه. فقد جرى تحويله وتحويل المراد منه وفقاً لغرضيّات احتدام المصالح. فالآليّات العامّة التي ينبغي توافرها لكي يمضي



المتحاورون إلى غاياتهم، ينبغي لها أن تلاحظ مبدأ الاعتراف، و التكافؤ، والرضا، والتوازن. ذلك أنّ التحوار في أحواله، ومبانيه، وغاياته، قائم على الاعتراف والتقابل السويّ. ومن حقّ كلّ فريق، سواء كان فرداً أم جماعة، المشاركة المتساوية المتكافئة في تقرير الصياغة النهائية، لشكل ومضمون المسألة التي يجري الحوار بشأنها.

لعلّ الانطلاق من هذا المبدأ سوف ينجز أكثر أطوار المسافة المؤدّية إلى الصيغة الفضلى للاتّفاق المأمول. وبالتالي: فمن البداية ألا يكون الحوار حقيقياً وسوياً في حال الغلبة وعدم التكافؤ، وإلا صارت كلّ صيغة تنتجها مجالات التحوار مجرد عملية استلاب، أو هي أدنى إلى فعل أمرٍ يُلقيه الغالب على المغلوب، ما يؤدي إلى خللٍ في نظام التواصل، ثم إلى توليد رحلة مفتوحة على الأزمات ودورات العنف.

إذا كانت الغاية من أيّ حوار هو إنجاز اتّفاق حول مشتركات، فقد يكون الحوار نفسه هو مادّة الخلاف بين المتحاورين. وغالباً ما تظهر هذه المفارقة عندما يكون التحوار محكوماً على الجملة بالمصالح البحتة. لكن ثمة منظور آخر للقضية يمكن أن يُخرجها من دائرة الإشكال. المنظور الذي يرى من خلاله إلى الحوار بوصفه عملية أخلاقية ومعرفية ذات وظيفة مركّبة: أن تتعرّف الذات على هويّتها أولاً، ثم تخطو لتتعرّف إلى صورة الغير الذي يقوم بالمهمة نفسها، ثم لينشأ جرّاء ذلك ما يشبه التناظر المتكافئ بين ضفتين.

في ميدان البحث عن سبيلٍ يفضي بالأديان إلى الاستواء على دور في سلام القرن الواحد والعشرين، نقترح أن يكون مبدأ التعرّف هو المنطقة الوسطى التي تنأى أطول مسافة ممكنة من الانحكام بالجاذبيّات السياسيّة وشروطها في

العلاقات بين الدول والمجتمعات.

ما يسوّغ مثل هذا المقترح، أنّ دوراً للأديان الكبرى في حفر الطريق نحو سلام عالميٍّ مديد، هو الذي يستلزم مثل هذه المسافة التي تمكّن المشتغلين فيها من وضع منظوماتٍ معرفيّة وأخلاقيّة وعمليّة لصياغة سلام عالميٍّ يقوم على العدل.

مرّ قبل قليل، أنّ قاعدة التعرّف هي نقطة الابتداء لتشييد مشروع السلام. من هذا النحو، تظهر تلك القاعدة بما هي قضية أخلاقيّة مركّبة. فهي في الوقت الذي تتعالى فيه على التحيّزات والهويّات، تروح تتّصل بها في الآن عينه. فمن حيث اعتبار التعرّف قضيةً متعالية على الأطر الصمّاء للهويّات، فهي تستمدّ غذاءها وقوّتها من الاختيار الحرّ والواعي والمدرّك لسماحة مقاصدها والنتائج المترتبة عليها. أمّا من حيث هي قضية متّصلة بولاء كلّ جماعة إلى هويّتها، فإنّ ذلك يجري مجرى كلّ تحيّز إلى أيّة قضية ينظر إليها أصحابها على أنّها قضية عادلة.

ومن وجه إجماليّ، فإنّ الولاء أو التحيّز هو قانون ملازم للطبيعة البشريّة، مثلما هو ملازم لحاضريّة الإنسان في التاريخ. فإذا ما توافر شرط الإدراك والاختيار الحرّ، توافرت لوازم التعرّف، واتّسعت حقوله، لتشمل ما لدى الغير المختلف من إدراكاتٍ ومعارفٍ وقيم.

إنّ مثل هذا الولاء أو ما نسمّيه بـ «التحيّز الإيجابي» هو الذي حمل هذه الجماعة الدينيّة أو تلك إلى التعرّف على نظيرتها. وبسبب من قيام التعرّف على هذا الجمع بين المتعالي الأخلاقيّ والولاء للهويّات الذاتيّة يمكن أن يفتح السبيل باتجاه تواصل خلاق بين الأديان والثقافات على تنوّعها واختلافها.

يحملنا هذا الفهم إلى إمكان أن يبدأ التعرّف من مجال التحيز الخلاق، لا من خارجه؛ إذ العمل من خارج هو ضرب من المحال ما دام العاملون المفترضون في ميدان التعرّف لأجل وضع إستراتيجيات السلام هم أهل الأديان أنفسهم. ذلك يعني: أنّ التحيز الذي نقصده هو ذاك الذي يطوي في داخله الاستعداد الطوعي والحرّ للإرسال والتلقّي والتفاعل.

هنا يكون التعرّف مساراً ينطلق من ذات المتحيز، ثمّ يمضي ليفيض بجميله على الغير، دافعاً إياه (أي: هذا الغير)، نحو إفاضة معاكسة، هي أدنى إلى ردّ الجميل بالجميل. فعلى سبيل المثال: يجد المتعرّف المسلم في الدافع القرآني ما يسدّد به رحمانية الإقبال على الغير، لكي يتعرّف إلى أحواله وأفكاره من دون حذر أو تريب، فإنّه بهذا يفعل ما يؤمن به بوصفه واجباً دينياً. وهو في الوقت عينه يستجيب لما يؤمر به بوصفه قراراً إلهياً خالصاً. والمؤمن المسلم يدرك بالقلب والعقل أنّ مثل هذا الإقبال على الغير، قصد التعرّف الرحماني، حصائد سلام ويقين ورحمة. كما جاء في الآية الكريمة: {أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤].

فالتعرّف بمعناه القرآني هو من أجلّ الأفعال التي يرتبها الأمر الإلهي على الإنسان حتى يدفع بالتي هي أحسن. ذلك أن الدفع على سبيل التقرب من الغير، هو حركة جوهرية تستبدل الجهل بالعلم، وتجعل أرض التواصل بين الناس على نشأة الحبّ الرحماني والعدل. فالحبّ - كما تُقرّر الحكمة العملية - كالفهم، يزداد اتساعاً وفطنة من اختبار دراسة وإدراك الحقائق الكثيرة.

إنّ الأديان عموماً، وأديان الوحي الإلهي بخاصة، مأمورة بالأخذ بفضيلة التعرّف كأولوية عظمى. سوى أنّ الأخذ بهذه الفضيلة لا يتعلّق فقط من حيث واجبيّتها الدينية، وإنّما أيضاً وأساساً من تعلّقها بوصف كونها قضية أخلاقية كلية. والقضية الأخلاقية، لو أخذنا فضيلة التعرّف كاختبار عملي لها، هي عبارة

عن قيمة سامية يعتبرها الشخص الذي يؤمن بها غايةً نهائيةً له، وهي كذلك من اختياره الخاص وحده، كما يقول فيلسوف الأخلاق الأمريكي المعروف جوزايا رويس.

أمامنا إذاً شرطان لبلوغ التعرّف الخلاق: شرط المعرفة، وشرط التخلّق. وكلا الشرطين يتّصلان اتصالاً وطيداً بما مرّ معنا من عرض لمقاصد الأديان. توضيح الأمر: كلّما كان المتدّين على معرفةٍ أدقّ بموضوع الدين يكون أكثر بصيرةً في تدبّره. وكلّما كان أكثر التزاماً بمعرفة الصراط في العمل، كان أكثر عملاً به. فالمبدأ والمعاد والصراط إنّما هي حقائق مستقلةٌ عنّي وعنك وعن الآخرين، وعن هذا الزمن والأزمة الأخرى. وموضوع الدين في المذهب الحَقّاني الواقعيّ موضوعيّ تماماً. كما أنّ المعرفة الدينيّة فيه محورها الحقّ تماماً. فإذا عمل المتدّين بما تحصّل لديه من علم بدينه، كان كمن بلغ المطلوب في رحلة المطابقة مع صراط الحقّ.. أو ما نسمّيه بالمنظومة الأخلاقيّة الكليّة اللازمة لإيصال الإنشاء الإلهيّ لعالم الخلق.. وإذ يفعل ذلك المتدّين على المداومة، يكون قد أخذ فعلاً بطريق السير إلى الكمال. والإنسان الكامل هو من استطاع أن يجعل الحقائق الأخلاقيّة والدينيّة المستقلة عاملاً مكوّناً ومسدّداً لأطوار تقدّمه نحو كماله. بهذا المعنى، تعود الأصالة لصراط الوحي بوصف كونه منطقة الجاذبيّة التي تدور حولها حركة العلم والمعرفة التي يمارسها المتدّين لبلوغ الغاية. وأمّا علمه ومعرفته فهما متعلّقان بالصراط، ونسبة كلّ منهما إلى الآخر كنسبة تعلّق الجوهر بالعرض. أو بقول آخر: إنّ صلة الصراط بالمعرفة كصلة الثابت بالمتحوّل، من دون أن يكفّ الأوّل عن أن يكون للثاني مصدر التغذية والإلهام والتسديد.

تسري هذه الشروط الأخلاقيّة والمعرفيّة على الأفراد مثلما تنطبق على الجماعات الدينيّة الصغيرة والأديان الكبرى. فإنّما هي شروط حتميّة لإنجاز

التمييز والفصل الضروريين بين الدين كقيمة إلهية خالدة في الزمان البشري، وبين استخدامات هذه القيمة المتعالية في ميادين الاحتدام وصراع الحضارات.

من وجوه الأهمية في لقاءات حوار الأديان والثقافات أنها أطلقت نقاشات نظرية وعقائدية طالت عمق القضايا المطروحة. ربما كان التساؤل المحوري في تلك النقاشات المعمقة هو ما يدور حول إمكان توليد مسافة ضرورية بين البعد الإيماني والتداعيات السياسية والأيدولوجية التي تستخدم بشدة في مطلع القرن الواحد والعشرين. فالقطيعة الحادة التي تظهر في منعطفات زمنية متعاقبة بين الشرق والغرب بأبعادهما الدينية، تعود في أساسها إلى الوصل الوطيد بين الأغراض السياسية واستراتيجيات الهيمنة وبين الاعتقاد الديني. ولا أدل على هذا من الشريط التاريخي للأزمات والحروب المفتوحة بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، بدءاً من الحروب الصليبية، إلى حركة الاستشراق في بعدها الكولونيالي، وصولاً إلى الاحتدامات المعاصرة. غير أن «منطقة الإشكال» في الاحتدام المشار إليه، نجدها على وضوحها في التأسيس الأيدولوجي والثقافي للقطيعة التاريخية بين الإسلام والمسيحية.

لقد تبين من خلال تداعيات الجدل الإسلامي - المسيحي، كم هي واضحة آثار القطيعة العقائدية والأيدولوجية. وبدا واضحاً بسبب من ذلك ضمور إمكانيات الحوار التعرّفي، بل واستحالته في ظل سيطرة مناخات القلق على المسلمين، الذين غالباً ما استشعروا الخوف على دينهم ومصائرهم. ولقد استمر هذا النسق السلبي على الرغم من انطلاق سيرورات جديدة من النظر المتبادل بين المؤسسات الدينية المسيحية والإسلامية، كان عنوانها المركزي ضرورة الانتقال في العلاقة من طور الجدل والقطيعة إلى طور الحوار والتواصل. عندما

بخاصمك الآخر في دينك وهويتك، مستعملاً دينه وهويته كسلاح يتكئ عليه في حملته عليك، فإنه من شأن هذا الخصام أن يبتعث لديك المنطقة الأكثر حساسيةً وحدةً في دينك وهويتك، وقيمها على نشأة متجددة من العصبية والعنف. وإذا كانت الهوية والدين يدخلان في نطاق ما يسميه الاستراتيجي الفرنسي جان غيتون بالميتافيزيقا السياسية، فلا مناص للمسلمين والمسيحيين من التنبه إلى النتائج السلبية المترتبة على توظيف الدين في المصالح السياسية والاقتصادية لهذه الجهة أو تلك.

بالنسبة إلى التطور الإيجابي في تاريخ لاهوت الحوار المسيحي، يمكن الإشارة إلى أنّ المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد بين أوائل ومنتصف الستينيات من القرن العشرين شكّل نقطة تحوّل تاريخي في علاقة الكنيسة الكاثوليكية بالمسلمين، وحسب بعض وثائق المجمع:

«تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحيّ القيوم، الرحمن القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس. إنهم يسعون بكلّ نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده، كما سلّم الله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلاميّ بالانتساب إليه. وإنهم، على كونهم لا يعترفون بالمسيح إلهاً، فإنهم يكرمونه نبياً، ويكرمون أمّه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان. ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي فيه الله جميع الناس بعدما يُعثون أحياء. هناك إذاً بين المسيحيين والمسلمين أمور كثيرة مشتركة على صعيدي الإيمان والأخلاق. يضاف إليها دعوة الوثيقة المذكورة المسيحيين والمسلمين إلى أن ينسوا المنازعات والعداوات القديمة، ويُقدموا نحو التفاهم والتعاون على عمل الخير ونشر القيم الروحية والأخلاقية...»

في المقابل، ثمة رؤية موازية من جانب المسلمين تتسم بتظهير فكري عقائديّ، محوره: مركزية الحوار في الإسلام: فعلى ما يتبيّن من هذا التظهير، ينشأ

مبدأ الحوار في الإسلام من المقاصد العليا للشريعة. وفي القرآن الكريم من الآيات البيّنات ما يدلّ ويرسّخ هذه الحقيقة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: ٢٥٦]، {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ<sup>١</sup> فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ} [الكهف: ٢٩]، {قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

فالحوار المقترح اليوم، سواء على مستوى حوار الأديان أم على مستوى الحوار الحضاريّ، هو حوار متوازن ومتسامح في المستوى الأوّل، هدفه تعرّف المؤمنين على ما تبني عليه عقائد التوحيد في المسيحيّة والإسلام، بهدف تعزيز قيم الإيثار والأخلاق، وفي المستوى الثاني يهدف الحوار إلى إقامة جسور متوازنة ومتكافئة بين الحضارتين الإسلاميّة والغربيّة، واستبعاد فكرة الهيمنة والتبعية، فضلاً عن الشعور بالخوف والريبة وعقدة التصادم. وهذا الإمكان من الحوار قائم في الواقع، خصوصاً لدى أهل الفكر والعلم في الغرب. الأمر الذي عبّر عنه مفكّر مثل تيتلر (Teitler) بأنّ الحوار المتبادل هو طريقة «إقناع» تشوبها الكرامة في تعامل الأطراف كافة التي وإن اختلفت آراؤها، فإن ثمة مصلحة مشتركة تجمعها، تكمن في البحث عن أكبر قدر ممكن من الحقيقة التي يمكن لعقل أن يتوصل إليها عبر جوّ من الثقة والاحترام المتبادل.

ثمة من يرى أنّ الحياة الإنسانيّة اليوم بحاجة إلى حدّ أدنى من المبادئ الأخلاقيّة المشتركة تحظى بإجماع عالمي. وأياً تكن الاجتهادات في هذا المجال، فالديانات قادرة بلا شكّ على توفير المصادر الضروريّة لصياغة عالميّة جديدة بالتعاون المستمرّ بين أتباعها، حتى في ظلّ الانقسام والصراع والعنف

والتعصّب. كذلك بإمكانها تقديم رؤية شاملة أو ربّما عالميّة تؤكّد على الحاجة للتضامن الإنسانيّ ومواجهة مواقف الانقسام. وإذا توافرت إمكانية واقعيّة لتطبيقها في سياق المساعي لصياغة أخلاقٍ عالميّة جديدة، يجب على عالم الإيمان أن يلتمس التحديات الداخلية الجوهرية.

ويستطيع المسلمون والمسيحيّون الوصول إلى ملتقى استراتيجيّ دائم على المستوى الفكريّ، يقوم على احترام التغير العقائديّ واللاهوتيّ باتجاه بلورة إمكانية واقعيّة لمعالجة إشكالات النظام العالميّ الراهنة.

إنّ صياغة شراكة فعّالة بين الأديان هو الهدف النهائيّ لعالمنا الراهن، بما يؤمّن القاعدة الضرورية لأخلاقٍ مشتركة نابعة من روح دينيّة عالميّة، إنّ رسالة الإسلام التي ترى في الإنسان خليفة الله على الأرض هي في حقيقتها رسالة تغييرية لكارثيّة الواقع العالميّ، وبناء نظام عالميّ اجتماعيّ أخلاقيّ وعادل. في حين ترى المسيحية أنّ المصير النهائيّ للإنسان الذي كُلف وحده بمهمّة خدمة الربّ أن يكون عاملاً في التحوّل الروحيّ لهذا العالم.

لقد صار من المتيسّر الآن، أقلّه في المجال النظريّ، وضع تصوّر إجماليّ لاستراتيجيّات دينيّة تستند إلى مفهومين دينيين أساسيين: الأول: التوحيد، الذي هو الأساس الوطيد للإسلام.

والثاني: الخلافة، التي تمثّل جوهر صلة العبد بربه، وتحمل في ثناياها أعظم مسؤوليّة أخلاقيّة؛ لأنّ الله منح الإنسان الخلافة، فعلى الإنسان بالمقابل أن يناضل على مستوى الصفات التي ينسبها الله لذاته. وما لا ريب فيه في اعتقادات المسلمين والمسيحيين أنّ الإنسان هو أسمى المخلوقات، وقد وضعت كلّها في خدمته، تبعاً لعقيدة التسخير العقائديّة، ولكنّ دوره كخليفة ينبغي أن يتجلّى في الأعمال الخيرة التي يقوم بها، لا نحو الإنسانيّة فحسب، بل أيضاً نحو كلّ ما يدبّ على وجه الأرض.



هذان المفهومان: التوحيد والخلافة، يشكّان أساساً لرؤية تؤدي مباشرة إلى استعادة التوازن لكافة أبعاد الحياة.

يعزّز مفهوما التوحيد والخلافة رؤية يمكن ترجمتها إلى نظام لترتيب الشؤون الإنسانية المتمركزة على إنجاز العدالة العالمية، وذلك بإيجاد توازن بين الحاجات الشرعية والطموحات الفردية والاجتماعية، وكذلك إلى مسؤولية متبادلة بين العبد وخالقه في إطار مقدّس ومتسام. فعلى صعيد الاقتصاد العالمي، مثلاً، يقدّم مفهوما التوحيد والخلافة البديل للتوجّه الإنسانيّ النزعة والعقلانيّ المرجعية. ويتضمن التوحيد في هذا السياق الامتلاك المطلق لكل الثروات، أمّا الخلافة، فتدّل على حرّية التملّك والتجارة كعهدة من الله. وتسعى هذه الرؤية، إلى تحقيق المساواة القائمة على أساس الإيمان بأنّ جميع البشر يمتلكون حقوقاً متساوية في الحياة الكريمة. وهنا تُستبدل علاقات المنافسة والاستغلال السائدة اليوم بعلاقات التعاون المثمر، والالتزام المتبادل بالعدالة والمساواة، دون انتقاصٍ من الحرّية والتطور والكفاءة وتحقيق كلّ الحاجات. ويتمّ التوازن بين متطلبات التنمية الاقتصادية والحفاظ على البيئة. أمّا فكرة الخلافة، فتستدعي مسؤولية الحفاظ على هذا الكوكب وحمايته وساكنيه من الخراب والدمار مقابل المزايا التي منّ بها الله على خليفته.

عندما كتب الفيلسوف الألمانيّ إيمانويل كانط مشروعه للسلام الدائم في العالم قبل أكثر من مائة وخمسين سنة، كان مدفوعاً بشغفٍ مرير من أجل أن لا تتحوّل المدن - كما كان يقول - إلى فراديس مؤقتة تقابلها مقابر أبدية. لم يكن يهّم كانط يومئذ أن يسقط فعل الكتابة لديه ليصبح مجرد أحلام كاذبة. وكان يقول: لا ينبغي أن يكون هناك حرب أصلاً.. ولقد أراد أن يتحوّل بالسلم العالمي من كونه موضوعة رجاء دينية، إلى مشروع فلسفي غايته تهذيب الإنسان الحديث، والارتقاء به من بربرية المتوحّشين القائمة على العنف والحرب، إلى ما يسميه بـ

«الضيافة الكونية».. لقد كانت غايته الكبرى إنجاز مشروع سلام دائم يخلّق في أفق المواطنة الكونية. لكنّ كانط في شغفه بالسلام العالمي الدائم، كان على يقين بأنّ ما كتبه في ذلك الوقت هو ترجمة فلسفيّة مستعادة لروح الكتاب المقدس بعيداً من سلطة الكهنوت ولاهوتها السياسيّ.

\* \* \*

## التوحيد

### فطرة الله التي فطر الناس عليها

□ الشيخ عبد الرحمن الربيعي (\*)

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَقْسَمَ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَهْلَ تَوْحِيدِهِ بِالنَّارِ أَبَدًا»<sup>(١)</sup>.

لا شك أنَّ الأصول الاعتقادية الخمسة: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد، مآلها ومرجعها هو التوحيد؛ إذ أنَّ الأصل الأوَّل هو التوحيد في الذات الإلهية، والثاني يرجع إلى التوحيد في الصفات، والثالث والرابع يجسدان التوحيد في الطاعة والولاية، والأخير يتمثل به التوحيد في الغاية والإخلاص. فالرؤية الكونية القرآنية ترى أنَّ الإنسان قد فُطر على التوحيد، وأنَّ الله سبحانه مشهودٌ لخلقه، معروفٌ لهم، غير غائبٍ عنهم، غير أنَّ اشتغالهم بأنفسهم، والتفاتهم إلى ذواتهم حجبهم عن التنبُّه على أنَّهم يشهدونه دائماً. فالعلم موجودٌ دائماً، لكنَّ العلم بالعلم مفقود في بعض الأحيان.

قال عزَّ من قائل: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:

(\*) باحث إسلامي، والمُشرف العلمي على قناة الدعاء الفضائية/ العراق.

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام تعليقا على ما فطر عليه الناس: «فَعَرَفَهُمْ وَأَرَاهُمْ نَفْسَهُ وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ رَبَّهُ»<sup>(١)</sup>.

فالآية بيّنت أنّ هذه المعرفة معرفة غائرة في جبلة الإنسان، وأنّ المعرفة المنحرفة هي نتيجة التلقيات الخاطئة، وقد بيّن ذلك الرسول الأعظم بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه، ويمجسانه»<sup>(٢)</sup>.

ولأجل ذلك حاول الأنبياء والأئمة وحكماء بني البشر أن يذكروا الناس بأيام الله، ويكشفوا الحجب عن بصائرهم، ويعيدوا إلى أذهانهم ذكر الميثاق، ذلك الميثاق الذي قد بيّنه الحق عز وجل حينما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

فمن الواضح أنّ كلّ واحد من أفراد البشر يتمتع بلون من المعرفة بالله ووحدانيته، وإليه أشار قوله عز وجل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فأجابوا: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾.

لذا فإنّ الأحاديث متضافرة في تفسير الفطرة بالتوحيد، فعن زُرَّارَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: «أَصْلَحَكَ اللَّهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا قَالَ فَطَرَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْمِيثَاقِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ قُلْتُ وَخَاطَبُوهُ قَالَ فَطَاطَأَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ لَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُوا مَنْ رَبُّهُمْ وَلَا مَنْ رَزَقُهُمْ»<sup>(٣)</sup>.

وورد مثله عن الإمام الصادق عليه السلام في ظلال هذه الآية، حيث قال: «فَثَبَّتِ الْمَعْرِفَةَ وَنَسُوا الْمَوْقِفَ وَسَيَذْكُرُونَهُ وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مَنْ خَالَقُهُ وَرَزَقُهُ»<sup>(٤)</sup>.

ثم إنّ أهل التحقيق ذكروا - تبعاً لما ورد عن الثقلين - أنّ المعرفة الفطرية لا تتعلّق بأصل وجود الخالق فحسب، بل تتعدّى ذلك لتشمل ما يتعلّق بالربوبية

أيضاً، ويشهد لذلك استعمال كلمة (ربكم) في آية الميثاق.

إنَّ هذا العهد الميثاقى يتجلَّى أيضاً في سورة يس من قوله: ﴿الَّذِينَ أَعَاهَدَ إِلَيْكُمْ يَنْبِئُكُمْ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦١؛ لذا فإنَّ الإنسان الَّذي سلمت فطرته ولم تفسدها الأوهام الفكرية والأهواء النفسانية، فإنَّه بالقوَّة القريبة من الفعل - بالنسبة إلى أصول العقائد الحقَّة وكليات الشرائع الإلهية - يعيش ببعثٍ وتحريكٍ من فطرته وخلقه؛ ولأجل ذلك سَمِّي الإسلام (دين الفطرة)؛ لأنَّ الفطرة الإنسانية تقتضيه وتهدى إليه، وسميَّ (إسلاماً)؛ لأنَّ فيه تسليم العبد لإرادة الله سبحانه. وهكذا ينسحب ما تقدَّم من الكلام إلى التوحيد في التدبير والربوبية التكوينية، ومعنى ذلك: أنَّه بعد التسليم بأنَّ المدبِّر للعالم هو الله، فإنَّه سبحانه غير محتاجٍ إلى أحدٍ في تدبير العالم وإدارته، كما لم يكن محتاجاً إلى أحدٍ في خالقيته، فالربوبية التكوينية منحصرة بالله عزَّ وجلَّ؛ إذ أنَّ التوحيد في الربوبية هو: الاعتقاد بأنَّ تدبير الحياة والكون - ومنه الإنسان - كلُّها بيد الله سبحانه، وأنَّ مصير الإنسان في حياته كُلُّها إليه سبحانه، ولو كان في عالم الكون أسبابٌ ومدبراتٌ، فكلُّها جنودٌ له سبحانه، يعملون بأمره، ويفعلون بمشيئته.

وهكذا التوحيد في الربوبية التشريعية، أي: بعد اعتقادنا بأنَّ الله هو خالقنا، ووجودنا بيده، وتدبير حياتنا منه، فلا بدَّ أنْ نعتقد بأنَّه لا يحقُّ لأحدٍ غيره عزَّ وجلَّ وضع القوانين وإصدار الأوامر، فكلُّ مَنْ يريد أنْ يأمر لا بدَّ أنْ يكون مأذوناً من قبل الله سبحانه.

وهكذا التوحيد في العبادة، وهذه المسألة من المسائل المترتبة على غيرها، أي: بعد اعتقادنا بأنَّ وجودنا من الله، واختيار وجودنا بيده، ولا يؤثِّر في العالم شيءٌ بصورةٍ مستقلةٍ إلَّا هو - عزَّ وجلَّ -، وحقَّ تقنين القوانين منحصرٌ به، فإنَّه لا يبقى حينئذٍ مجالٌ لعبادة غيره؛ لأنَّ العبادة هي جعل النفس تحت تصرُّف المعبود

من دون شرط، ولا يليق هذا إلا إذا كان المعبود مالكا حقا، فالتوحيد في العبادة هو نتيجة التوحيد في الربوبية.

فهناك أمران:

أحدهما: يرجع إلى القلب، وهو الاعتقاد بأن الله تعالى هو اللائق للعبادة وحده.

والآخر: يرجع إلى العمل، وهو أن لا يُعبد غيره تعالى.

وقد وجه القرآن الكريم المسلمين وأرشدهم إلى مفهوم آخر يعتبر استكمالاً للتوحيد في العبادة؛ وذلك أن العبادة الرسمية وحدها لا تكفي، بل يجب أن تقترن بالطاعة، وهذه الطاعة تكون لمن نصبه الله، بحيث تكون طاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله، وذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهناك بعد آخر من التوحيد، وهو التوحيد في الاستعانة، أي: لا يطلب الإنسان العون من أي أحد سوى الله تعالى، وهذا ما طلبه الحق عز اسمه من العباد أن يرددوه ويعملوا به عندما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [فاتحة الكتاب: ٥].

وإذا تكامل هذا الأمر واشتد فإنه يتحوّل إلى صفة نفسية تسمى بـ (التوكل)، وهو: الاعتماد، وإليه أشار الحق تعالى بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وهو التوحيد في التوكل، بل يترقى على البعد الأخلاقي ليشمل التوحيد العملي في كل الأبعاد الأخلاقية، مثل إتيان الأعمال الحسنة، وهكذا الإحسان طلباً لمرضاة الله دون اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

فالشرك في العمل مرجعه إلى الشرك في التوحيد العملي؛ إذ لا بدّ للإنسان في تصدّقه وزيارته لإخوانه وفعله الخير أن يقصد وجه الله سبحانه، وهذا الأصل من نتائج التوحيد في العبادة.

ومن مظاهر التوحيد هو (التوحيد في المحبة)، فكلّ مَنْ يعتقد أنّ الجمال والكمال كلّهُ لله بالأصالة، فهو لا بدّ أن يعتقد بأنّ المحبة متعلقة به بالأصالة، فإذا أحبّ شخصاً آخر فذلك من خلال حبّه لله ومن أجل الله، ويشدّد هذا التوحيد إلى أن يصل إلى التوحيد في أنّ الوجود باستقلاله منحصرٌ بالحقّ تعالى، وكلّ ما عداه فهو قائمٌ به؛ لأنّه إذا عرفنا الله بصفته واحداً ووجوداً مطلقاً، فهو يستغرق كلّ شيء، وتشمل إحاطته الوجودية والعلمية كلّ مكان، فهو محيطٌ بذهننا وفكرنا واستدلّالنا وحضورنا وشهودنا وقلبنا وسمعنا، بل يترقى إلى النجوى والأسرار، قال سبحانه: ﴿وَلِنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، أي: لو لم تتناجوا بما تخفون، بل أبقيتموه سراً فهو أيضاً يعلم به؛ ذلك أنّ النجوى والتناجي هو الهمس بالسّر للغير بصوتٍ خافتٍ، أمّا السّر فهو أدقّ من النجوى؛ لأنّه لم يذكر بعد لأحدٍ، ولم يكتب، ولم يتلفظ به، ولم يذكر لأحدٍ حتى بصورة نجوى، أي: لو أعلنتم شيئاً وجهرتم به فالله تعالى يعرفه قبل الجهر به، وهذا هو السّر.

والأدقّ من هذا أنّه قد يكون المطلب خفياً على الإنسان نفسه، ومخزوناً عنده في اللاوعي، فلا يدري هو نفسه بما يضمّره داخل قلبه، أو لا يعرف هو مكنون نفسه، ولا يعرف ما ينطوي عليه صدره من قبحٍ أو جمالٍ، ولا يدري ما في داخله من أمور أدقّ من الأسرار...

فهذه التي هي أدقّ من الأسرار والتي لا يدري بها الإنسان نفسه، وتختفي في داخله، هي الأخرى يعلمها الله: ﴿وَلِنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾؛ وذلك لأنّ الحقّ سبحانه: ﴿يَكِلُ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾.

فهذا الحضور للحق في كل الممالك، فلا مكان للغير حتى يصبح شريكاً له سبحانه، وهذا الإطلاق الوجودي قد بينهما الحق سبحانه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

ولذا قال العلامة الطباطبائي رحمه الله في رسائله التوحيدية ما هذا لفظه: «إذا رأى هذا الإنسان أن الحق عز اسمه في كتابه ولسان رسوله وألسنة أوليائه ينسب إلى نفسه أنه رحيم خالق مالك عزيز حكيم غفور شكور، وأن له كل اسم حسن، وأنه منزّه عن كل قبيح ونقص، وهذا الإنسان يعلم أن هذه معاني حقيقية ونسب وإضافات ثابتة، أيقن - بلطف القرينة وسلامة الذوق - أن هذه النسب أنحاء قيام ذوات الموجودات بالحق عز اسمه، وقيامه سبحانه بذاته، ثم أكد له ذلك شهود الحق سبحانه أنه على كل شيء شهيد ثم قرره على ذلك البرهان، فإن النسبة الحقيقية الثابتة بحسب ذات الشيء، كخلق الحق سبحانه ولملكه لذات الشيء، يجب أن يتحقق في مقام الذات، وحيث إنها وجودات رابطة فلا تتحقق مع طرفيها، فالمنسوب إليه متحقق هناك بالضرورة؛ إحدى الذاتين قائمة بالأخرى وإلا لزم وحدة الاثنين، وهو محال. فملك الحق سبحانه للموجودات نحو قيام ذاتها به سبحانه، وكذلك سائر النسب والمعاني، فافهم»<sup>(١)</sup>.

والنتيجة: أن كل تعين فهو عن إطلاق وإرسال؛ إذ شهود المتعين لا يخلو عن شهود المطلق.

وقال العلامة الطباطبائي رحمه الله في موضع آخر من رسائله التوحيدية: «ولعمري، كم من الفرق بين أن يزيل الإنسان رذيلة الجبن - مثلاً - عن نفسه، تارة بأن لا يتوجه إلى غير الحق سبحانه، فلا شيء حتى يخاف منه. وتارة بأن يتكل على الله في دفع المكروه والمخوف عنه، كما في ظاهر الشرائع»<sup>(٢)</sup>.

وإلى هذا المعنى يشير ما ذكر في تفسير القمّي ضمن حديث المعراج: «فقال



رسول الله ' يا رب أعطيت أنبياءك فضائل فأعطني، فقال الله قد أعطيتك فيما أعطيتك كلمتين من تحت عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا منجى منك إلا إليك<sup>(١)</sup>.

وهذا التوحيد الإطلاقي قد أشار إليه مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام: «فسبحانك ملأت كل شيء، وباينت كل شيء، فأنت لا يفقدك شيء، وأنت الفعال لما تشاء، تباركت يا من كل مدرك من خلقه، وكل محدود من صنعه<sup>(٢)</sup>». وعن الإمام موسى بن جعفر ' في كلام له: «ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه، احتجب بغير حجاب محجوب، واستتر بغير ستر مستور<sup>(٣)</sup>». ومن هنا يعلم قول الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى أقسم بعزته وجلاله أن لا يعذب أهل توحيده بالنار<sup>(٤)</sup>».

\* \* \*

الهوامش:

- (١) الشيخ الصدوق، علي بن الحسين بن بابويه القمي، التوحيد: ٢٠، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، نشر: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.
- (٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ١٣، كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الناس على الفطرة، الحديث: (٤)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (٣) نقله الشيخ الطوسي رحمته الله في كتاب الخلاف ٣: ٥٩١، ولكن عن مصادر أهل السنة، [التحرير].
- (٤) التوحيد: ٣٣٠، مرجع سابق.
- (٥) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار ٥: ٢٣٧، الطبعة الثالثة ١٤٠٣، دار إحياء التراث، بيروت.
- (٦) الطباطبائي، محمد حسين، الرسائل التوحيدية: ١١.
- (٧) المصدر نفسه: ٢٣.

- (٨) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي ٢: ١١، تحقيق: السيّد طيّب الموسوي الجزائري، نشر: دار الكتاب، الطبعة الرابعة ١٤٠٩، قم.
- (٩) المسعودي، إثبات الوصية: ١٠٧.
- (١٠) الصدوق، محمد بن علي، التوحيد: ١٧٩، تصحيح وتعليق: السيّد هاشم الحسيني الطهراني، نشر: جماعة المدرسين، قم.
- (١١) المصدر السابق: ٢٠.

## الصلاة على النبي

بين مشروعية حذف الآل وإضافة الصحابة

دراسة في الخلفيات السياسية والعقائدية

(القسم الثاني)

□ السيد محمد هاشم المدني (\*)

:

تعرّضنا في القسم الأول من هذه الدراسة إلى الأدلة الناهضة لإثبات تشريع الصلاة على النبي ، من آيات الكتاب العزيز وأحاديث السنة الشريفة الواردة من طرق الفريقين. ثمّ استعرضنا الأدلة المدّعاة على مشروعية حذف الآل من الصلاة الواجبة، وبيّنا أنّ عمدة هذه الأدلة حديثان: أولهما: حديث أبي حميد الساعديّ، والثاني: ما أضافه السخاوي من حديث أبي سعيد الخدريّ، وناقشنا في الاستدلال بحديث الخدريّ بأنّه لم ينضبط في لفظ واحد، بل اختلف بحسب اختلاف الطرق والمصادر، ما يدلّ على أنّه لم يحفظ على وجهه الصحيح، ولا سيّما أنّه قد جاء في بعض المصادر وفيه لفظ الآل في الصلاة، ما يؤيدّ أن

(\*) باحث إسلامي في الفقه المقارن/ العراق.

يكون سقوط هذا اللَّفظ في المصادر الأخرى ناشئاً من الخلل في الحفظ أو السهو في النسخ. وأمّا حديث الساعديّ، فناقشنا فيه من ناحية الدلالة بأنّ فيه من الأمارات ما يدلّ على أنّه مولّد من قبل بعض الجهات الذين لم يحتملوا تفرّد الآل بهذه الفضيلة، وسنثبت أنّه على تقدير صحّته، مروّيٌّ بالمعنى، اعتقاداً من الراوي بأنّ المراد من لفظ الآل هم الأزواج والذريّة. وقلنا بأنّه لا بدّ في المناقشة السنديّة في هذا الحديث من تقديم مقدّمتين، تقدّمت الأولى منهما، وكانت خلاصتها: أنّ هناك جهةً كانت تسعى بشتّى الوسائل والسبل إلى حرمان أهل البيت <sup>٨</sup> من فضيلة الصلاة، وكلّ فضيلة أخرى، وفي هذا السياق، أشرنا بإسهاب إلى دور بني أميّة وأتباعهم في محاربة فضائل أهل البيت <sup>٨</sup>.

:

وهذه المقدّمة مترتبة على المقدّمة السابقة، فحيث أثبتت لنا تلك المقدّمة أنّ الوجود الأمويّ قائمٌ على بغض أهل البيت <sup>٨</sup> ومحاربة فضائلهم، فيلزم أن يكون من ارتبط وجوده بوجود تلك الدولة أيضاً قائماً على بغض أهل البيت <sup>٨</sup> ومحاربتهم. وعليه، فإذا وجدنا في سند هذا الحديث من كان وجوده مرتبطاً بوجود بني أميّة، عندها نفهم أنّ هذا الراوي يبغض أهل البيت <sup>٨</sup> ويحارب فضائلهم. فإذا وجدنا أنّ الذي يروي الحديث فيه ميلٌ على أهل البيت ومحاربة لفضائلهم، كما هو في حديث الساعديّ؛ حيث حرّمهم هذا الحديث من فضيلة الصلاة عليهم. وعليه: فوفقاً لما قدمناه يدخل هذا الحديث ضمن السعي الأمويّ لمحاربة فضائل أهل البيت <sup>٨</sup>. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ الحقّ والإنصاف والموازن العلميّة الصحيحة تلزمنا بعدم الأخذ بهذا الحديث. وإذا ضمّمنا لهذه الحقيقة أموراً أخرى تزيد الحديث ظلمة وسقوطاً، مثل شذوذ لفظه بالقياس لما تواتر في بابهِ، وكون أحد رواته في حديثه اضطراب، وغيرها ممّا

ستأتي الإشارة إليه في محله، عندها ستتيقن أنّ الحديث باطل لا يصحّ الاحتجاج به على مشروعية حذف الآل.

هذا، ومن أكثر الرواة أمويّة في سند حديث الساعدي، هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. ولأجل توضيح هذا المدعى نقدّم ذكراً موجزاً في أحوال رواة هذا الحديث بشكل عام.

:

قلنا إنّ الحديث تفرد بروايته مالك بن أنس في موطنه، وكلّ من أخرجه من بعده فعنه رواه، وقد رواه هو بنفسه بطريق واحد كالتالي:

١. مالك بن أنس.
  ٢. عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.
  ٣. أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.
  ٤. عمرو بن سليم الزرقي.
  ٥. أبو حميد الساعدي (صحابي).
- وهؤلاء بأجمعهم لا يخلو أحدهم من ملاحظة تستدعي التوقّف الطويل عندها، ولكنّ المقام لا يتحمّل التوسّع؛ لذا سنكتفي بالإشارة، وذلك كما يلي:
١. ناشر الحديث وأوّل من رواه: وهو مالك بن أنس، إمام المالكيّة، وله شأن كبير عند أهل السنّة في الرواية والفقّه. وقد عاش أربعين سنة في زمن الدولة الأمويّة، وأتمّ الباقي من عمره الذي تجاوز الثمانين في عصر الدولة العبّاسيّة.

عُرف عنه ميله للدولة الأمويّة، وانحرافه عن الإمام عليّ ×، ومن مواقفه المشهورة الدالّة على ذلك قوله بأنّ الصحابة ما عدا الخلفاء الثلاثة الأوائل

متساوون بالفضل، أي: ليس لعلّي فضلٌ يتقدّم به على غيره من الصحابة، وهذا إنكار صريح لفضائل الإمام عليّ × التي يعرفها عموم الناس، فكيف بمن يمتهن الحديث؟! وقوله هذا ينسجم تماماً مع مشروع بني أمية في محاربة فضائل أهل البيت <sup>٨</sup>، وفي ذلك يقول الإمام محمد أبو زهرة: «ولماذا رأى مالك عدم ذكر عليّ في مقام الفضلين، بل كان يقف بعد عثمان، ويقول: هنا يتساوى الناس. فما كان عليّ كسائر الناس، فهل جهل ذلك الإمام الجليل مناقبه وسابقتها في الإسلام، وجهاده وحسن بلائه ومقامه من النبي ؟' لا نظنّه أنّه جهل شيئاً من ذلك أو أنكره، إنّما يعرف عليّاً عليه السلام ويعرف مقامه... وهو في هذا القول يضرب على نعمة معاوية والأمويين، ومهما تكن المبررات التي تدفع إلى ذلك الحكم على سيف الإسلام أخي رسول الله، وزوج ابنته، ومن كانت من الذرية الطيبة النبوية، فإنّ ذلك الحكم يدلّ على نزعة أموية» <sup>(١)</sup>.

وواضح أنّ مراد أبي زهرة من النزعة الأموية التي أحجم عن بيانها دفعاً للإحراج، هي البغض للإمام عليّ والسعي إلى تغييب فضائله. ويؤكد هذا السعي لمالك عدم ذكره للإمام عليّ × في موطنه بما يناسب مقامه وشأنه العلمي، ولما سُئل عن سبب ذلك اعتذر بأنّه لم يكن ببلدي <sup>(٢)</sup>!! وعجبٌ هذا الاعتذار، أوليس الإمام عليّ × قضى عمره في المدينة غير السنوات الخمس من خلافته؟!

وهناك مواقف أخرى لمالك لا تقلّ دلالة على ميله لبني أمية وابتعاده عن الإمام عليّ × لا يسع المجال لذكرها، ونكتفي بما أشرنا له.

٢. وهذا الحديث قد رواه مالك عن شيخه عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم، وهو بدوره رواه عن أبيه أبي بكر، وأبوه هو الوالي الأمويّ على المدينة التي يسكنها مالك، والولد على سرّ أبيه؛ ولهذا فحكمه عندنا حكم أبيه إلّا ما خرج بالدليل.

٣. أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: والي بني أمية، وحامي دولتها، والمروج لنهاجها، وعلاقته بهم وصلت إلى ذروتها؛ حيث اجتمعت له من سلطاتهم ما لم يجتمع لغيره، كما يقول مالك بن أنس: «ولا رأيتُ مثل ما أُوتي أبو بكر بن حزم، ولاية المدينة والقضاء والموسم»<sup>(١)</sup>. وقد وصل إلى ما وصل إليه على الرغم من كونه أنصاريًا، وعداوة البيت الأمويّ للأنصار ثابتة ومشهورة، وبالرغم من كونهم لا يولّون أعمالهم إلّا أمويًا أو على الأقلّ قرشيًا أو من ثبتت أمويّته بالولاء، وقد ولّوا على المدينة ستين أميرًا، ولم يكن فيهم غير الأمويّ أو القرشيّ، باستثناء أبي بكر الأنصاريّ هذا، فهو الوحيد الذي ولّوه المدينة<sup>(٢)</sup>، بل جمعوا له الولاية والقضاء وإمارة الموسم، وهي لم تجتمع لأحد قبله، ولو كان من بني أمية.

ومضافاً إلى ما تقدّم، فإنّ الرجل يتحدّر من أسرة لها عدااء خاص وطويل مع بني أمية، فأبوه محمد بن عمرو بن حزم كان أشدّ الناس على عثمان<sup>(٣)</sup>. وقتله عثمان عبروا من دار جدّه عمرو بن حزم<sup>(٤)</sup>، وأبوه حارب بني أمية في معركة الحرّة، وكان أحد قادتها مع أهل بيته وعشيرته، وقُتل فيها مع ثلاثة عشر من أهل بيته<sup>(٥)</sup>، ودارهم في المدينة استبيح من قبل الجيش الأمويّ، وكلّ ذلك جرى أمام أبي بكر، وهو يعلم بهذا التاريخ، وبنو أمية يعلمون أيضاً، وأمّا عمّه عمارة بن عمرو بن حزم فخرج مع ابن الزبير، وقُتل معه وأخذوا رأسه إلى دمشق<sup>(٦)</sup>. وبالضرورة، فإنّ كلّ واحدة من هذه الوقائع توجب عداوةً وبغضاً وسوء ظنّاً بين الطرفين لا يزول أبداً، خصوصاً وأنّ العدوّ لثيمٌ خبيث.

فإذا تأملنا في تاريخ هذا الشخص وخصوصيّاته يأتي هذا السؤال ويفرض نفسه علينا: كيف استطاع أن يتجاوز كلّ ذلك ويفوز بثقة بني أمية، وأن يصل في دولتهم إلى ما وصل إليه ممّا لم يسبقه إليه أحد؟؟!!

وأنت تعلم - عزيزي القارئ - وقد بيّنا لك سابقاً أنّ عماد ملك بني أمية هو

عداوة أهل البيت <sup>٨</sup> ومحاربتهم وسبهم والبراءة منهم وتغيب فضلهم، وأنهم لم يكونوا يعذرون في ذلك عموم الناس، فكيف بمن يولّونه عملهم؟ خصوصاً من له ذلك التاريخ المظلم مع بني أمية على ما عرفت.

فهل تراه حاز رضاهم وثقتهم دون أن يبوء بعداوة أهل البيت وسبهم ومحاربة فضائلهم، وأنت إذا عدت إلى معطيات البحث المتقدم فستجدها تخبرك بضررٍ قاطعٍ أنّ هذا الرجل كان لا بدّ وأنّه فعل ذلك، وأنّه كان أمويّاً أكثر من الأمويين، وهم قد عرفوا عنه ذلك بالقول والفعل. ومن دون ذلك، فمن البعيد جدّاً أن يصل مثله إلى ما وصل إليه.

٤. عمرو بن سليم الزرقي، وهذا الراوي قال عنه ابن خراش بأنّ: «في حديثه اختلاطٌ»<sup>(١)</sup>، والاختلاط يضعف من قيمة السند على كلّ حال، خصوصاً إذا كان الحديث يحمل دلالات شاذّة، كما هو في حديث الساعدي الذي يرويه.

٥. أبو حميد الساعدي، وهو صحابي، تكون عدالته ثابتة على قاعدة أنّ الصحابة عدولٌ ثقات كلّهم أجمعون أكتعون، ولا يقدح في ذلك موقفهم من أهل البيت <sup>٨</sup>، سواء كانوا منحرفين عنهم أم موالين. فهناك الكثير من الصحابة ممّن حارب أهل البيت وعاداهم وسبهم، وهم مع ذلك ثقات عدول بفضل هذه القاعدة التي أسستها الدولة الأموية!! وعليه فاحتمال انحراف هذا الصحابي عن الإمام عليّ × وميله إلى بني أمية وارد، وهو لا يتعارض مع عدالته ووثاقته عند من روى هذا الحديث.

ولكنّه عندنا الأمر مختلف، فمن ثبت أنّ حاله كذلك سقطت عدالته ووثاقته وردّت روايته، والصحابيّ أبو حميد الساعديّ يظهر لي أنّه كان عثمانيّاً، وكُلّ عثمانيّ فهو أمويّ. ويدلّ على عثمانيّته النصّ الذي رواه ابن سعد في طبقاته وبسند صحيح، قال: «أخبرنا سليمان... أخبرنا يحيى بن سعيد، قال: قال أبو حميد الساعدي لما قُتل عثمان، وكان ممّن شهد بدرّاً: اللهم إنّ لك عليّ ألا أفعل



ذلك، ولا أفعل كذا، ولا أضحك حتى ألقاك»<sup>(١)</sup>.

أقول: هذه التعهّدات التي كان أيسرها ألاّ يضحك لا تصدر لمجرّد أنّه فقد عزيزاً؟! وإلاّ كان رسول الله ' أولى بها! ولو جاد علينا الرواة ببقية التعهّدات التي لا بدّ أن تكون أشدّ من ترك الضحك لكانت الصورة أوضح، ودلالاتها على توجّهات الرجل أقوى، فأبى تعهّدات مثل هذه التي تدلّ على أنّ حياة الرجل كانت مرتبطة تماماً بعثمان، بحيث إنّّه بمجرّد أن مات عثمان أصبحت الحياة لا قيمة لها، وهؤلاء الذين ارتبطوا بعثمان بهذا الشكل أصبحوا بعد ذلك أمويّين يميلون عن البيت الهاشمي، وقد ذكر ابن تيمية في تعريفه للعثمانيّين: «شعبة عثمان الذين يحبّونه ويبغضون عليّاً»<sup>(٢)</sup>.

إذا عرفت ما تقدّم، خصوصاً ما تقدّم في حقّ أبي بكر، تعرف أنّ الحديث المذكور في كيفية الصلاة، قد استبدل فيه لفظ (الآل) بلفظ (الأزواج والذرية)، وبذلك يكون هذا الراوي قد حقّق أمرين:

الأول: أخرج الإمام عليّاً × من المشمولين بفضيلة الصلاة.

والآخر: أدخل الأزواج فيها، وحوّلها من فضيلة خاصّة بأهل البيت <sup>٨</sup> إلى كونها عامّة تشمل غيرهم.

وهذان الأمران كلاهما يصبّ ضمن البرنامج الأمويّ في محاربة فضائل أهل البيت <sup>٨</sup>، عندها يحقّ لنا أن نتّهم أبا بكر الوالي لبني أمية بوضع هذا الحديث لمصلحتهم، أو أنّه رواه بالمعنى، أي: أنّه استبدل الآل بمعناه بحسب اعتقاده، ويكون قد جاء في تفسير الآل بما لم يسبقه إليه أحد، ولم يتابعه عليه أحد؛ حيث أخرج الأمام عليّاً من الآل، مع أنّ المسلمين متفقون جميعاً على دخوله فيها.

وقد ذهب بعض علماء أهل السنة إلى احتمال روايته للحديث بالمعنى، فهذا نور الدين السمهودي نراه يقول: «يحتمل أنّ هذا الراوي حيث حذف ذكر الآل، واقتصر على ذكر الأزواج والذرية روى بالمعنى؛ بناء على أنّ الآل هم

الأزواج والذرية فقط، كما هو أحد الأقوال السابقة، فرأى الاكتفاء بذكرهم عن ذكر الآل»<sup>(١)</sup>.

واحتمال الرواية بالمعنى في أحاديث كيفية الصلاة لم تقتصر على هذا المورد، فإن ابن حجر العسقلاني يحتمل أنها جرت في مورد آخر حيث يقول: «يحتمل أن يكون بعض من اقتصر على آل إبراهيم بدون ذكر إبراهيم رواه بالمعنى؛ بناءً على دخول إبراهيم في قوله آل إبراهيم»<sup>(٢)</sup>.

هذا، والرواية بالمعنى وإن كانت جائزة في الحديث عند المشهور، ولكن ينبغي أن تكون الكلمات المتبادلة متطابقة بالمعنى لغةً وشرعاً عند جميع المسلمين، وهنا جاء بمعنى لا يوافقه عليه أحد إلا بنو أمية.

هذا مضافاً إلى أن الرواية بالمعنى لا تصح في الكيفيات العبادية، فالصلاة على النبي ' كيفية عبادية، والكيفيات العبادية موقوفات للشارع بالهيئة واللفظ، ولا يصح التغيير فيها ولو بالمعنى المرادف، فللمشترع في كل لفظة علة قد نكون نجهلها.

فحصل مما تقدم: أن حديث الساعدي مردود وباطل على مستوى المتن والسند:

فأما المتن: ففي أفضل حالاته أن يكون مروياً بالمعنى، وقد عرفت ما في ذلك.

وأما على مستوى السند: فإنه ثبت أن من رواه من كان أموياً مشرباً ومنهجاً؛ إذ كانت النتيجة هكذا:

راوي الأول عنده نزعة أموية يرويه عن ابن الوالي الأموي، وهذا بدوره يرويه عن أبيه الوالي الأموي، وهو عن راوٍ في حديثه اختلاط، وهو يرويه عن صحابيٍّ عثمانيٍّ الهوى.

فتأمل في هذا السند واحكم عليه بنفسك، ولا تنسَ وأنت تحكم أن

تستحضر دلالات الحديث الشاذّة، والتي أُخرج بموجبها الإمام عليّ × من فضيلة الصلاة، مضافاً إلى حرمان أهل البيت <sup>٨</sup> من الاختصاص بهذه الفضيلة، وما في هذا الاختصاص من مزية لا تخفى.

فإنّك إذا جمعت بين هذه الدلالات وأحوال الرواة، فستجلى الحقيقة أمامك كالشمس في رابعة النهار.

إلى هنا، وبعد هذه الرحلة الطويلة مع حديث الساعديّ، والتي ثبت لك من خلالها أنّ الحديث باطل لا يصحّ الاحتجاج به على مشروعية حذف الآل، نكون بذلك قد أسقطنا آخر وأهمّ دليل يستند إليه القائلون بمشروعية هذا الحذف.

وبذلك يثبت وجوب ذكر الآل؛ لإجماع كميّات الصّلاة على ذكرها، مع وجود أحاديث نهت عن حذفها، وسُمّت الصّلاة التاركة لها بالصلاة البتراء، أي: الناقصة، مقابل التامة، وهي الذاكرة للآل.

ومن تلك الأحاديث: الحديث المشهور والمتلقّى بالقبول من الناقلين له، وهو قول النبي <sup>٩</sup> : « لا تصلّوا عليّ الصّلاة البتراء، قالوا: وما الصلاة البتراء يا رسول الله؟ قال: تقولون: اللهم صلّ على محمد - وتمسكون - بل قولوا: اللهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد ». نقله السخاوي والسمهودي وابن حجر والطهطاوي والشعراني وابن عقيل وغيرهم <sup>(١٠)</sup>، والشعراني بعد أن أورد الحديث زاد فيه: « فقل له: من أهلك يا رسول الله؟ قال: عليّ وفاطمة والحسن والحسين ».

وقبل أن نختم الكلام حول هذا الموضوع ننقل لكم بعض تصريحات علماء أهل السنّة في لزوم ذكر الآل مع النبي <sup>١١</sup>، وأنّ كميّات الصلاة كلّها أجمعت على ذكرهم، وعليه فإنّ الصلاة الصحيحة هي الذاكرة لهم <sup>١٢</sup>.

:

- ابن قيم الجوزية، قال: «إِنَّ أَكْثَرَ الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحَ وَالْحَسَانَ، بَلْ كُلُّهَا مَصْرُوحَةٌ بِذِكْرِ النَّبِيِّ ' وَبِذِكْرِ الْآلِ »<sup>(١)</sup>.

- النبهاني عن صاحب «ذخيرة الخير»، قال: «الصلاة على آل سنة مستقلة، ورد النص النبوي بطلبها في صحاح الأحاديث، ونص عليها الأئمة، واستعملها ' كذلك في جميع ما ورد عنه من صيغ الصلاة»<sup>(٢)</sup>.

- ناصر الدين الألباني، فقد صرح بعد تتبعه لجميع روايات كيفية الصلاة - ذلك التتبع الذي وصفه بأن أحداً لم يسبقه إليه -: «إِنَّ هَذِهِ الصِّيغَ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا فِيهَا كُلُّهَا الصَّلَاةُ عَلَى آلِ النَّبِيِّ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ مَعَهُ '، فَلِذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ وَلَا يَكُونُ مَنْفَذًا لِلأَمْرِ النَّبَوِيِّ مِنْ اقْتِصَارٍ عَلَى قَوْلِهِ: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ) فَحَسَبَ، بَلْ لَا بَدَّ مِنَ الْإِتْيَانِ بِأَحَدٍ هَذِهِ الصِّيغَ كَامِلَةً كَمَا جَاءَتْ عَنْهُ '، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ التَّشْهَدِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَهُوَ نَصُّ الشَّافِعِيِّ فِي الْأَمِّ»<sup>(٣)</sup>.

وقال في موضع آخر، وهو يردّ على النافين لشرعية الصلاة على آل في التشهد الأول: «إِنَّ الْقَوْلَ بِكَرَاهَةِ الزِّيَادَةِ فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ' فِي التَّشْهَدِ الْأَوَّلِ عَلَى (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ) مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ فِي السُّنَّةِ، وَلَا بَرَهَانَ عَلَيْهِ، بَلْ نَرَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَنْفِذْ أَمْرَ النَّبِيِّ ' الْمُتَقَدِّمَ: قَوْلُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ...»<sup>(٤)</sup>.

- الصنعاني، قال: «الصلاة عليه لا تتم ويكون العبد ممثلاً بها حتى يأتي بهذا اللفظ النبوي الذي فيه ذكر آل؛ لأنه قال السائل: كيف نصلي عليك؟ فأجابه بالكيفية أنها الصلاة عليه وعلى آله، فمن لم يأت بالآل، فما صلى عليه بالكيفية التي أمر بها، فلا يكون ممثلاً للأمر، فلا يكون مصلياً عليه '، ومن فرق بين ألفاظ هذه الكيفية بإيجاب بعضها، وندب بعضها، فلا دليل له على ذلك»<sup>(٥)</sup>.

وهناك تصريحات أخرى لعلماء آخرين نكتفي بهذا القدر منها؛ لنضمّه إلى ما سبق من بحثٍ لنخرج بحصيلةٍ صريحة واضحة، وهي:

أنّ الآل جزء واجب في كيفة الصلاة وأنها لا تصحّ بدونهم، ومن يرى خلاف ذلك وأنّ الواجب ذكر النبيّ ' فقط فقد استند إلى أدلّة باطلة، وعليه: فمن صلّى عليه ولم يذكر الآل لم يمثل أمر النبي ' ولم يعمل بسنّته الصحيحة.

\* \* \*

### الهوامش:

- (١) أبو زهرة محمد، مالك: ٦٩ - ٧١.
- (٢) راجع كتاب: الإمام مالك بن أنس لعبد الغني الدقر: ٢٩٧.
- (٣) سير أعلام النبلاء، ترجمة أبي بكر بن حزم.
- (٤) راجع: تاريخ المدينة المنورة لعارف أحمد عبد الغني: ٨٨ - ٩٠.
- (٥) راجع: الاستيعاب لابن عبد البر ٣: ١٣٧٥ في ترجمة محمد بن عمرو بن حزم.
- (٦) طبقات ابن سعد ٣: ٤١.
- (٧) الاستيعاب ٣: ١٣٧٥، وأنساب الاشراف للبلاذري ٥: ٣٤٤، البداية والنهاية لابن كثير ٨: ٢٤٠.
- (٨) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي كرم، الكامل في التاريخ ٤: ٣٥٧، دار صادر، بيروت ١٣٩٩هـ. البخاري، محمد بن إسماعيل، التاريخ الكبير ٦: ٤٩٧، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٩) راجع ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر.
- (١٠) طبقات ابن سعد ٣: ٤٤.
- (١١) منهاج السنة ٧: ١٣٨.
- (١٢) السمهودي، نور الدين، جواهر العقدين في فضل الشرفين: ٢١٧، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١: ١٤١٥هـ.
- (١٣) العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، ط ١:

١٤٢١هـ.

- (١٤) انظر: القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيق للسخاوي: ٤٥. جواهر العقدين للسمهودي: ٢١٧. الصواعق المحرقة لابن حجر: ٢٢٥. وساقه الطهطاوي الحنفي في شرحه على مراقبي الفلاح كدليل على ندبية الصلّاة على الآل ١: ٨. واستند إليه محمد بن عقيل الحضرمي الشافعي في النصائح الكافية: ٢٩٥، بعد أن سلّم بصحته في الردّ على من أنكر مشروعية الصلّاة على الآل في التشهد الأوّل. وأورده الشعراي في كشف الغمة ١: ٣٢٥.
- (١٥) ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام: ٢٢٥، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، دار ابن كثير، دمشق، ط ٣: ١٤١٧هـ.
- (١٦) النبهاني، يوسف إسماعيل، سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين: ٢٩، دار الفكر للنشر والتوزيع.
- (١٧) صفة الصلاة على النبي ' : ١٣٣.
- (١٨) المصدر نفسه: ١٢٩.
- (١٩) سبل السلام ١: ٣٠٥، شرح الحديث: (٢٣٦).

## × حياة الإمام الرضا

### نظرة سريعة

□ الشيخ محمود مطر (\*)

تقديم

هو الإمام عليّ الرضا ابن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام عليّ زين العابدين، ابن الإمام الحسين، ابن الإمام عليّ بن أبي طالب<sup>١</sup>، وابن سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء ÷ بنت سيّدنا ومولانا محمد رسول الله<sup>٢</sup>.

×:

ولد الإمام علي الرضا × في الحادي عشر من شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٤٨ هـ في المدينة المنورة.

(\*) باحث إسلامي / لبنان.

×

مما لا شك فيه أنّ أحد ألقاب الإمام علي بن موسى × هو الرضا، إلا أنّ الغائب عنّا هو سبب تلقيبه بهذا اللقب، والذي يجهلنا عن هذا السؤال هو الإمام محمد الجواد ×، ابن الإمام الرضا، حيث روي:

«عن عليّ بن ابراهيم بن هاشم عن أبيه عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي أنّه قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي موسى ^: إن قوماً من مخالفيكم يزعمون أنّ أباك إنّما سماه المأمون الرضا لما رضىه لولاية عهده، فقال: كذبوا والله وفجروا، بل الله تبارك وتعالى سمّاه الرضا؛ لأنّه كان رضىاً لله عزّ وجل في سمائه، ورضاً لرسوله والأئمة من بعده - صلوات الله عليهم - في أرضه، قال: فقلت له: ألم يكن كلّ واحدٍ من آبائك الماضين ^ رضىاً لله تعالى ولرسوله والأئمة ^ فقال: بلى، فقلت: فلم سمّى أبوك من بينهم الرضا ×؟ قال: لأنّه رضى به المخالفون من أعدائه، كما رضى به الموافقون من أوليائه، ولم يكن ذلك لأحد من آبائه ^، فلذلك سمّى من بينهم ^ الرضا»<sup>(١)</sup>.

والذي يشهد على أنّ الذي لقّبه بالرضا ×، ليس هو المأمون: ما روي من أنّ الإمام موسى الكاظم × كان يلقبه بالرضا منذ صغره - أي قبل التقائه بالمأمون في أرض خراسان - وهذا ما قد رواه عنه ×:

عبد العظيم بن عبد الله الحسيني عن سليمان بن حفص المروزي قال: «كان موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ^ يسمّى ولده علياً ×: الرضا، وكان يقول: (ادعوا لي ولدي الرضا)، و(قلت لولدي الرضا)، و(قال لي ولدي الرضا)، وإذا خاطبه قال: (يا أبا الحسن)»<sup>(١)</sup>.

والإمام الرضا × هو أحد الأئمة الذين أوجب الله طاعتهم علينا وأمرنا باتباعهم، وبمناسبة ذكرى ولادته الميمونة، ارتأينا من المناسب أن نستعرض



جملة مما ورد عنه × ، حثاً لأنفسنا على إطاعة أمر الله تعالى باتباعه، مضافاً إلى ما ورد عن إمامنا موسى الكاظم × من وجوب اتباعه، حيث قال لبنيه: «هذا أخوكم علي بن موسى عالم آل محمد، فاسألوه عن أديانكم، واحفظوا ما يقول لكم، فإنني سمعت أبي جعفر بن محمد ' غير مرة يقول لي: إن عالم آل محمد لفي صلبك، وليتني أدركته، فإنه سمي أمير المؤمنين علي'»<sup>(١)</sup>. وهذه الرواية صريحة في وجوب الأخذ عنه × وأن قوله × حق، وما ذلك إلا لأنه لا يحيد عن دين الإسلام، دين الحق، قيد أنملة، ولأنه من أكثر الناس خبرة بالسعادة الدنيوية والأخروية.

:

روي: أن المأمون قال للرضا عليه السلام: «يا ابن رسول الله، قد عرفت فضلك وعلمك وزهدك وورعك وعبادتك، وأراك أحق بالخلافة مني، فقال الرضا: بالعبودية لله أفتر، وبالزهد في الدنيا أرجو النجاة من شر الدنيا، وبالورع عن المحارم أرجو الفوز بالمغانم، وبالتواضع في الدنيا أرجو الرفعة عند الله. فقال له المأمون: فإنني قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك. فقال له الرضا: إن كانت هذه الخلافة لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسه الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك، فلا يجوز أن تجعل لي ما ليس لك. فقال المأمون: لا بد لك من قبول هذا الأمر. فقال الرضا: لست أفعل ذلك طائعاً أبداً»<sup>(٢)</sup>.

من خلال هذا الحديث نستفيد: أن الإمام عليه السلام يريد إلفات نظرنا إلى النقطتين التاليتين:

النقطة الأولى:

أن الذي يجب أن يفخر به الإنسان، هو كونه عابداً لله تعالى، وكونه زاهداً في

الدنيا وما فيها من الأوساخ، وأن يكون له من الورع ما يبعده عن محارم الله عز وجل، وأن يكون متواضعاً.

وبهذا يكون الإمام الرضا عليه السلام قد رسم لنا طريقاً نسلكه في حياتنا، يضمن لنا الفوز عند الله تعالى والنجاة من عذاب الآخرة.

بل يمكن أن يقال: إن الإمام الرضا عليه السلام، يرشدنا إلى طريقٍ تفرض على المجتمع احترام بعضه بعضاً، فإن الإنسان العابد لله عز وجل، والزاهد في الدنيا، والذي يملك من الورع ما يردعه عن محارم الله تعالى، والمتواضع الذي لا يزاحم أحداً على أمرٍ دنيويٍّ، ولا يتكبر على أحدٍ، ولا يعنيه شيء من أمور الدنيا الفانية، لا بد من احترامه، والنظر إليه بنظرة إجلالٍ.

نعم، قد يقع كره هذا الإنسان في قلوب بعض الناس، لكن لا لكونه عابداً لله تعالى، بل لمحلّ الحسد في قلب الغير، وأنه كيف نال حبّ الناس واحترامهم، دونهم. ما يتسبب بمشاكل تعيق سير وحركة الحياة الاجتماعية، إذ يبدأ التنافس بين هؤلاء الحساد على حساب القيم الأخلاقية وغيرها، فيؤدّي ذلك إلى فساد المجتمع.

#### النقطة الثانية:

وهي عدم التصدي لمنصبٍ لسنا أهلاً له، وهي مترتبة على النقطة الأولى، فإن الإمام عليه السلام، في كلامه مع المأمون أراد أن يشير إلى أن الأمر ليس لك حتى تغزل نفسك وتعيّن غيرك، وإنما الذي يحقّ له هذا هو الذي له حقّ من الله تعالى بهذا المنصب، والإمام الرضا عليه السلام أعلم من غيره بأنه هو أحقّ من غيره به.

وهذا الكلام لا يختصّ بالمناصب الإلهية، بل يشمل كلّ منصب فيه التصديّ لأمر الناس وحقوقهم، فإن التصديّ لمثل هذه المناصب، والإسراع إليها قبل الغير، مع عدم توفّر الأهلية الكافية لها - من الدين والعلم والخبرة والانضباط والكفاءة - قد يؤدّي إلى ضياع حقوق الآخرين وأذيتهم، والوقوع في

المحرّمات، وفي معصية الله تعالى، فإنّ الإنسان، وبخاصّة إذا لم يكن صاحب دين، لا يردعه شيء عن مخالفة المبادئ والأخلاق، ما يدفعه إلى أن يتستّر على أخطائه عندما يخطئ لكيلا يُجاسَب أو يُلام.

ومن هنا نعود إلى النقطة الأولى، وهي كون العبوديّة لله تعالى والزهد في الدنيا والورع والتواضع، هي الأساس في السعادة وحفظ المجتمع. وهذا ما جاء لأجله الإسلام، وبلغه سيّد المرسلين محمّد ، واتّبعه على ذلك أهل البيت <sup>٨</sup>.

:

كما رسم لنا الإمام الرضا طريقاً تضمن لنا السعادة والفوز في الآخرة، فهو كذلك علّمنا وأعطانا ميزاناً على أساسه يمكن لنا أن نحكم بأن فلاناً أفضل من فلان بنظر الله تعالى، وبحسب المعايير الربّانيّة، لا بنظر الإنسان الضعيف المفتقر، وهذا الميزان ليس إلّا الميزان الذي حدّدته الآية الكريمة: {يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَعُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

فأفضليّة شخص على آخر ليست بما يملكه من المال والجاه، ولا بمكانته الاجتماعيّة بين الناس، بل بتقواه، ومدى قربه إلى الله تعالى، فكلّما كان الإنسان أقرب إلى الله تعالى وأتقى من غيره، كان أفضل عند الله تعالى، ولا يهمّ من أيّ بلد هو، ولا ما هو لون بشرته، ولا اللّغة التي يتحدّث بها، ولا إلى من ينتسب، مهما كان نسبه شريفاً، بل الميزان هو، فقط فقط، تقوى الله تعالى.

وهذا المبدأ أشار إليه إمامنا الرضا عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام، فيما روي عنه: «أَنَّ شَخْصاً قَالَ لَهُ X : أَنْتَ وَاللّهِ خَيْرُ النَّاسِ. فَقَالَ لَهُ X : لَا تَحْلِفْ يَا هَذَا! خَيْرٌ مِنِّي مَنْ كَانَ أَتَقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَطُوعَ لَهُ، وَاللّهِ مَا نَسَخْتُ

هذه الآية: {وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ} <sup>(١)</sup>.  
وهكذا يحدّد لنا الإمام الرضا عليه السلام النظريّة الإسلاميّة المرتكزة على إزالة  
الفوارق الطبقيّة، ورعاية كرامة الإنسان، وأنّ الفوارق التي يجب ملاحظتها هي  
تلك التي ترتبط بإطاعة الله وتقواه.

:×

قال: «لا يتمّ عقل امرء مسلم حتّى تكون فيه عشر خصال: الخير منه مأمول،  
والشرّ منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقلّ كثير الخير من نفسه، لا  
يسأم من طلب الحوائج إليه، ولا يملّ من طلب العلم طول دهره، الفقر في الله  
أحبّ إليه من الغنى، والذلّ في الله أحبّ إليه من العزّ في عدوّه، والخمول أشهى  
إليه من الشهرة.

ثم قال عليه السلام: العاشرة وما العاشرة! قيل له: ما هي؟ قال عليه السلام: لا يرى أحداً  
إلا قال: هو خير مني وأتقى. إنّما الناس رجلان: رجل خير منه وأتقى، ورجل  
شرّ منه وأدنى، فإذا لقي الذي شرّ منه وأدنى قال: لعلّ خير هذا باطن، وهو خير  
له، وخيري ظاهر، وهو شرّ لي. وإذا رأى الذي هو خير منه وأتقى تواضع له  
ليلحق به، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وطاب خيره، وحسن ذكره، وساد أهل  
زمانه» <sup>(٢)</sup>.

وليس مراده × من هذه الموعظة، إلغاء القانون الذي وضعه الله عزّ وجلّ  
للشريّة من العمل بظاهر حالهم، بأن يكون الإنسان ظاهره الشرّ والخيانة  
والكذب - مثلاً - ومع ذلك نثق به ونؤيّه أمورنا ولا نشهد عليه بما هو ظاهر  
منه إن طلب منّا هذا، فإنّ هذا يوجب حلول الفوضى بين الناس، ويسمح  
للذي في قلبه مرض بأن يستغلّ الإسلام وإيمان الناس، ليصل إلى مطامعه  
الشريرة.

وهذا حتماً ليس مقصود الإمام ×، لا بل على العكس، فإنّه × ناظر إلى تعليمنا كيف نكسر حاجز التكبر في أنفسنا، وحاجز العجب، والصفات الرذيلة التي تتحكّم بالنفس الإنسانية، وأن لا تعمّ الفوضى بين الناس من اتّهامهم لبعضهم بعضاً بقلّة الدين والالتزام؛ فإنّ الإنسان في غير الأمور العامّة والمرتبطة بالمجتمع، لا يجوز له أن ينظر إلى الغير بنظرة يشوبها الكبر والعجب، وأنّه أفضل من غيره.

وخاصّة كما يفعله البعض من أهل زماننا، حيث إنّه بمجرد أن يرى من غيره ما لا يعجبه، أو ما ظاهره خلاف الشرع، يسارع إلى اتّهامه، والحكم عليه بالفساد، ويرى نفسه أفضل منه، بل في كثير من الأحيان يكون المتّهم لغيره أسوأ بكثير من غيره، لكنّه لا يرى ما يصدر من نفسه، وما هذا إلّا لوسوسة الشيطان له. ليصحّ بذلك قول القائل:

«نرى القشة في عين الآخرين، ولا نرى الخشبة في أعيننا».

:×

لقد كانت شهادة الإمام علي الرضا × في قرية يقال لها سنا آباد سنة ثلاث ومائتين من شهر صفر، في أشهر الروايات، وقيل غير ذلك. وقد أسلم × الروح لبارئها مسموماً بسمّ دسّه له المأمون في شراب الرمان. وقيل: في عنب قدّمه إليه.

:×

دفن الإمام علي بن موسى الرضا × في دار حميد بن قحطبة الطوسي، في القرية التي استشهد فيها، وهي قرية صغيرة تابعة لطوس القديمة، وكانت دار حميد قحطبة في بستان يسكنها، وبعد دفنه × فيها تحوّلت قرية سنا آباد إلى

مدينة عامرة اشتهرت باسم مشهد الرضا × أو مشهد طوس.

:×

روى الحسن بن علي بن فضال عن أبي الحسن الرضا × أنه قال: «إنَّ بخراسان لبقعةً يأتي عليها زمانٌ تصير مختلف الملائكة ، فقال: فلا يزال فوج ينزل من السماء وفوج يصعد إلى أن ينفخ في الصور.

ف قيل له: يا ابن رسول الله وأية بقعة هذه؟ قال: هي بأرض طوس، فهي والله روضة من رياض الجنة، من زارني في تلك البقعة كان كمن زار رسول الله ' وكتب الله تبارك وتعالى له ثواب ألف حجة مبرورة ، وألف عمرة مقبولة، وكنت أنا وأبائي شفعاؤه يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وإنَّه لأمر عجيب؛ إذ لا يكفي أنَّ الإمام الرضا وآبائه وأولاده <sup>٨</sup> أرشدوا البشرية إلى طريق الحق، بل حتى بعد مماتهم <sup>٨</sup> لا يزالون يفيدون البشرية ومن اتَّبَعهم بالخيرات، وحتى قيام يوم الدين يوم يفرَّ المرء من أمِّه وأبيه. وما هذه المنزلة والكرامة من الله تعالى لهم <sup>٨</sup>، إلَّا لأنَّهم أفنوا حياتهم وراحاتهم في سبيل الإسلام وإيصال الإنسانية إلى كمالها الدنيويِّ وسعادتها الأخرويَّة.

وليس هذا تشجيعاً من الإمام الرضا × للتكاسل وللتهاون في الدين واللامبالاة في طاعة الله عزَّ وجل، من جهة كفاية زيارة هذه البقعة لنيل الجنة، بل كما ورد في أكثر من رواية، أنَّ الحصول على ثواب الزيارة منوط بمعرفة حقِّهم <sup>٨</sup>، ومعرفة حقِّهم لا تحصل بمجرد العلم بأنَّهم أولى من غيرهم بالولاية، بل لا بدَّ من العمل بهذا.

والأمر بالنسبة للشفاعة على نفس الوزن، فلا ينال الشفاعة مستخفَّ بالصلاة كما ورد في بعض الروايات.

وإنَّما المراد هو كون الإنسان مطيعاً لله تبارك وتعالى، إلَّا أنَّه كغيره من أبناء

البشريّة قد يخطئ ويغفل، فلا يجد من يخلصه منه يوم الحساب، فيأتيه الإمام  
الرضا والأئمة الأطهار <sup>ع</sup> ليشفعوا له.

فالله تبارك وتعالى جعل لنا طريقاً إضافياً يمكننا من خلاله الحصول على  
الثواب - وما أعظمه من ثواب -، ليكون زاداً لنا في الآخرة، من خلال زيارتنا  
لهذه البقعة الشريفة والمباركة.

\* \* \*

### الهوامش:

(١) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، عيون أخبار الرضا ٢: ٢٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،  
بيروت.

(٢) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، عيون أخبار الرضا ٢: ٢٣.

(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ٤٩: ١٠٠، ط مؤسسة الوفاء، بيروت.

(٤) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب ٣: ٤٧٢، ط مطبعة الحيدريّة، النجف الأشرف.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار ٤٦: ١٧٨، مصدر سابق.

(٦) المجلسي، بحار الأنوار ٧٥: ٣٣٦.

(٧) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق بن بابويه أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين القمي رحمته الله: ٢:  
٥٨٥، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في قم المقدّسة.

## حظر الحجاب

### انتهاكٌ للحرية

□ د: غادة أحمد عيسى (\*)

#### التمهيد

كثيرة هي الجرائم ضد الإنسانية التي تمّ تبريرها عبر إدلاء ستار الإنسانية عليها، فسُمّي الاحتلال (حمية)، والإستعمار (انتداباً)، وسرقة ثروات الشعوب (تطويراً)، واليوم بتنا نسمع بمحاربة التطرف، وذلك عبر ارتكاب أبشع الجرائم بحقّ المحجبات.

فمن المؤسف جداً أن تُكرّس قوانين تبيح إرغام الفتاة المحجبة على خلع حجابها تحت شعار محاربة التطرف، أو شعار تحرير المرأة المسلمة من التخلف والاضطهاد، كما يحاول البعض أن يصوّرها.

فما مدى شرعية هذه القوانين؟ وهل يجوز وفق المواثيق والقوانين الدولية أن تُصدّر بعض الدول قوانين تحرم المرأة من ارتداء الحجاب تحت أيّ ذريعة كانت؟

(\*) باحثة إسلامية، دكتوراه حقوق / لبنان.



وهل فعلاً الهدف الذي تسعى إليه هذه الدول هو إلغاء الرموز الدينية وتطبيق العلمانية كما تدّعي، أم أنّ هناك غاية أخبت تسعى إلى تحقيقها؟

\* \* \*

بداية نودّ أن نُلفت عناية القارئ الكريم بأننا سنعالج هذا الموضوع من زاوية قانونية بحتة، دون التطرّق إلى رأي الشريعة الإسلامية التي نجد في تعاليمها الأمان والاستقرار والجواب الشافي لمسألة الحجاب، الذي نعتبره واجباً وفرضاً علينا، وهو أمرٌ مسلّمٌ به في عقيدتنا لا يقبل النقاش أو المساومة، ولكن سنتوجّه في هذا المقال إلى مَنْ لم تستر قلوبهم بنور الإيمان، ولم تتجلّ لهم حقيقة اصطفاء الله للمرأة المسلمة، وخصها بفضله أن تكون وحدها من بين نساء أمم الأرض محافظة على شريعته، مستجيبة لأمره... نتوجه إلى من آلت نفوسهم دون أن يعترفوا بأنّ الحجاب فريضة ربانية في نصوص الوحي<sup>(١)</sup>، لنناقش الحجاب كحقّ تجب حمايته رغم إيماننا بأنّه واجب يجب الالتزام به...

:

جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أنّه «لكلّ إنسان حقّ التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان دونما تمييز من أيّ نوع، ولا سيما التمييز بسبب... الدين»<sup>(١)</sup>.

كذلك نصّ الإعلان بموجب المادة الثالثة منه على أنّه «لكلّ فرد حقّ في الحياة والحرية، وفي الأمان على شخصه».

فإذا كانت الحياة هي أوّل حقّ جعله الله للإنسان، فإنّ حقّ هذا الأخير في

حياة حرة وكريمة هو من المسلمات التي لا جدال حولها. وإذا كانت المرأة المسلمة تجد بحجائها سوراً يحميها من الوقوع في مآرب الرذيلة، وانتماءً يمثل وعيها وإدراكها لمعالم رسالتها الإنسانية، وحرية حققة تتجسد في طاعتها لخالقها، وتحرراً من عبودية الجهل والتخلف؛ فإنّ حرمان المرأة من حقّها في أن تؤدي وظيفة العبودية لله، وما يحول بينها وبين النجاح في اختبار الدنيا لتتعمق بهجتها، يعتبر انتهاكاً لحرمتها وتعسفاً في استعمال السلطة يعاقب عليه القانون. وبذلك، فإنّ الاتجاه السلبي ضدّ الحجاب يمثل نوعاً من أنواع الاضطهاد الإنساني للمرأة المسلمة الملتزمة بالحجاب، وتقييداً للحريات العامة والخاصة في الحقّ الذي يملكه الإنسان في اختيار اللباس الذي يلبسه، سيما إذا كانت بعض خصوصياته تمثل التزاماً دينياً لا يملك المسلم في التزامه الشرعي أن يتجاوزه، كما هي الحال بالنسبة لحجاب المرأة المسلمة.

:

ما يثير الدهشة في هذا المجال، هو أنّه كيف يمكن أن نفترّس إجبار الفتاة المسلمة على خلع الحجاب في الوقت الذي ينادي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بأنّ «لكلّ شخص حقّ في حرية الفكر والوجدان والدين، ويشمل هذا الحق حريته في... إظهار دينه أو معتقده بالتعبّد وإقامة الشعائر والممارسات...»<sup>(١)</sup>!

أوليس الحجاب شعيرة من شعائر الله وعبادة تتقرّب بها الفتاة المسلمة من خالقها؟

كيف يمكن لدول ارتضت لنفسها هذا الإعلان شرعة ودستوراً، أن تصدر قوانين تخالف هذه الشرعة<sup>(٢)</sup>؟

فمثل هذه القوانين تشكّل تعدياً صارخاً لا مبرر له على حقّ ممارسة الشعائر

الدينية المحمية بموجب القوانين الدولية.

كيف يمكن لدولٍ تغنت بالديمقراطية، وافتخرت دساتيرها بالحرية<sup>(١)</sup>، أن تمنع المحجبات من دخول المدارس والجامعات، أو أن تحرمهن من تولي الوظائف ومباشرة بعض المهام! هل غفلت هذه الدول عن أن إصدار قوانين تحظر ارتداء الحجاب يعدّ مخالفة دستورية، وأنّ كلّ قانون مخالف للدستور يجب إبطاله؟

:

بالطبع لم يخف على الدول التي حظرت ارتداء الحجاب بموجب قوانينها الداخلية أنّ مثل هذه القوانين مجحفة وجائرة. وهي إن ادّعت في الظاهر أنّ كلّ ما تهدف إليه هو إلغاء الرموز الدينية التي تتناقض مع العلمانية التي تدين بها، إلّا أنّ الهدف الحقيقي الذي تسعى إلى تحقيقه هو طمس الهوية الإسلامية. وبما أنّ التزام المرأة بالحجاب يعني التزامها بتعاليم الدين الإسلامي، فمن الطبيعي أن يُحارب الحجاب وأن يُستخدم كسلاح لمحاربة الفكر والثقافة الإسلامية؛ سيما وأنّ الحجاب بات يمثل اليوم مظهراً من مظاهر التحدي الفكري والسلوك الإسلامي المتأبّي على التكريع في زمن تهاوت فيه الأنماط الفكرية والأخلاقية أمام سحر الليبرالية التي أعلنت نهاية تاريخ الأفكار والقيم عند سواحلها...

\* \* \*

الهوامش:

(١) ففي القرآن الكريم ورد عدة آيات تدلّ على ذلك، منها قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥١﴾. وفي سورة النور: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْثَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

(٢) المادة (٢) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ١٩٤٨.

(٣) المادة (١٨) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

(٤) مثال القانون الفرنسي رقم (٢٢٨) الصادر ١٥ آذار ٢٠٠٤ الذي عدّل قانون التعليم، ونصّ على حظر إبداء أيّ علامات، أو ارتداء أيّ ملابس يبيّن بها التلاميذ انتماءهم الديني، وقد اشتهر هذا القانون باسم قانون الحجاب.

(٥) المادة السادسة من الدستور الهولندي: «لكلّ شخص الحق في ممارسة شعائره الدينية أو معتقداته بحرية، كفرد أو ضمن جماعة». المادة الرابعة من الدستور الألماني، والمادة (٥٤) من الدستور البولندي، والمادة (١٩) من الدستور البلجيكي.

## سنوات التيه السلطوية في صحراء المفاوضات العبيثة

□ الشيخ بلال شعبان (\*)

لم يكن التفاوض مع العدو الصهيوني في يوم من الأيام طريقةً مجدية لاستعادة الأرض ووقف العدوان، بل لطالما كانت المفاوضات جبهة مواجهة أكثر ضراوةً ومرارةً من الجبهات العسكرية، ويحقّق العدو من خلالها بالسياسة ما عجز عن تحقيقه بالحرب والعدوان.

وقد يقول قائل: ها هي مصر قد استعادت سيناء كاملة غير منقوصة، فما العيب في التفاوض؟

فنقول: إنّ ثمن استعادة سيناء سياسياً كان باهظاً وكارثياً، بحيث كسر العزلة عن «إسرائيل» وشرّع لها بوابات إفريقيا والعالم، وصدّع صفّ المواجهة العربي، وأخرج القاهرة المعزّ من ميدان المواجهة، وأحدث خللاً في ميزان القوى المختلّ أصلاً.

وعندما نقف اليوم أمام الدعوة الأمريكية المستعجلة إلى مفاوضات مباشرة

---

(\*) الأمين العام لحركة التوحيد الإسلامي/ لبنان، وهو ابن المرحوم الشيخ سعيد شعبان مؤسس الحركة.

في ٢ أيلول بين المفاوض الفلسطيني والعدو الصهيوني، لا نرى في ذلك صحة ضمير أمريكية لإعادة الحق العربي المضاع على قارعة المفاوضات، وإنما مخرجاً من مأزق حقيقيّ تعيشه أمريكا نتيجة الفشل المدوّي الذي لقيه في أفغانستان والعراق، وحاجة إسرائيلية لتغيير المشهد الدوليّ، الذي أظهرها على حقيقتها كدولةٍ معتديةٍ ومنتهكةٍ لكلّ الأعراف والقوانين الدوليّة بعد مجزرة أسطول الحرّة، وفرصةٍ ذهبيّة، ووقتاً مستقطعاً جديداً تستفيد منه لتهوّد البقية الباقية من الأراضي المحتلة والقدس، إن بقي منها شيءٌ لم يهود بعد!!

ولطالما استفاد العدو من الوقت المسفوح على جنبات المفاوضات العبيثيّة، فبعد مؤتمر مدريد عام ١٩٩١م. كان انهيار جدار المقاطعة الدوليّ الأخير، بحيث اعترفت البقية الباقية من دول العالم بـ «إسرائيل» على اعتبار أنّه إذا كان القاضي راضياً فعلاً نكون ملكيين أكثر من الملك، وفلسطينيين أكثر من أصحاب الأرض؟!!

وفي مؤتمر أوسلو ١٩٩٣م. استُدّرج المفاوض الفلسطيني منفرداً، وفُصلت المسارات التفاوضيّة، ما زاد المفاوض الفلسطيني الضعيف ضعفاً، واعترف رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يومها رسمياً بـ «إسرائيل»، وخفض سقف المطالب الفلسطينية.

وما لبث أن تحوّل شعار «ثورة حتى النصر» و«تحرير فلسطين من النهر إلى البحر»، ما لبث أن تحوّل كلّ ذلك إلى دعوةٍ لإقامة دولةٍ فلسطينيّةٍ على أراضي ١٩٦٧، ثمّ إلى سلطةٍ تجريبيةٍ هي أقرب منها إلى بلديةٍ دون حدودٍ أو صلاحيّات، اللهمّ إلّا مهمّة قمع الانتفاضة وفصائل المقاومة المسلّحة، وتراجعت المطالبة بالقدس، كلّ القدس، كعاصمة للدولة الفلسطينية الموعودة، إلى الرضا بالقدس الشرقيّة عاصمةً للدولة الموعودة، ثمّ استبدلت بأبو ديس، ثمّ تبخّر الحلم المقدسيّ بعد سنوات التيه السلطويّة في صحراء المفاوضات

العبيثة.

ولم يتوقف مسلسل التنازلات عند هذا الحدّ، ففي العام ١٩٩٦ غيّرت منظمة التحرير الفلسطينية بصورةٍ رسميَّة الجمل والعبارات الموجودة في ميثاقها، الداعية إلى القضاء على دولة «إسرائيل»، وتعهّدت بمحاربة الإرهاب «المقاومة». وتمّ رسمياً في ١٤ ديسمبر ١٩٩٨، شطب ١٢ بنداً من أصل ٣٠، وتغيير جزئيّ في ١٦ بنداً، في الجلسة التي حضرها الرئيس الأمريكيّ آنذاك «بيل كلينتون»، ولم تقم الدولة الفلسطينية الموعودة والمتنظرة.

ما لبث أن طرح الرئيس الأمريكي بوش رؤيته لـ «السلام العادل» في ٢٠٠٣، فيما عُرف بـ «خارطة الطريق» للتسوية السلمية النهائية، والتي قامت على عدّة مراحل، منها: إقامة دولة فلسطينية بحلول عام ٢٠٠٥، والانسحاب الإسرائيليّ من المدن الفلسطينية، وتجميد بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة، ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقّق.

ثمّ بعد كلّ ذلك، تستجيب السلطة الفلسطينية لنداء «السلام»، وتشدّ الرحال إلى واشنطن، لتقيم الحجّة الدامغة على «إسرائيل»!! أمّا أمريكا والرباعية الدولية، وبشهادة الشهود العدول: ملك البحر الميت، ورئيس الشعب الميت، فهي ملتزمة بالسلام العادل والشامل!!

ما يحدث اليوم في واشنطن تصفية نهائية للقضية الفلسطينية للقدس واللّاجئين وحقّ العودة، بل ربّما تنتج ترنسفيراً جديداً لعرب ١٩٤٨، على اعتبار أنّ الاعتراف بيهودية الدولة الإسرائيلية الذي يشترطه داعية السلام «بنيامين نتنياهو»!! سيحوّل، بهمة الرئيس عبّاس، عرب ١٩٤٨ إلى غرباء على أرضهم، ليكون الأردن هو الوطن البديل.

إنّما الدولة الموعودة القادمة، شرط بقاء «إسرائيل» في غور الأردن، على الحدود بين الضفة والأردن، وعلى قمم الجبال المطلّة عليه، لمراقبة مجالها الجوّي،

وسيطرتها على المياه الجوفية والسطحية والثروات الباطنية، للتأكد من عدم التواصل الخارجي، فهل هذا دولة أم سجن كبير؟؟!!

دولة، لكن منزوعة السلاح، ويحظر عليها أي اتفاق أمني مع أي طرف ثالث دون موافقة «إسرائيل»!! والمضحك المبكي، أن الرئيس المنتهية صلاحيته يقول: ندخل المفاوضات المباشرة فليس لدينا شيء لنخسره!!

نعم، وصدق بذلك، فإن كانت جولات المفاوضات الأولى قد ضيّعت أراضي فلسطين التاريخية، ثم القدس، ثم ضيّعت الأحياء، ثم الأموات في مقبرة مأمّن الله، فهل بقي شيء ليضيّعه «صاحب الفخامة» أو «رئيس الدولة».

غزة اليوم، وبهمة القريب قبل البعيد، محاصرة وجائعة، وليلها مظلم، ولكنها لم تفقد الكرامة والإرادة، فهي حرة محررة، خلف جدار «الأخوة» الفولاذي، وكذلك الضفة لها جدار، فهم في الجدران سواء، هو جدار الفصل العنصري الذي يتلوّى على أرضها كالأفعى القاتلة، والمستعمرات الإسرائيلية قضمت من أرضها ٤٢٪..

هي حرة وديمقراطية بشهادة الرباعية الدولية!! ولكن لا يُسمح فيها لعقد مؤتمر يعارض المفاوضات العبيثة..

هي حرة، لكن لا مساحة فيها لخيار الرفض أو المقاومة، والذي يتمع هي شرطة هم من أبناء جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، وإن كانوا يُسمّون بشرطة دايتون، إنها الضفة الغربية نتيجة من نتائج المفاوضات العبيثة، لا ينقصها شيء، لا كلاً ولا كهرباء ولا غذاء... سماء... وماء... لا ينقصها شيء إلا «شنب» وبعض كرامة... وكل ذلك سيقط متاع في عصر «الشعر المستعار».

فهل التفاوض بعد نظر؟! أم وجهة نظر؟!

أم جنون وعمى بصيرة وبصر؟!...

أم...



يقول الله تعالى في كتابه العزيز: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ }  
[البقرة: ١٩٠]، ولم يقل: وفاوضوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم..  
{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ }  
[ق: ٣٧].

\* \* \*

## زيارة الرئيس الإيراني أحمدني نجاد إلى لبنان

قراءة في الأبعاد والدلالات والتداعيات

### □ المحرر الثقافي والسياسي

استقبال شعبي حاشد سبق الاستقبال الرسمي - الحاشد أيضاً - كان بانتظار الرئيس الإيراني الدكتور محمود أحمدني نجاد منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى أرض مطار بيروت الدولي.

وقد استمر هذا الاستقبال بالزخم نفسه، وبالوتيرة نفسها، مرافقاً ومحتضناً للضيف الكبير حتى حين وقوفه بكل عزّة وشجاعة وشموخ في أرض العزة والجهاد، في مدينة بنت جبيل الجنوبية الصامدة، وعلى مرمى حجر من أرض فلسطين المحتلة، هذه الأرض المظلوم أهلها، المبارك ما حولها، عند القرى الحدودية في قلب الجنوب اللبناني. وهو - أعني: هذا الموقف - رأته فيه صحيفة الـ «ديلي تلغراف» البريطانية: «العنصر الأهم في الزيارة، حين وقف الضيف الإيراني على بعد ٤ كيلومترات فقط من أعدائه الإسرائيليين في بنت جبيل وقانا».

زيارة أحمدى نجاد إلى لبنان - وهى الأولى له منذ أن تمّ انتخابه رئيساً للجمهورية الإسلامية فى الدورة الأولى عام ٢٠٠٥ - استغرقت يومين فقط، ولكنها شهدت ما شهدته من توقيع اتفاقيات اقتصادية، ومذكرات تفاهم فى المجالات التجارية والصناعية والطاقة والماء والكهرباء والبيئة، وما يرتبط بشؤون التعاون العلمى والتعليمى، كما تمّ فى خلالها أيضاً التشاور مع المسؤولين اللبنانيين بشأن مختلف القضايا الإقليمية والدولية المعاصرة. وإلى جانب هذا كله، فقد حملت هذه الزيارة دلالات وأبعاداً ومضامين استراتيجية من شأنها أن تسفر عن آثار عميقة، ونتائج باهرة، وتداعيات بعيدة المدى، لا على صعيد البيت اللبنانى الداخلى فحسب، بل على صعيد الوضع السياسى العام فى منطقة الشرق الأوسط برمتها، وكذلك: على صعيد المعادلات الدولية العالمية ككل.

ففى الوقت الذى كانت زيارة أحمدى نجاد موضع ترحيب شعبى ورسمى واسع النطاق داخل لبنان، فقد أثارت هذه الزيارة قلق «إسرائيل» التى كانت قد اكتوت بنار المقاومة الإسلامية اللبنانية فى عدوان ٢٠٠٦، غير أنها - وعلى خلاف عاداتها - لم تجرؤ على الإيحاء بأنها فى طور تصعيد الأوضاع الأمنية والعسكرية فى المنطقة، بل اكتفت بالتصريحات الغاضبة، واللسان الاحتجاجى لدى مجلس الأمن، ودعوة مستوطنىها إلى ملازمة ملاجئهم، وأخذ كامل إجراءات الحيلة والحذر، وبخاصة فى المستوطنات الشالية المتاخمة للحدود الجنوبية اللبنانية، ما يعكس حالة غير مسبقة من الخوف والتراجع الإسرائيلى فى تاريخ هذا الكيان الهجين، فى مؤشّر واضح إلى ارتفاع منسوب الذعر والشعور بالعجز والإهانة لدى الصهاينة.. فهذا الرئيس الإيرانى وهو أحد الد

أعدائهم يتباهى بالتجوال جنوباً على مقربة من الحدود، وفي نفس الأماكن التي كانت شاهداً على فشل الخيار العسكري للاحتلال، في «بنت جيل»، تلك المدينة المسحورة التي تحولت إلى مقبرة لجنودهم ودباباتهم، وها هو من المكان نفسه، يتوقع قرب زوال «إسرائيل»، ويُعيد وصفها بوصفٍ تمقته وتعرفه جيداً منذ اندحارها ذليلاً عام ٢٠٠٠، وهو وصف «بيت العنكبوت»، الذي كان قد أطلقه عليها آنذاك، وفي المكان نفسه، الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله، الأمر الذي من شأنه أن يحفر عميقاً في الوعي الصهيوني، ويذكر الصهاينة بأن جميع سياساتهم في لبنان وفلسطين والمنطقة، مآلها إلى الفشل والارتكاس، ومن مأزق إلى آخر، من دون أن تلوح في أفقهم بارقة أمل بمستقبل بعيد.

لقد انشغلت «تل أبيب» في الأيام والأسابيع التي سبقت الزيارة بمحاولاتٍ جادة تهدف إلى الحيلولة دون حصول الزيارة ومنعها، واستجمعت في هذا السبيل كل ما لديها من قوة وعلاقات وإمكانات وموارد، متوسّلة بكل من الإدارة الأمريكية والأمم المتحدة والحكومة الفرنسية وجهاتٍ أخرى أن تطلب من الحكومة اللبنانية منعها!!

حتى إذا استسلمت إلى فشل تلك المحاولات، وانتهائها إلى طريق مسدود، في ظلّ التجاهل والإصرار (اللبناني - الإيراني)، وأنّ ما جرى التخطيط له للزيارة من التوقيت واللقاءات وأماكن التجوال وغيرها سيجري تنفيذه تماماً كما هو مقرّر له، بدأت مطالبها تخبو شيئاً فشيئاً، وتأخذ منحىً نزولياً تواضعياً، فاقترعت جهودها على مراقبة جولة الرئيس الإيراني «عن كثب»، ولا سيما في شقّها الجنوبي، باعتبارها «تحرّشاً» و«عملاً استفزازياً» «لا يُستبعد أن يؤدي إلى تصعيد أمني في المنطقة»، ما يُنسبنا للحظات أنّنا أمام أقوى جيش وأكبر ترسانة عسكرية نووية في المنطقة!!

ويبدو أن هذه المطالبات الإسرائيلية المفضية إلى التراجع والتواضع - هي نفسها - غدت جزءاً رئيسياً من مجموع المفردات التي أعطت لهذه الزيارة بُعداً تاريخياً واستراتيجياً، وأدت إلى ترسخها وتحقيق أهدافها المنشودة لها أكثر، في تجلٍّ آخر من تجليات «الغباء الصهيوني»، المساوق لـ «المكر الإلهي»، كما قال عزّ من قائل: {وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ} [الأنفال: ٣٠]. وليس هذا نتيجة للضعف الصهيوني الحالي فحسب، بل هو - أيضاً - نتيجة لتوازن الرعب الذي استطاعت أن تفرضه قوى الممانعة، في داخل فلسطين المحتلة، ووراء الحدود، بدءاً من الأراضي اللبنانية، ووصولاً إلى العاصمتين السوريتين والإيرانية، وخاصة مع فهم وإدراك هذه القوى لمحدودية القدرة الصهيونية الفعلية غير الكلامية..

ولكن مع ذلك، فهذه «إسرائيل» الغادرة، لا يسعها إلا أن تُخفي عجزها بغطاءٍ من الضجيج والمكابرة، ولكنها - بحمد الله - مكابرة مفضوحة لا تستطيع أن تستر شيئاً من واقع المجتمع الصهيوني المهترئ بفعل هيمنة الخوف الدائم من (انهيار الكيان)، هذا المصير الحتمي الأسود الذي اعتاد الرئيس أحمدي نجاد أن يبشّرهم باقترابهم منه في كلّ محفلٍ دوليٍّ.

وفي هذا الإطار، كان لافتاً ومضحكاً ما ورد في صحيفة «هآرتس» قبل أسبوعٍ من موعد الزيارة، حيث كتب «ألف بن» - مراسل الصحيفة للشؤون السياسية - قائلاً: «إنّ القوّات الإسرائيلية يمكن أن تُقدم على اعتقال نجاد، وكذلك الأمين العامّ لحزب الله السيّد حسن نصر الله، إذا اقترب من الحدود، وكان بمتناول اليد الإسرائيلية!!» وهو كلام يُشبه أخبار المغفلين، وأقلّ ما فيه: أنّه ينمّ عن إرباك في الرؤية فرض مستوى متقدماً من السطحية والسذاجة في التحليل السياسي والقراءة الميدانية.

فيما اختارت بعض الصحف الإسرائيلية لساناً آخر لتعمية الأنظار عن حالة

الذعر والهلع التي خيَّمت على الجبهة الداخلية الصهيونية وهي تترقب الزيارة، وهو لسان التحريض والتهديد واستجرار القوى الخارجية بزعم أن وصول أحدي نجاد إلى لبنان يشكّل نقطة البداية لاحتلال لبنان من قبل تنظيم (حزب الله) (الإيراني الإرهابي)!! وبالتالي: للقضاء على سيادة الحكومة اللبنانية على أراضيها!! والتأكيد على أن القاسم المشترك بين «إسرائيل» والدول العربية «السنية» أكبر من القاسم الذي يجمع ما بين هذه الدول وبين إيران!! وأن إيران تسعى إلى تصدير ثورتها إلى البلدان العربية، بخلاف «إسرائيل» التي هي صديقة العرب، وحليفة المسلمين!!

ومما يضحك الثكلي ما قاله الدكتور «إلداد باردو» في حوار صحفي أجرتة معه جريدة «إيلاف» - وهو أستاذ التاريخ والشرق الأوسط في الجامعة العبرية، و(الخبر) في الشؤون الإيرانية - «أن أكثر من خمسين بالمائة في (إسرائيل) هم من أصول شرقية عربية، فإذا أخذنا بالحسبان أن نحو ٢٠ بالمائة من السكان هم عرب، وأن أكثر من ٣٠٪ من السكان اليهود قد جاؤوا من الدول العربية، وبالتالي: فإنه مع التوصل إلى حل للصراع بين (إسرائيل) والدول العربية، والذي هو مشتق من الصراع العربي - الفلسطيني، فإن اندماج (إسرائيل) في العالم العربي سيكون أسهل بكثير من اندماج إيران فيه؛ لأن للأخيرة أطماعاً في جميع الدول العربية!! بينما لا توجد لـ (إسرائيل) أطماع في الدول العربية!!!!!!».

ويتابع هذا «الخبر» تحبّطه ومسرحيته الهزلية، ليقول: «إن نجاد في سياسته هذه شكّل - عملياً - انقلاباً على المبادئ الأساسية للثورة الإسلامية التي قامت في إيران في عهد [الإمام] الخميني لتحقيق عدل أفضل ونظام إسلامي وفق منظور [الإمام] الخميني، لكن نجاد حرّف خطّ الثورة الإيرانية!!!!!!».

نعم.. فما أحرص الكيان الصهيوني على الإسلام، والنظام الإسلامي، ومبادئ الثورة الإسلامية، وتعاليم الإمام الخميني، والشعب العربي، والدول

الإسلاميّة، والمذهب السنّي، و... ويكاد يقول لنا هذا الدكتور ذو التفاهات: إنَّ «إسرائيل» حريصة حتى على القدس والأقصى والقضيّة الفلسطينيّة!!! وصدق من قال: إن لم تستح فافعل ما شئت، ونضيف: فقل ما شئت.

إنّ في كلّ هذا دليلاً ساطعاً على ما ذكرناه آنفاً من التحليل القائل بأنّ «تل أبيب» لم تقرأ في فصول هذه الزيارة سوى مشهد يدلّ بالفعل على انكسار سياساتها في لبنان، ويحتمّ عليها محاولة آية وسيلة ممكنة في سبيل استعادة هيبتها ومكانتها أمام جبهتها الداخليّة، وأمام الشارع العربيّ والإسلاميّ الذي بات يعتقد - جدّاً - إمكانيّة - بل واقتراب - زوالها.

إلا أنّ شيئاً من هاتين السياستين الفاشلتين، أعني: سياسة التحريض والتهديد، وسياسة المكابرة والضجيج، لم يُوفّق في إسكات ألسنة الصحفيين الصهاينة الذين ما انفكوا يعربون عن الإهانة والشعور القوميّ بالعجز، والذي طفحت به التغطية الإعلاميّة الصهيونيّة لأحداث الزيارة وتفصيلها.

كلّ ذلك يؤكّد - مجدداً - على حقيقة أنّ الكيان الصهيونيّ قد عانى من إرباك في التوجّهات، وقصور في إبداع ديناميّات عملٍ كفيلة بمواجهة هذه الزيارة والحدّ من حجم تداعياتها، ما يعني - من جديد - أنّ «إسرائيل» كانت هي الخاسر الأكبر في معركة الزيارة هذه، وأنّ النتائج التي تسبّبت بها هذه الزيارة قد جاءت كارثيّة على هبة كيانه المزعومة والمصطنعة.

وهنا لا يسعنا إلا أن نرى أنّ هذه الزيارة قد صبّت في سياق توليد معادلةٍ جديدة من معادلات القوى في المنطقة، فبعد أن كانت «إسرائيل» قابضةً على زمام المبادرة والفعل في كلّ ما يتعلّق بأحداث المنطقة، وبعد أن كانت لا تكتفي بالتهديدات القوليّة والضغطات السياسيّة، بل تستفزّ وتعمل بلا حاجةٍ إلى ذرائع، فقد باتت الآن تأمر وحدات جيشها - ثالث أقوى جيوش العالم - بضبط النفس، والامتناع عن أيّ ردّ على الاستفزازات في الجانب اللبّانيّ، ما يعني أنّ

«إسرائيل» تدرك جيداً عجزها التام عن المخاطرة بخوض أية مواجهة يمكن أن تجرّ قدم المارد الإيراني إلى حربٍ مباشرة معها غير محسومة النتائج لصالحها، إن لم يكن فيها زوالها والضربة القاضية عليها.

الاعتراض والغضب الإسرائيليّ لزيارة أحمدى نجاد جاء متناغماً مع نقد أمريكيّ للزيارة، حيث وصفها الناطق الرسميّ باسم البيت الأبيض بأنها زيارة «استفزازيّة»، وكأنّ الساحة اللبنانيّة يجب أن تبقى وقفاً على الزيارات المفاجئة والسريّة الكثيرة للمسؤولين الأمريكيّين كـ (جفري فيلتان) و (جوزيف بايدن) وغيرهما، وهي التي لطالما استباحث الشؤون الداخليّة للدول والشعوب، وتخطّت كلّ الأعراف الدوليّة والدبلوماسية، ومارست التحريض، وأعملت سياسة الانتقاء والفئويّة، وأذكت نيران الفتن بين الأشقاء والإخوة، وفرضت على الدول من يزورها ومن لا يتاح له بزيارتها. والطريف في الأمر: ما قالته وزيرة الخارجية الأمريكيّة هيلاري كلينتون تعليقاً على الزيارة: «إننا لا نقبل تدخل أيّ طرفٍ إقليميّ لزعزعة استقرار لبنان والمنطقة»!!

نعم، فالتدخلات كلّها ممنوعة، إذا كانت من أطراف إقليميّة، والتدخلات الإقليميّة كلّها تهدف إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة!!  
وأما الزيارات الأمريكيّة الودّيّة، والنصائح الأمريكيّة غير الإلزاميّة، فتلك: لا يصدّقن أحد ما يُقال بشأنها من أنّها تدخل في الشؤون الداخليّة، ولا يظنّ أحد أنّها - لا سمح الله - ربما تكون منحازة إلى مصالح الكيان الصهيونيّ..

ولا ندري لماذا رأى الرئيس أوباما من مكانه وراء البحار في «البيت الأبيض» بأنّه شعر بـ «الاستفزاز الشديد» لزيارة نجاد إلى لبنان، وهو الذي يصرّ على أنّ ما تفعله الإدارة الأمريكيّة في المنطقة لا يصنّف على أنّه تدخل في شؤون خارجيّة، بل ما هو إلّا سعي للحفاظ على التوازن الداخليّ للشرائح والأطراف الداخليّة في كلّ بلدان العالم!! وفي سياق متّصل، قالت وزيرة الخارجية



الأميركيّة هيلاري كلينتون: «إن زيارة الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد إلى لبنان خلقت وضعاً غير مستقر في المنطقة». وأضافت في مقابلة لها مع شبكة (إيه بي سي) التلفزيونيّة الأميركيّة: «إنّ نجاد أدلى بتصريحاتٍ لاذعة ضدّ الولايات المتّحدة وأوروبا، وضدّ الفلسطينيين!! والعديد من قادة الدول العربيّة!! الذين يقفون متّحدين ضدّ تصرفات الإدارة الإيرانيّة وسعيها إلى الحصول على أسلحة نوويّة إضافة إلى مساندتها الإرهاب».

وفيما كان العنوان البارز الذي أراد لبنان الرسمي والشعبيّ لهذه الزيارة أن تصطبغ به هو أن تكون «زيارة استثنائيّة، لضيف استثنائيّ، في لحظة استثنائيّة»، فقد كان بالإمكان أن نشعر بالكفهرار أو الامتعاض الذي بدا لائحاً على بعض الوجوه في الداخل اللبنانيّ، في حركة تعكس تناغماً ظاهراً مع القلق الأمريكيّ والإسرائيليّ المتزايد من هذه الزيارة، مع أنّ خطاب الرئيس الإيرانيّ جاء ليؤكدّ للبنانيّين، كلّ اللبنانيّين، أنّ بلاده تقف بلا شكّ ضدّ الفتنة اللبنانيّة الداخليّة، وضدّ أيّة مظاهر يمكن أن تفضي إليها، وذلك من خلال الدعوات التي نادى بها للوفاق الوطنيّ، وإعلانه دعم بلاده للحكومة اللبنانيّة، وللخيارات التي يريدها ويتّفق عليها اللبنانيّون، ليثبت بذلك، وللجميع، أنّ زيارته إنّما تهدف لدعم لبنان، كلّ لبنان، متوجّهاً إلى اللبنانيّين جميعاً بكلمته الشهيرة، التي خاطب بها ودهم وقلوبهم، وأفصح لهم من خلالها عن مكنون محبّته لهم بلسانٍ عربيّ، قائلاً: «أنتم كالجبل الراسخ، نحن نعتزّ ونفتخر بكم، وسنبقى معكم أبداً». ولا سيّما أنّ زيارة الرئيس الإيرانيّ جرت بالتنسيق مع كلّ من المملكة العربيّة السعوديّة والأردن وسوريا، في رسالاتٍ تطمينيّة أراد الرئيس الضيف أن يبعث بها في كلّ اتّجاه، للداخل والخارج على حدّ سواء، ما ينفي بالتأكيد صحّة تلك المزاعم التي حرصت مصادر سياسيّة داخليّة وصفت بـ «المطلّعة» على ضخّها في الداخل اللبنانيّ، والتي كانت تؤكّد على أنّ الزيارة لو حصلت فإنّها «ستكون بلا

شكّ محطّة محتملة من محطّات التآزم السياسي المتصاعد في البلد». كما أنّ الرئيس نجاد، في اللقاء الذي جمعه برئيس الوزراء اللبناني «سعد الحريري»، أكّد للأخير بأنّ مسألة المحكمة الدوليّة الخاصّة بلبنان مسألة لبنانيّة داخلية، ولا شأن للدولة الإيرانيّة بها، مكتفياً بالتأكيد على ضرورة المحافظة على الاستقرار والهدوء في لبنان، ولزوم معالجة مسألة المحكمة بحكمة بالغة، مصرّحاً بأنّ سياق زيارته إلى لبنان لا يندرج في إطار الدخول في زوارب الأزمة الداخليّة اللبنانيّة، وأنّ بلاده وشعبه سيقفان دائماً إلى جانب لبنان، كلّ لبنان، في السراء والضراء، وفي كلّ الظروف.

ولكن، في الوقت عينه، فإنّ سياسة التطمين التي طبّقها الرئيس الضيف لم تكن - على الإطلاق - لتعني بأنّ الرجل سيتخلّى أو سيتغاضى عن شيء من المبادئ الأيديولوجيّة والرؤى السياسيّة التي يعتقدها نظريّاً، وينتهجها عمليّاً، أو أنّه كان سيهادن في الموقف المعادي للكيان الصهيونيّ، أو سيخفّف من لهجة الخطاب وحدّته، بل لقد كان هذا أمراً مرتقباً ومتوقّعاً لدى كلّ من يحسن القراءة في السياسة، غير أنّ البعض في الداخل الإقليميّ والمحليّ، ممّن لا يحلو لهم الرقص إلّا على إيقاع الفتن، أصرّ على أن يُدرج الخطاب الناريّ الذي ألقاه الرئيس أحمددي نجاد في «بنت جيل»، والموجّه بمعظم فقراته إلى العدو الصهيونيّ حصراً، - أن يُدرجه - في سياق الإحراج الإيرانيّ للبنان الرسميّ، أو للموقف العربيّ، متناسياً أنّ هذا الموقف المُعلن في غير مناسبة، يشكّل مبدءاً راسخاً لا يتزعزع في سلّم الأولويّات التي تشكّل الثوابت في قاموس السياسة الخارجيّة الإيرانيّة، والتي يتبنّاها عمليّاً جميع رؤساء الجمهوريّة الإسلاميّة من ألفها إلى يائها، وليس سياسة آنيّة أراد الرئيس الإيرانيّ من خلالها الانغماس في أحوال السياسة الداخليّة، أو أخذ موقع صداميّ في النزاعات الداخليّة، كما أنّه ليس موقفاً حادثاً ابتدعه الرئيس الإيرانيّ ليغيظ به فريقاً لبنانياً داخليّاً على فريق

آخر، أو ليقوّي به فريقاً على حساب آخر. كلّاً، بل إنّ هذا هو الموقف الرسميّ والشعبيّ الإيرانيّ الذي جعلته الثورة الإسلاميّة بقيادة الإمام الخمينيّ العظيم واحداً من شعاراتها ومبادئها وأهدافها.

ومهما يكن، فإنّ وجهات النظر بشأن هذه الزيارة، وردود الأفعال تجاهها، على الرغم من تباينها واختلافها، فهي كلّها تؤشّر إلى مدى الأهميّة التي احتلتّها، والأبعاد التي حملتها، والرسائل التي بعثت بها، والتي تلقّفتها كافّة الجهات التي ترى أنفسها معنيّة بهذه الزيارة؛ لتكون الزيارة بذلك قد حقّقت جميع أهدافها المرجوّة منها.

وحتى لو لم يكن شيء من هذا كلّه، تبقى شخصيّة الرئيس الضيف المثيرة للجدل هي المهيمنة على أجواء الزيارة والتساؤلات الدائرة حولها، ليس من جهة كونه رئيساً للجمهورية الإسلاميّة فحسب - تلك الدولة التي دعمت وتدعم حركات التحرّر من الاحتلال بكلّ غالٍ ونفيس - بل في كونه رئيساً قلّ أو انعدم نظيره في هذا العالم المقهور تحت سياط البرجوازيّة الرأسماليّة الطاغية؛ إذ هو - كما يصفه شعبه - «رجل من جنس الناس» أو الـ «مردم يار».

\* \* \*

## من منشورات عام ٢٠١٠

المجمع العالمي ودار التعارف

□ إعداد: قسم الأرشفة والبحث العلمي

عليه السلام : والمؤلف اعتمد فيه على منهجية تأليف: الشَّيْخ مهدي الفقيه الإيماني. مجلّد واحد من الحجم الكبير، يشتمل على (٦٧٢ ص). الكتاب يندرج تحت العمل الموسوعي، فهو عبارة عن استقصاء للكتب التي صُنِّفَت في الإمام المهدي عليه السلام، سواء كان الإمام عليه السلام هو محورها الأساس، أم كان ذكره فيها من خلال ارتباطه ببعض أبوابها أو فصولها.

وقد اشتمل هذا الكتاب على (٦٧) مؤلفاً، نقل منها كلّ ما يرتبط بالإمام المهدي عليه السلام بما جاء فيها. ومن الامتيازات المهمّة فيه، أنّه حفاظاً على الأمانة العلمية التزم المؤلف في نقله عن تلك المصنّفات على طريقة التصوير، فيبتدئ ذكره

للمصنّف بإتيان الصفحة الرئيسية منه، والتي تحتوي على اسم الكتاب، واسم مؤلفه، مع رقم الجزء إن كان، واسم المحقق، والمؤسسة التي قامت بنشره، والمطبعة، وتاريخ الطبع، كلّ ذلك مصوراً عن الكتاب الأصلي في الطبعة التي ينقل عنها. وبعد ذلك يأتي بما جاء في الكتاب عن الإمام المهدي عليه السلام مصوراً عن المصنّف المنقول عنه بما في ذلك التعليقات والهوامش المذكورة في النسخة المنقولة، من دون أيّ زيادة أو نقصان. وفي صفحة: (٦٦٣) من هذا الكتاب، يأتي مؤلفه بخاتمة، ينبّه فيها على أنّ الذي ذكره من أسماء الكتب ليس هو كلّ ما كتب عن المهدي المنتظر عليه السلام، بل إنّ ما كتبه علماء السنة ومؤلفوهم عنه عليه السلام هو أكثر ممّا كتبه علماء الشيعة. ثمّ أدرج قائمتين في هذه الخاتمة، إحداهما تختصّ بذكر أسماء بعض الكتب لعلماء السنة في خصوص الإمام المهدي عليه السلام، ولم يرد ذكرها في الكتاب، وأورد في هذه القائمة

عشرين عنواناً.

والأخرى ذكرها تكميلاً للفائدة؛ لخروجها عن موضوع الكتاب، وهي قائمة بمصادر شيعية حول الإمام المهدي عليه السلام جاء فيها اثنا عشرة عنواناً.

وهذا الكتاب من منشورات المجمع العالمي لأهل البيت <sup>٨</sup> المطبوع في مطبعة التعارف سنة ١٤٣١هـ.

من أساسيات المنهج الإسلامي الاعتماد على الأمة في إنجاح المسيرة التكامليّة لحركة الإسلام الميدانيّة؛ بإقرار المفاهيم والقيم السّامية في الواقع، وتحقيقها في صورة عمليّة ذات معالم واضحة وملموسة، تترجم فيها التّصورات والنصوص إلى مشاعر وأوضاع وارتباطات وحركات وأعمال وأخلاق، في جميع مجالات الحياة الإنسانيّة.

\* \* \*

:

من منشورات دار التعارف  
للمطبوعات لهذا العام: هذا الكتاب  
التفسيري لمؤلفه المشهور: علي محمد  
علي دخيل.

وقد طُبِعَ في طبعته الثالثة هذه في  
حجم كبير، يشتمل على (٨٣٦)  
صفحة، أوراقه ملوَّنة باللون  
الأخضر، في كلّ صفحةٍ منها  
عامودين، يأتي في الوسط النصّ  
القرآني بخط عثمان طه.

والكتاب في مجمله تلخيص  
للتفسير الجليل الموسوم بـ (مجمع  
البيان) لأبي علي الفضل بن الحسن  
الطبرسي رحمته الله، وبحسب ما جاء في  
مقدمة الكاتب، فإنّه قد عمد -  
تسهيلاً للقارئ الكريم - إلى تلخيص  
هذا الكتاب النفيس، فحذف منه  
فصول القراءة، والحجة، والإعراب،  
واللغة، والنظم، وأسباب النزول،  
واقصر على المعنى ملخصاً.

والمواضع التي يحيل الطبرسي  
تفسيرها إلى محلٍّ آخر من كتابه نقله  
الدخيل إلى موضع الآية التي يبحث

عنه.

\* \* \*

:

كتابٌ آخر من منشورات المجمع  
العالمي لأهل البيت <sup>ع</sup>، لمؤلفه  
العلامة المرحوم السيّد مرتضى  
العسكري، يقع في جزئين.

يقع الجزء الأوّل منهما في (٣٣٥)  
صفحة بالحجم الوزيري (حجم  
الكتاب المتعارف، والجزء الثاني في  
(٧٩٢) صفحة.

وكما عودنا العلامة الراحل في  
معظم كتبه أن يتناول موضوعاً من  
الموضوعات الحساسة، التي تهمّ  
الساحة الإسلامية، وتشغل فكر  
النخب منها، فقد جاء هذا الكتاب  
في سياق الحديث عن أهمّ كتاب من  
الكتب السماوية، الذي لا يأتيه  
الباطل من بين يديه ولا من خلفه،  
الكتاب وإن جاء للدفاع عن مذهب  
متأصل في عمق الإسلام، تجاه ما

٤. أديان العرب في العصر الجاهلي.
- البطاقة الثانية تحت عنوان من تاريخ القرآن، وجاء في فصلين.
- الفصل الأول: في أخبار القرآن في عصر نزوله بمكة، وفي ضمن هذا الفصل تحدّث عن خصائص القرآن المكي وآثاره، وعن القرآن في بدء الدعوة، وعن مقابلة قريش للقرآن الكريم، وعن سياسة النبي ' في أمر القراءة والإقراء، وعن تدوين القرآن، وعن خصائص المجتمع الإسلامي على عهد الرسول '.
- الفصل الثاني: في أخبار القرآن في عصر نزوله في المدينة، وتكلّم فيه عن: القرآن المدني وما حواه، النظام الذي سنّه النبي ' في إقراء القرآن، نظام المفاضلة بالقرآن، تدوين القرآن في المدينة، أخبار السيرة في القرآن الكريم.
- البطاقة الثالثة، وعنوانها: مصطلحات إسلامية قرآنية، جاء فيها: الوحي ونزوله، القرآن
- نُسب إليه - ظلماً وجوراً - من فرية التحريف وما شابهها، إلّا أنّه في الوقت نفسه، هو دفاع عن القرآن الذي به تحيا الأمّة الإسلامية، وتسير على هدي ربها.
- وهذه الدعوى ليست جزافاً؛ وذلك لأنّ نظرة مختصرة إلى فصوله وبحوثه كافية للجزم بصدقها، ومن هذا المنطلق تُشير إلى فصول البحث، ونترك الحكم للقارئ اللبيب لكي يغترف من ندير ما سطره هذا العالم الجليل من لئالي ودرر.
- اختصّ الجزء الأول من الكتاب بالبحوث التمهيدية التي وزّعت في ضمن بطاقات ثلاث:
- البطاقة الأولى، وعنوانها: ملامح المجتمع العربي الجاهلي الذي نزل في القرآن وخصائصه. وجاء فيه بحوث أربعة:
١. النظام القبلي.
  ٢. الوضع الاقتصادي ومصادر الثروة في الجزيرة العربية.
  ٣. النظم الاجتماعية.

- والكتاب والمصحف، السورة والآية،  
الجزء والحزب، التلاوة والقراءة،  
الجامع والحافظ، الترتيل والتجويد،  
النسخ.
- وأما الجزء الثاني الذي هو أكبر  
حجماً من سابقه بأكثر من ضعفين،  
فقد اشتمل على البحوث التالية:
١. الدليل المشترك بين المدرستين  
على وقوع التحريف في  
شرائع الأنبياء.
  ٢. روايات البسمة وتناقضها  
ومنشؤه.
  ٣. روايات جمع القرآن  
وتناقضها.
  ٤. روايات اختلاف المصاحف  
والزيادة والنقيصة في القرآن  
معاذ الله.
  ٥. روايات نزول القرآن على  
سبعة أحرف وعلى سبعة  
أوجه.
  ٦. القراءات المختلفة وقراؤها.
  ٧. بحوث النسخ والإنشاء في  
القرآن الكريم.
٨. دراسة الروايات السابقة  
والاجتهادات الخاطئة.
٩. المستشرقون والقرآن الكريم.
- \* \* \*
- :
- من منشورات دار التعارف  
للمطبوعات، يقع في (٣٨٩) صفحة  
بالحجم الوزيري، لمؤلفه الشيخ أسد  
حيدر صاحب كتاب الإمام  
الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة.
- الكتاب - على حسب ما ذكر  
المؤلف في مقدمته - فكرة راودته منذ  
زمن، يتحدث عن تاريخ حياة الإمام  
الحسين عليه السلام وثورته، يبحث بحثاً عن  
الأدوار التي مرّ بها هذا الإمام العظيم  
منذ نعمة أظفاره إلى يوم شهادته.
- ومما يؤسف له أن الفهرس (مسرد  
الموضوعات) المعد في هذه الطبعة لا  
يحكي عن مباحث الكتاب بشكلٍ  
فنيٍّ؛ حيث لم يميّز فيه بين العناوين  
الأصلية والعناوين الفرعية.



وكيف كان، فالعناوين الأصلية  
في هذا الكتاب موزعة كالتالي:  
- الحسين عليه السلام لمحات من حياته.  
- المدخل.  
- ولاية العهد.  
- بداية المعركة.  
- مسلم بن عقيل.  
- نحو العراق.  
- الحصار.

- في انتظار القتال.  
- بين العقيدة والعاطفة.  
- الطالبيون.  
- مصرع الحسين عليه السلام.  
- زينب الكبرى في خاتمة المطاف.  
- نداء الثأر.

\* \* \*

## متابعات متنوعة

### □ إعداد: هيئة التحرير

الإيراني سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق. ممثّل عن مكتب سماحة الإمام السيّد علي الخامني دام ظله. ممثّل عن المفتي العام للجمهورية العربية السورية، وعدد كبير من السادة العلماء ورجال الدين من مختلف المذاهب الإسلامية ومختلف المحافظات السورية، ورجال دين مسيحيين، وأساتذة جامعات وأكاديميين، ورجال فكر وعلم وبحث وتحقيق وتأليف. قدم للمؤتمر وأدار جلسته السيد حسن الموسوي التبrizي، مدير مكتب دمشق للمجمع العالمي لأهل البيت<sup>ع</sup>، وكان الاستهلال بتلاوة

:  
عقد المجمع العالمي لأهل البيت<sup>ع</sup>، فرع مكتب سوريا ملتقىً تحضيرياً للمؤتمر الدولي للإمام السجاد<sup>ع</sup> وذلك في يوم الاثنين الواقع في ١٢ / ٨ / ٢٠١٠ في مركز الدراسات الإيرانية العربية التابع للمستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق. وبرعاية آية الله الشيخ قربان علي دري نجف آبادي، رئيس الهيئة العلمية للمجمع العالمي لأهل البيت<sup>ع</sup>، وبحضور عددٍ من الشخصيات منهم: الدكتور السيد أحمد الموسوي مستشار الرئيس

عطرة من الذكر الحكيم، تلتها كلمة آية الله الشيخ دري نجف آبادي، الذي رحّب بالحضور الكريم وشكرهم على مساعيهم، كما عبر عن سعادته بهذا اللقاء، ثم تناول في كلمته شذراتٍ من حياة الإمام السّجّاد × وصفاته وخصائصه الجهادية والعلمية والعبادية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية ثم تحدث عن آثار الإمام السّجّاد × الجليلة، متعرّضاً لكلّ من الصحيفة السّجّادية ورسالة الحقوق، واصفاً إياهما بالكنوز العظيمة في مجالاتها، وأنها منارة تنير طريق الأجيال المتعاقبة، وقال: إذا أرادت البشرية النجاة، فلا طريق لها إلا أن تتركب سفينة أهل البيت <sup>ع</sup>، والإمام زين العابدين من هذا البيت النبوي الطاهر، وصحيفته المسماة بـ «الصحيفة السّجّادية» هي عبارة عن منظومة متكاملة من القوانين والمبادئ والقيم والآثار والحكم، في جوانبها المتعدّدة: الأسريّة والاجتماعية والأخلاقية والسياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها، وأنّ الأُمَّ الإسلامية أحوج ما تكون اليوم إلى الاعتماد على النفس، والتآخي والتآلف والوحدة الإسلاميّة، وفي هذه الصحيفة - أيضاً - دروس مهمّة في هذه المجالات، ثمّ عرّج على المؤتمر الدوليّ للإمام السّجّاد × الذي سينعقد في طهران العام القادم، وحثّ جميع الحضور على المشاركة والمساهمة الفعّالة، وبذل الجهود المخلصة والكافية، بحيث يمكن لهذه الجهود أن تشكّل موسوعةً علميّة مهمّة، ودائرة معارف إسلامية كبيرة، ثمّ في الختام، كرّر شكره للحضور على مشاركتهم ومساهماتهم وحُسن إصغائهم. وبعد ذلك، توالى كلمات الحاضرين واحداً تلو الآخر، وقد أجمعت الكلمات على فضل وعظمة الإمام السّجّاد ×، والدور الرياديّ البارز الذي قام به، وبخاصّة في مجال وضع اللبّات الأولى للنهضة العلميّة الإسلاميّة، حيث قام × بتأسيس

مدرسة في بيته، وفي مسجد الرسول الأكرم '، وكان يُلقى فيها الدروس، ويربّي الدارسين على التمرّس في الفقه والتفسير والحديث وبقية فروع العلوم الإسلامية. كما ركّز المتحدثون - أيضاً - على الصحيفة السجّادية، زبور آل محمد '، وكذلك رسالة الحقوق. وكان من أبرز المتحدثين الدكتور نبيل سليمان مستشار وزير الأوقاف في الجمهورية العربية السورية، والشيخ الدكتور علاء الدين الزعتري أمين الفتوى ممثلاً للسيد وزير الأوقاف، والعلامة الدكتور سهيل زكار، والدكتور الشيخ نبيل الحلباوي، وآية الله الشيخ شفيعي من إيران، والسيد خالد زاده، الملحق الثقافي في المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق، وسماحة الشيخ سالك، المعاون الثقافي في المجمع العالمي لأهل البيت X، وكان مسك الختام كلمة ألقاها السيد الدكتور أحمد الموسوي

سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق.

\* \* \*

شارك حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد حسن أختري الأمين العام للمجمع العالمي لأهل البيت <sup>٨</sup> في مؤتمر دور العلماء والدعاة في ضبط الخطاب الديني ووحدة الأمة الذي أقامته وزارة الأوقاف السوريّة بمشاركة عدد كبير من العلماء والمفكرين والباحثين والدعاة، من مصر ولبنان وفلسطين وإيران وتركيا، إضافةً إلى سورية.

وقد ألقى الأمين العام للمجمع كلمةً أوضح فيها أهميّة مثل هذا المؤتمر في توحيد الأمة الإسلامية، وتعزيز التلاحم والتكاتف بين أبنائها، وفتح باب الحوار والنقاش

للتفاهم حول العديد من القضايا، لافتاً إلى ضرورة خروج هذا المؤتمر بمقترحاتٍ وتوصياتٍ من شأنها معالجة مشاكل الأمة الإسلامية

وهومها وتحدياتها المعاصرة. ويّـن الشيخ أخـري المسؤوليّة الجسيمة الملقاة على عاتق العلماء والدعاة في الدفاع عن حقوق هذه الأمة وعزّتها ومنعتها، وعن الأسس والمبادئ والقيم الإنسانيّة السامية، مشيراً إلى الدور البارز الذي يلعبه الإعلام في توضيح وتبيين المعارف الدينيّة والشؤون الاجتماعيّة للأمة الإسلامية وللعالم أجمع، وكذلك الدور الذي يستطيع إنجازه على صعيد كشف المخطّطات الإسرائيليّة الخبيثة، وحشد الرأي العام العالميّ للدفاع عن الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، والعمل على استرجاع الحقوق المغتصبة وحماية المقدّسات.

وكان من بين الشخصيات التي تحدّثت في هذا المؤتمر أيضاً كلّ من: الدكتور محمد عبد الستار، وزير الأوقاف السوريّ، والدكتور أحمد بدر الدين حسون، المفتي العامّ للجمهوريّة السوريّة، والدكتور الشيخ علي جمعة، مفتي الديار المصريّة، والدكتور السيّد أحمد

جدير بالذكر أنّ الكلمات التي أُلقيت في هذا المؤتمر أكّدت بمجملها على ضرورة رعاية الدعاة لمبدأ

الموسوي، السفير الإيراني بدمشق،  
والشيخ نعيم قاسم، نائب الأمين  
العام لحزب الله، وآية الله الشيخ محمد  
على التسخيري، الأمين العام  
للمجمع العالمي للتقريب بين  
المذاهب الإسلامية، والدكتور الشيخ  
محمد سعيد رمضان البوطي، المشرف  
على الحلقات العلمية وخطيب الجامع  
الأموي بدمشق، وآية الله السيد مجتبي  
الحسيني ممثل الإمام السيد علي  
الخامني في سورية، وغيرهم من  
العلماء والباحثين والدعاة وأهل  
القلم والبحث والتحقيق.

\* \* \*

٨

:

قام المجمع العالمي لأهل  
البيت ٨ بنشر ما يزيد على ١٤  
مجلة علمية ثقافية إسلامية بعناوين  
وأسماء مختلفة، واضعاً إياها في خدمة

القرّاء المتعطّشين لمعارف المذهب  
الشيعة ومدرسة أهل البيت ٨ في  
كلّ أرجاء المعمورة.

ففي مقابلة أجراها مركز أخبار  
الحوزة العلمية مع حجة الإسلام  
والمسلمين سماحة الشيخ عباس  
جعفري، مسؤول شؤون المجالات  
في المجمع العالمي لأهل البيت ٨،  
قال سماحته: حتى وقتنا الحالي، فإنّ  
أكثر من عشرين عاماً مضت على بدء  
المجمع العالمي لأهل البيت ٨  
بممارسة فعاليّاته ونشاطاته الثقافية،  
وقد خصّص المجمع منذ بداية عمله  
قسماً خاصاً يُعنى بشؤون المجالات  
والمنشورات الثقافية النافعة، لغرض  
تعريف الشيعة وأتباع أهل  
البيت ٨ في كلّ مكان في هذا العالم  
بتعاليم مذهبهم ومدرسة التشيع التي  
يتمون إليها.

كما أشار سماحته إلى الأقسام  
والأبواب المختلفة التي تعالجها هذه  
المجلات، من الردّ على الشبهات  
المثارة على الإسلام ومذهب أهل

البيت <sup>٨</sup>، إلى الإجابة عن الأسئلة التي يبعث بها القراء من المسلمين والشيعية من جميع أقطار العالم، إلى بيان تعاليم الإسلام الحنيف، وأصول المعارف الإسلامية، بالإضافة إلى العديد من المواضيع الأخرى التي تتناول شؤوناً تعني الأمة الإسلامية ككل، إلى جانب ما تقوم به هذه المجلات من بث أخبار المجمع العالمي ونشاطاته وفعالياته والمؤتمرات التي يقيمها أو يشارك فيها.

وأضاف الشيخ جعفري: إنّ المقالات التي تنشرها هذه المجلات تُكتب بواسطة شخصيات علمية من الحوزة أو الجامعة، من داخل إيران وخارجها.

ومن بين هذه المجلات: مجلة «رسالة الثقلين» باللغة العربية، وهي المجلة التي بين يديك. مجلة كوثر باللغة الإسبانية، تخاطب الأسرة وتعنى بشؤون المرأة والطفل. مجلة «ذوي القربى» باللغة الماليزية. مجلة

«ملائكة صغار» باللغة الإسبانية أيضاً، وهي خاصة بالأطفال. مجلة «ينابيع الحكمة» باللغة الفرنسية. وغير ذلك من المجلات التي يعترزم المجمع ويعمل على تحويلها إلى مجلات إلكترونية ينشرها تباعاً على الانترنت، على موقعه الخاص وهو (www.ahlulbaytportal.com) علماً بأنّ المجمع قد أنشأ فعلاً لبعض مجلاته موقعاً خاصاً كموقع (www.messageofthaqalayn) والذي ينشر فيه مجلة «رسالة الثقلين» باللغة الانجليزية.

\* \* \*

٨

:

شارك المجمع العالمي لأهل البيت <sup>٨</sup> في المعرض الدولي السابع عشر للكتاب الذي أُقيم في العاصمة الصينية بكين، وذلك بالتنسيق مع

المسؤولين الثقافيين الإيرانيين الحاضرين هناك. ويشارك في هذا المعرض ٥٦ بلداً أجنبياً، في ٢٠٠٠ مؤسسة نشر دولية، وتجري في كواليس المعرض مباحثات ومداولات بين مسؤولي مراكز النشر وأصحاب غرف البيع المشاركين في المعرض فيما يتعلق بجديد عالم الكتب والمنشورات. وهذه هي السنة الثانية على التوالي التي يشارك فيها المجمع العالمي لأهل البيت <sup>٨</sup> في هذا المعرض، حيث كان له جناح خاص به، عرض فيه ما يزيد على ٤٠ عنواناً توزعت على كتب ومجلات، وبلغات متعددة، عربية وفارسية وانجليزية وصينية .. وهي في معظمها تركز على التعريف بمبادئ الإسلام ومدرسة أهل البيت <sup>٨</sup> والقرآن والحديث والتاريخ وغير ذلك من المواضيع الثقافية والاجتماعية ..

وقد حضر إلى هذا الجناح عدد كبير من المسلمين الصينيين المقيمين في مدينة بكين وسائر المدن الصينية،

وقد جرت بين القيميين على هذا الجناح وبين المراجعين عامةً مداولات عدة في الشأن الثقافي العام. هذا.

وإلى جانب معرض بكين، فقد شارك المجمع العالمي لأهل البيت <sup>٨</sup> في الكثير من المعارض الدولية للكتاب في أنحاء العالم، نذكر منها:

- المعرض الدولي للكتاب في دولة تايلاند، وبالتحديد: في مدينة بانكوك.

- المعرض الدولي للكتاب الذي أقيم في سوريا، في العاصمة دمشق، والذي شارك فيه من الجمهورية الإسلامية الإيرانية إلى جانب المجمع العالمي لأهل البيت <sup>٨</sup>: المستشارية الثقافية، والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وجامعة المصطفى ' العالمية. مضافاً إلى ٢٢ بلداً آخر.

- المعرض الدولي للكتاب في جمهورية جنوب أفريقيا، في العاصمة



المتوجات ذات الطابع الثقافي، من سجادات الصلاة، والحجاب (المقنعة)، والصور، وغير ذلك..

\* \* \*

كايب تاون، هذا المعرض الذي افتتحه الرئيس الأسبق لهذه الجمهورية نيلسون مانديلا. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُشارك فيها المجمع العالمي لأهل البيت <sup>٨</sup> في هذا المعرض.

- المعرض الدولي للكتاب في بوغوتا، العاصمة الكولومبية، والذي استمر لمدة ١١ يوماً.

- المعرض الدولي للكتاب في مدينة ساو باولو البرازيلية، وهو ثالث معارض الكتاب في العالم، والأضخم في أمريكا الجنوبية.

- المعرض الدولي للكتاب في العاصمة الروسية موسكو، والذي شاركت فيه العديد من المؤسسات الثقافية الإيرانية.

- المعرض الدولي للكتاب في نيروبي، عاصمة كينيا، والذي استعرض فيه المجمع العالمي حوالي ١٠٥ كتاباً باللغات: الإنجليزية والعربية والسواحيلية. كما قام المجمع أيضاً بعرض وإهداء عددٍ من

## قسمة الاشتراك

رسالة الثقلين  
مجلة اسلامية جامعة

/

( )

( )

☐ : ☐ ☐

أرسل هذه القسيمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:  
.



.....

:

)

:

☐

:

(

/

( )

:

عليه السلام.

( )

:

☐

.( )

:

:

☐

☐

رسالة الثقلين /



The ahl – ul Bayt (a)  
World Assembly

## **RISALATUTH - THAQALAYN**

**A General Islamic Periodical**

**Vol . 17, No . 67, Autumn 2010**